يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام لأنه لا يختلف ولكن يختلف فيه البلاد ، وينتزع من هنا جواب في تنكير البلدة والأنعام والأناسي.
ومن نسب الأمطار إلى الأنواء وجحد أن تكون هي والأنواء من خلق الله تعالى كفر ، وإن رأى أن الله تعالى خالقها وقد نصب الأنواء أمارات ودلالات عليها لم يكفر
جزء : 3 رقم الصفحة : 249
{ الْكَافِرِينَ } أي لو شئنا لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى ، ولبعثنا في كل قرية نبياً ينذرها ، ولكن شئنا أن تجمع لك فضائل جميع المرسلين بالرسالة إلى كافة العالمين فقصرنا الأمر عليك وعظمناك به فتكون وحدك ككلهم ، ولذا خوطب بالجمع يا أيها الرسل فقابل ذلك بالشكر والصبر والتشدد ، فلا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم ، وكما اثرتك على جميع الأنبياء فاثر رضائي على جميع الأهواء ، وأريد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم { وَجَاهِدْهُم بِهِ } [الفرقان : 52] أي بالله يعني بعونه وتوفيقه أو بالقرآن أي جادلهم به وقرعهم بالعجز عنه { جِهَادًا كَبِيرًا } [الفرقان : 52] عظيماً موقعه عند الله لما يحتمل فيه من المشاق ، ويجوز أن يرجع الضمير في به إلى ما دل عليه ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً من كونه نذير كافة القرى لأنه لو بعث في كل قرية نذيراً لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له : وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهاداً كبيراً جامعاً لكل مجاهدة.
{ وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ } [الفرقان : 53] خلاّهما متجاورين متلاصقين.
تقول : مرجت الدابة إذا خليتها ترعي ، وسمى الماءين الكثيرين الواسعين بحرين { هَاذَآ } أي أحدهما { عَذْبٌ فُرَاتٌ } [فاطر : 12] صفة لـ عذب أي شديد العذوبة حتى يقرب إلى الحلاوة { وَهَاذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ } [الفرقان : 53] صفة لـ ملح أي شديد الملوحة { وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا } [الفرقان : 53] حائلاً من قدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج فهما في الظاهر مختلطان وفي الحقيقة منفصلان
250
{ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا } [الفرقان : 53] وستراً ممنوعاً عن الأعين كقوله حجاباً مستورا
جزء : 3 رقم الصفحة : 250
{ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ } [الفرقان : 54] أي النطفة { بَشَرًا } إنساناً { فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا } [الفرقان : 54] أراد تقسيم البشر قسمين : ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم فيقال فلان بن فلان وفلانة بنت فلان ، وذوات صهر أي إناثاً يصاهر بهن كقوله تعالى { فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالانثَى } [القيامة : 39] { وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا } [الفرقان : 54] حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً نوعين ذكراً وأنثى.
وقيل : فجعله نسباً أي قرابة وصهراً مصاهرة يعني الوصلة بالنكاح من باب الأنساب لأن التواصل

يقع بها وبالمصاهرة لأن التوالد يكون بهما { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ } [الفرقان : 55] إن عبدوه { وَلا يَضُرُّهُمْ } [الفرقان : 55] إن تركوه { وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ } [الفرقان : 55] على معصية ربه { ظَهِيرًا } معيناً ومظاهراً.

وفعيل بمعنى مفاعل غير عزيز والظهير والمظاهر كالعوين والمعاون والمظاهرة المعاونة ، والمعنى أن الكافر بعبادة الصنم يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الرحمن.

{ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّرًا } [الإسراء : 105] للمؤمنين { وَنَذِيرًا } منذراً للكافرين.

(141/3)

{ قُلْ مَآ أَسْاَلُكُمْ عَلَيْهِ } [الفرقان : 57] على التبليغ { مِنْ أَجْرٍ } [الفرقان : 57] جعل { إِلا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا } [الفرقان : 57] والمراد إلا فعل من شاء واستثناؤه من الأجر قول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه ، فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ولكن صورة بصورة الثواب كأنه يقول : إن حفظت مالك اعتدّ حفظك بمنزلة الثواب لي ورضائي به كرضا المثاب بالثواب ، ولعمري إنه عليه الصلاة والسلام مع أمته بهذا الصدد.

ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلاً تقربهم إليه بالإيمان والطاعة أو بالصدقة والنفقة.

وقيل : المراد لكن من شاء أن يتخذ بالإنفاق إلى رضاء ربه سبيلاً فليفعل.

وقيل : تقديره لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجراً إلا اتخاذ المدعو سبيلاً إلى ربه

251

بطاعته فذلك أجري لأن الله يأجرني عليه.

جزء : 3 رقم الصفحة : 251

{ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَىِّ الَّذِى لا يَمُوتُ } [الفرقان : 58] اتخذ من لا يموت وكيلاً لا يكلك إلى من يموت ذليلاً يعني ثق به وأسند أمرك إليه في استكفاء شرورهم ولا تتكل على حي يموت.

وقرأها بعض الصالحين فقال : لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق والتوكل الاعتماد عليه في كل أمر { وَسَبِّحْ } من لا يكل إلى غيره من توكل عليه { بِحَمْدِهِ } بتوفيقه الذي يوجب الحمد أو قل سبحان الله وبحمده أو نزهه عن كل العيوب بالثناء عليه { وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا } [الفرقان : 58] أي كفى الله خبيراً بذنوب عباده يعني أنه خبير بأحوالهم كافٍ في جزاء أعمالهم { الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ } [الفرقان : 59] أي في مدة مقدار هذه المدة لأنه لم يكن حينئذ ليل ونهار.

روي عن مجاهد : أو لها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، وإنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على

أن يخلقها في لحظة تعليماً لخلقه الرفق والتثبت { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ } [الفرقان : 59] أي هو الرحمن فـ الرحمن خبر مبتدأ محذوف أو بدل من الضمير في استوى أو الذي خلق مبتدأ والرحمن خبره ف { سُاالِ } بلا همزة مكي وعلي { بِهِ } صلة " سل " كقوله { سَأَلَ سَآ الِ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ } [المعارج : 1] كما تكون " عن " صلته في قوله تعالى { ثُمَّ لَتُسْاَلُنَّ يَوْمَاِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } [التكاثر : 8] فسأل به كقولك اهتم به واشتغل به وسأل عنه كقولك بحث عنه وفتش عنه أو صلة { خَبِيرًا } ويكون خبيراً مفعول سل أي فاسأل عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته ، أو فاسأل رجلاً خبيراً به وبرحمته ، أو الرحمن اسم من أسماء الله تعالى مذكور في الكتب المتقدمة ولم يكونوا يعرفونه فقيل : فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتب حتى تعرف من ينكره ، ومن ثم كانوا يقولون ما نعرف الرحمن إلا

252

الذي باليمامة يعنون مسيلمة وكان يقال له رحمان اليمامة.

جزء : 3 رقم الصفحة : 252

(142/3)

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ } [البقرة : 91] أي إذا قال محمد عليه الصلاة والسلام للمشركين { اسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ } [الفرقان : 60] صلوا لله واخضعوا له { قَالُوا وَمَا الرَّحْمَانُ } [الفرقان : 60] أي لا نعرف الرحمن فنسجد له ، فهذا سؤال عن المسمى به لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم والسؤال عن المجهول بـ " ما " أو " عن " معناه لأنه لم يكن مستعملاً في كلامهم كما استعمل الرحيم والراحم والرحوم { أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا } [الفرقان : 60] للذي تأمرنا بالسجود له أو لأمرك بالسجود يا محمد من غير علم منا به. يأمرنا علي وحمزة كأن بعضهم قال لبعض : أنسجد لما يأمرنا محمد أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو؟ فقد عاندوا لأن معناه عند أهل اللغة ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة لأن فعلان من أبنية المبالغة تقول : رجل عطشان إذا كان في نهاية العطش { وَزَادَهُمْ } قوله اسجدوا للرحمن { نُفُورًا } تباعداً عن الإيمان { تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَآءِ بُرُوجًا } [الفرقان : 61] هي منازل الكواكب السيارة لكل كوكب بيتان يقوي حاله فيهما.

وللشمس بيت وللقمر بيت.

فالحمل والعقرب بيتا المريخ ، والثور والميزان بيتا الزهرة ، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد ، والسرطان بيت القمر ، والأسد بيت الشمس ، والقوس والحوت بيتا المشتري ، والجدي والدلو بيتا زحل.

وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع فيصيب كل واحد منها ثلاثة بروج : فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية ، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية ، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية ،

والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية.
سميت المنازل بالبروج التي هي القصور العالية لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البروج من التبرج لظهوره.
وقال الحسن وقتادة ومجاهد : البروج هي النجوم الكبار لظهورها { وَجَعَلَ فِيهَا } [فصلت : 10] في السماء { سِرَاجًا } يعني الشمس لتوقدها.
سرجا حمزة وعلى أي نجوماً { وَقَمَرًا مُّنِيرًا } [الفرقان : 61] مضيئاً بالليل.
{ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً } [الفرقان : 62] فعلة من خلف كالركبة من ركب
253
وهي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كل واحد منهما الآخر ، والمعنى جعلهما ذوي خلفة يخلف أحدهما الآخر عند مضيه أو يخلفه في قضاء ما فاته من الورد { لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ } [الفرقان : 62] يتدبر في تسخيرهما واختلافهما فيعرف مدبرهما.
يذكر حمزة وخلف أي يذكر الله أو المنسي فيقضي { أَوْ أَرَادَ شُكُورًا } [الفرقان : 62] أي يشكر نعمة ربه عليه فيهما.
جزء : 3 رقم الصفحة : 253
{ وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ } [الفرقان : 63] مبتدأ خبره { الَّذِينَ يَمْشُونَ } [الفرقان : 63] أو أولئك يجزون و { الَّذِينَ يَمْشُونَ } [الفرقان : 63] وما بعدهما صفة والإضافة إلى الرحمن للتخصيص والتفضيل.
وصف أولياءه بعدما وصف أعداءه { عَلَى الارْضِ هَوْنًا } [الفرقان : 63] حال أو صفة للمشي أي هينين أو مشياً هيناً.
والهون الرفق واللين أي يمشون بسكينة ووقار وتواضع دون مرح واختيال وتكبر فلا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً ولذا كره بعض العلماء الركوب في الأسواق ولقوله : ويمشون في الأسواق { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ } [الفرقان : 63] أي السفهاء بما يكرهون { قَالُوا سَلَامًا } [الفرقان : 63] سداداً من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإفك أو تسلماً منكم نتارككم ولا نجاهلكم فأقيم السلام مقام التسلم.
وقيل : نسختها آية القتال.
ولا حاجة إلى ذلك فالإغضاء عن السفهاء مستحسن شرعاً ومروءة.
هذا وصف نهارهم ثم وصف ليلهم بقوله { وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا } [الفرقان : 64] جمع ساجد { وَقِيَامًا } جمع قائم والبيتوتة خلاف الظلول وهي أن يدركك الليل نمت أو لم تنم.
وقالوا : من قرأ شيئاً من القرآن في صلاة وإن قل فقد بات ساجداً وقائماً.
وقيل : هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء.
والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ

عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا } [الفرقان : 65]
254

(143/3)

هلاكاً لازماً ومنه الغريم لملازمته.
وصفهم بإحياء الليل ساجدين قائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذاناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون متضرعون إلى الله في صرف العذاب عنهم
جزء : 3 رقم الصفحة : 254
{ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا } [الفرقان : 66] أي إن جهنم.
و " ساءت " في حكم " بئست " وفيها ضمير مبهم يفسره مستقراً والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقراً ومقاماً هي ، وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم " إن " وجعلها خبراً لها ، أو بمعنى أحزنت وفيها ضمير اسم " إن " ومستقرا حال أو تمييز ، ويصح أن يكون التعليلان متداخلين ومترادفن وأن يكونا من كلام الله تعالى وحكاية لقولهم.
{ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا } [الفرقان : 67] لم يجاوزوا الحد في النفقة أو لم يأكلوا للتنعم ولم يلبسوا للتصلف.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما : لم ينفقوا في المعاصي فالإسراف مجاوزة القدر.
وسمع رجل رجلاً يقول : لا خير في الإسراف.
فقال : لا إسراف في الخير ، وقال عليه الصلاة والسلام " من منع حقاً فقد قتر ومن أعطى في غير حق فقد أسرف " { وَلَمْ يَقْتُرُوا } [الفرقان : 67] بضم التاء كوفي ، وبضم الياء وكسر التاء مدني وشامي ، وبفتح الياء وكسر التاء مكي وبصري.
والقتر والإقتار والتقتير والتضييق الذي هو نقيض الإسراف { وَكَانَ } إنفاقهم { بَيْنَ ذَالِكَ } [النساء : 150] أي الإسراف والإقتار { قَوَامًا } أي عدلاً بينهما فالقوام العدل بين الشيئين والمنصوبان أي { بَيْنَ ذَالِكَ قَوَامًا } [الفرقان : 67] خبران وصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير ، وبمثله أمر عليه الصلاة والسلام { وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ } [الإسراء : 29] الآية.
وسأل عبد الملك بن مروان عمر بن عبد العزيز عن نفقته حين زوجه ابنته فقال : الحسنة بين السيئتين.
فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية.
وقيل : أولئك أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثيابهم للجمال

والزينة ولكن لسد الجوعة وستر العورة ودفع الحر والقر.
وقال عمر رضي الله عنه : كفى سرفاً أن لا يشتهي الرجل شيئاً إلا أكله.
جزء : 3 رقم الصفحة : 255
{ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـاهًا ءَاخَرَ } [الفرقان : 68] أي لا يشركون { وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ } [الفرقان : 68] أي حرمها يعني حرم قتلها { إِلا بِالْحَقِّ } [الأنعام : 151] بقود أو رجم أو ردة أو شرك أو سعي في الأرض بالفساد ، وهو متعلق بالقتل المحذوف أو بـ لا يقتلون { وَلا يَزْنُونَ } [الفرقان : 68] ونفى هذه الكبائر عن عباده الصالحين تعريض لما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم كأنه قيل : والذي طهرهم الله مما أنتم عليه { وَمَن يَفْعَلْ ذَالِكَ } [النساء : 114] أي المذكور { يَلْقَ أَثَامًا } [الفرقان : 68] جزاء الإثم { يُضَـاعَفْ } بدل من يلق لأنهما في معنى واحد إذ مضاعفة العذاب هي لقاء الآثام كقوله :
متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا
تجد حطباً جزلاً وناراً تأججا
فجزم " تلمم " لأنه بمعنى " تأتنا " إذ الإتيان هو الإلمام.
يضعّف مكي ويزيد ويعقوب.
يضعّف شامي يضاعف أبو بكر على الاستئناف أو على الحال ومعنى يضاعف { لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [الفرقان : 69] أي يعذب على مرور الأيام في الآخرة عذاباً على عذاب.
وقيل : إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعاً فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه { وَيَخْلُدْ } جزمه جازم { يُضَـاعَفْ } ورفعه رافعه لأنه معطوف عليه { فِيهِ } في العذاب فهي مكي وحفص بالإشباع.
وإنما خص حفص الإشباع بهذه الكلمة مبالغة في الوعيد.
والعرب تمد للمبالغة مع أن الأصل في هاء الكناية الإشباع { مُهَانًا } حال أي ذليلاً { إِلا مَن تَابَ } [مريم : 60] عن الشرك وهو استثناء من الجنس في موضع النصب

(144/3)

{ وَءَامَنَ } بمحمد عليه الصلاة والسلام { وَعَمِلَ عَمَلا صَـالِحًا } [الفرقان : 70] بعد توبته { فَأُولَـائِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَاتِهِمْ حَسَنَـاتٍ } [الفرقان : 70] أي يوفقهم للمحاسن بعد القبائح أو يمحوها بالتوبة ويثبت مكانها الحسنات الإيمان والطاعة ، ولم يرد به أن السيئة بعينها حسنة ولكن المراد ما ذكرنا.

يبدل مخففاً البرجمي { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا } [النساء : 96] يكفر السيئات { رَّحِيمًا } يبدلها بالحسنات.
جزء : 3 رقم الصفحة : 256
{ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا } [الفرقان : 71] أي ومن تاب وحقق التوبة بالعمل الصالح فإنه يتوب بذلك إلى الله تعالى متاباً مرضياً عنده مكفراً للخطايا محصلاً للثواب { وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ } [الفرقان : 72] أي الكذب يعني ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يقربونها تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله إذ مشاهدة الباطل شركة فيه ، وكذلك النظارة إلى ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه في الآثام لأن حضورهم ونظرهم دليل على الرضا.
وسبب وجود الزيادة فيه وفي مواعظ عيسى عليه السلام : إياكم ومجالسة الخاطئين.
أو لا يشهدون شهادة الزور على حذف المضاف.
وعن قتادة : المراد مجالس الباطل.
وعن ابن الحنفية : لا يشهدون اللهو والغناء.
{ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ } [الفرقان : 72] بالفحش وكل ما ينبغي أن يلغى ويطرح ، والمعنى وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به { مَرُّوا كِرَامًا } [الفرقان : 72] معرضين أنفسهم عن التلوث به كقوله.
{ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ } وعن الباقر رضي الله عنه : إذا ذكروا الفروج كنوا عنها { وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ } [الفرقان : 73] أي قرىء عليهم القرآن أو وعظوا
257
بالقرآن { لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا } [الفرقان : 73] هذا ليس بنفي الخرور بل هو إثبات له ونفي الصمم والعمى ونحوه " لا يلقاني زيد مسلماً " هو نفي للسلام لا للقاء يعني أنهم إذا ذكروا بها خروا سجداً وبكياً سامعين باذان واعية مبصرين بعيون واعية لما أمروا ونهوا عنه لا كالمنافقين وأشباههم دليله قوله تعالى : { وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَاءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ } [مريم : 58].
جزء : 3 رقم الصفحة : 257
{ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا } [الفرقان : 74] " من " للبيان كأنه قيل : هب لنا قرة أعين.
ثم بينت القرة وفسرت بقوله من أزواجنا { وَذُرِّيَّاتِنَا } ومعناه أن يجعلهم الله لهم قرة أعين وهو من قولهم " رأيت منك أسداً " أي أنت أسد ، أو للابتداء على معنى هب لنا من جهتهم ما تقربه عيوننا من طاعة وصلاح وذريتنا أبو عمر وكوفي غير حفص لإرادة الجنس وغيرهم ذرياتنا { قُرَّةَ أَعْيُنٍ } [السجدة : 17] وإنما نكر لأجل تنكير القرة لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه كأنه قال : هب لنا منهم سروراً وفرحاً.
وإنما قيل { أَعْيُنٍ } على القلة دون " عيون " لأن المراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم قال الله تعالى : { وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } [سبأ : 13].

ويجوز أن يقال في تنكير أعين إنها أعين خاصة وهي أعين المتقين ، والمعنى أنهم سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجاً وأعقاباً عمالاً لله تعالى يسرون بمكانهم وتقر بهم عيونهم.

وقيل : ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله تعالى.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هو الولد إذا رآه يكتب الفقه { وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } [الفرقان : 74] أي أئمة يقتدون بنا في الدين فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس ، أو واجعل كل واحد منا إماماً.

قيل : في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها.

{ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ } [الفرقان : 75] أي الغرفات وهي العلالي في الجنة فوحد اقتصاراً على الواحد الدال على الجنس دليله قوله : { وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ } [سبأ : 37] .

{ بِمَا صَبَرُوا } [المؤمنون : 111] أي بصبرهم على الطاعات وعن الشهوات وعلى أذى

(145/3)

الكفار ومجاهدتهم وعلى الفقر وغير ذلك { وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا } [الفرقان : 75] ويلقون كوفي غير حفص { تَحِيَّةً } دعاء بالتعمير { وَسَلَامًا } ودعاء بالسلامة يعني أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم أو يحيي بعضهم بعضاً ويسلم عليه

جزء : 3 رقم الصفحة : 258

{ خَالِدِينَ فِيهَا } [الجن : 23] حال { حَسُنَتْ } أي الغرفة { مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا } [الفرقان : 66] موضع قرار وإقامة وهي في مقابلة ساءت مستقرا ومقاما { قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبّى لَوْلا دُعَآؤُكُمْ } " ما " متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب ومعناه ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤه إياكم إلى الاسلام أو لولا عبادتكم له أي أنه خلقكم لعبادته كقوله : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات : 56].

أي الاعتبار عند ربكم لعبادتكم.

أو ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة ، وهو كقوله تعالى : { مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ } [النساء : 147] { فَقَدْ كَذَّبْتُمْ } [الفرقان : 77] رسولي يا أهل مكة { فَسَوْفَ يَكُونُ } [الفرقان : 77] العذاب { لِزَامًا } أي ذا لزام أو ملازماً وضع مصدر لازم موضع اسم الفاعل ، وقال الضحاك : ما يعبأ ما يبالي بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه إلهاً آخر.

وهي مائتان وعشرون وسبع آيات

{ طسام } طس ويس وحم ممالة كوفي غير الأعشى والبرجمي وحفص ، ويظهر النون عند الميم يزيد وحمزة.

وغيرهما يدغمها { تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } [يوسف : 1] الظاهر إعجازه ، وصحة أنه من عند الله والمراد به السورة أو القرآن ، والمعنى آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ } [الشعراء : 3] قاتل و " لعل " للإشفاق { نَّفْسَكَ } من الحزن يعني أشفق على نفسك إن تقتلها حسرة وحزناً على ما فاتك من إسلام قومك { أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 3] لئلا يؤمنوا أو لامتناع إيمانهم أو خيفة أن لا يؤمنوا { إِن نَّشَأْ } [سبأ : 9] إيمانهم { نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ ءَايَةً } [الشعراء : 4] دلالة واضحة { فَظَلَّتْ } أي فتظل لأن الجزاء يقع فيه لفظ الماضي في معنى المستقبل تقول : إن زرتني أكرمتك أي أكرمك كذا قاله الزجاج { أَعْنَاقُهُمْ } رؤساؤهم ومقدموهم أو جماعاتهم يقال : جاءنا عنق من الناس لفوج منهم { لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 4] منقادين.

وعن ابن عباس رضي الله

260

عنهما : نزلت فينا وفي بني أمية فتكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هوان بعد عزتهم

جزء : 3 رقم الصفحة : 260

{ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَانِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ } [الشعراء : 5] أي وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيراً إلا جددوا إعراضاً عنه وكفراً به { فَقَدْ كَذَّبُوا } [الأنعام : 5] محمداً صلى الله عليه وسلّم فيما أتاهم به { فَسَيَأْتِيهِمْ } فسيعلمون أخبار { مَّا كَانُوا بِهِ } وهذا وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر ويوم القيامة ما الشيء الذي كانوا يستهزئون به وهو القرآن وسيأتيهم أنباؤه وأحواله التي كانت خافية عليهم.

(146/3)

{ أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاؤُا بَنِى إِسْرَاءِيلَ } كم نصب بـ أنبتنا { فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ } [ق : 7] صنف من النبات { كَرِيمٍ } محمود كثير المنفعة يأكل منه الناس والأنعام كالرجل الكريم الذي نفعه عام.

وفائدة الجمع بين كلمتي الكثرة والإحاطة أن كلمة كل تدل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم تدل على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة ، وبه نبه على كمال قدرته { إِنَّ فِي ذَالِكَ لاَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ } [الشعراء : 8] أي إن في إنبات تلك الأصناف لآية على أن

مبنتها قادر على إحياء الموتى ، وقد علم الله أن أكثرهم مطبوع على قلوبهم غير مرجي إيمانهم { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ } [الشعراء : 9] في انتقامه من الكفرة { الرَّحِيمُ } لمن آمن منهم ووحد آية مع الإخبار بكثرتها لأن ذلك مشار به إلى مصدر أنبتنا ، أو المراد إن في كل واحد من تلك الأزواج لآية أي آية.

{ وَإِذْ } مفعول به أي اذكر إذ { نَادَى } دعا { رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ } [الشعراء : 10] إن
261

بمعنى أي { الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [البقرة : 258] أنفسهم بالكفر وبني إسرائيل بالاستعباد وذبح الأولاد سجل عليهم بالظلم ، ثم عطف

جزء : 3 رقم الصفحة : 261

{ قَوْمَ فِرْعَوْنَ } [الأعراف : 127] عليهم عطف البيان كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد { أَلا يَتَّقُونَ } [الشعراء : 11] أي ائتهم زاجراً فقد آن لهم أن يتقوا ، وهي كلمة حث وإغراء.

ويحتمل أنه حال من الضمير في الظالمين أي يظلمون غير متقين الله وعقابه فأدخلت همزة الإنكار على الحال.

{ قَالَ رَبِّ إِنِّى أَخَافُ } [الشعراء : 12] الخوف غم يلحق الإنسان لأمر سيقع { أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِى } بتكذيبهم إياي مستأنف أو عطف على أخاف { وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِى } [الشعراء : 13] بأن تغلبني الحمية على ما أرى من المحال وأسمع من الجدال وبنصبهما يعقوب عطفاً على يكذبون فالخوف متعلق بهذه الثلاثة على هذا التقدير وبالتكذيب وحده بتقدير الرفع { فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ } [الشعراء : 13] أي أرسل إليه جبريل واجعله نبياً يعينني على الرسالة ، وكان هارون بمصر حين بعث موسى نبياً بالشام.

ولم يكن هذا الالتماس من موسى عليه السلام توقفاً في الامتثال بل التماس عون في تبليغ الرسالة ، وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر ليس بتوقف في امتثال الأمر ، وكفى بطلب العون دليلاً على التقبل لا على التعلل { وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنابٌ } [الشعراء : 14] أي تبعة ذنب بقتل القبطي فحذف المضاف ، أو سمي تبعة الذنب ذنباً كما سمي جزاء السيئة سيئة { فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ } [الشعراء : 14] أي يقتلوني به قصاصاً ، وليس هذا تعللاً أيضاً بل استدفاع للبلية المتوقعة ، وفرق من أن يقتل قبل أداء الرسالة ولذا وعده بالكلاءة والدفع بكلمة الردع.

وجمع له الاستجابتين معاً في قوله { قَالَ كَلا فَاذْهَبَا } [الشعراء : 15] لأنه استدفعه بلاءهم فوعده الله الدفع بردعه عن الخوف والتمس منه رسالة أخيه فأجابه بقوله اذهبا أي جعلته رسولاً معك فاذهبا.

وعطف فاذهبا على الفعل الذي يدل عليه كلا كأنه قيل : ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهارون { بِآيَاتِنَآ } مع آياتنا وهي اليد والعصا وغير ذلك

جزء : 3 رقم الصفحة : 262
{ إِنَّا مَعَكُم } [البقرة : 14]
262
أي معكما بالعون والنصرة ومع من أرسلتما إليه بالعلم والقدرة { مُّسْتَمِعُونَ } خبر لـ " إن " و معكم لغو ، أو هما خبران أي سامعون ، والاستماع في غير هذا الإصغاء للسماع يقال : استمع فلان إلى حديثه أي أصغى إليه ولا يجوز حمله ههنا على ذلك فحمل على السماع
جزء : 3 رقم الصفحة : 262

(147/3)

{ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء : 16] لم يثن الرسول كما ثنى في قوله إنا رسولا ربك لأن الرسول يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة فجعل ثمة بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته ، وجعل هنا بمعنى الرسالة فيستوي في الوصف به الواحد والتثنية والجمع ، أو لأنهما لاتحادهما واتفاقهما على شريعة واحدة كأنهما رسول واحد ، أو أريد إن كل واحد منا { أَنْ أَرْسِلْ } [الشعراء : 17] بمعنى أي أرسل لتضمن الرسول معنى الإرسال وفيه معنى القول { مَعَنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ } [الشعراء : 17] يريد خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين وكانت مسكنهما فأتيا بابه فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب : إن ههنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين فقال : ائذن له لعلنا نضحك منه.
فأديا إليه الرسالة فعرف فرعون موسى فعند ذلك.
{ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا } [الشعراء : 18] وإنما حذف فأتيا فرعون فقال اختصاراً.
والوليد الصبي لقرب عهده من الولادة أي ألم تكن صغيراً فربيناك { وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ } [الشعراء : 18] قيل : ثلاثين سنة { وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ } [الشعراء : 19] يعني قتل القبطي فعرض إذ كان ملكاً { وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [الشعراء : 19] بنعمتي حيث قتلت خبازي أو كنت على ديننا الذي تسميه كفراً ، وهذا افتراء منه عليه لأنه معصوم من الكفر وكان يعايشهم بالتقية { قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا } [الشعراء : 20] أي إذ ذاك { وَأَنَا مِنَ الضَّآلّينَ } [الشعراء : 20] الجاهلين بأنها تبلغ القتل والضال عن الشيء هو الذاهب عن معرفته ، أو الناسين من قوله
263
{ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الاخْرَى } [البقرة : 282] فدفع وصف الكفر عن نفسه ووضع الضالين موضع الكافرين و إذا جواب وجزاء معاً ، وهذا الكلام وقع جواباً لفرعون وجزاء له لأن قول فرعون وفعلت فعلتك معناه أنك جازيت نعمتي بما فعلت فقال له موسى : نعم فعلتها مجازياً تسليماً

لقوله لأن نعمته كانت جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء

جزء : 3 رقم الصفحة : 263

{ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ } [الشعراء : 21] إلى مدين { لَمَّا خِفْتُكُمْ } [الشعراء : 21] أن تقتلوني وذلك حين قال له مؤمن من آل فرعون { إِنَّ الْمَلا يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ } الآية.

{ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا } [الشعراء : 21] نبوة وعلماً فزال عني الجهل والضلالة { وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ } [الشعراء : 21] من جملة رسله { وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى إِسْرَاءِيلَ } [الشعراء : 22] كر على امتنانه عليه بالتربية فأبطله من أصله وأبى أن تسمى نعمة لأنها نقمة حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل لأن تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته ، ولو تركهم لرباه أبواه فكأن فرعون امتن على موسى بتعبيد قومه وإخراجه من حجر أبويه إذا حققت وتعبيدهم تذليلهم واتخاذهم عبيداً.

ووحد الضمير في تمنها وعبدت وجمع في منكم وخفتكم لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله بدليل قوله { إِنَّ الْمَلا يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ } [القصص : 20].

وأما الامتنان فمنه وحده وكذا التعبيد.

وتلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدري ما هي إلا بتفسيرها ، ومحل أن عبدت الرفع عطف بيان لتلك أي تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها علي.

{ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء : 23] أي إنك تدعي أنك رسول رب العالمين فما صفته لأنك إذا أردت السؤال عن صفة زيد تقول : ما زيد؟ تعني أطويل أم قصير أفقيه أم طبيب نص عليه صاحب الكشاف وغيره { قَالَ } موسى مجيباً له على وفق سؤاله { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ }

264

أي وما بين الجنسين { إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ } [الشعراء : 24] أي إن كنتم تعرفون الأشياء بالدليل فكفى خلق هذه الأشياء دليلاً ، أو إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب وإلا لم ينفع.

والإيقان العلم الذي يستفاد بالاستدلال ولذا لا يقال الله موقن

جزء : 3 رقم الصفحة : 264

(148/3)

{ قَالَ } أي فرعون { لِمَنْ حَوْلَهُ } [الشعراء : 25] من أشراف قومه وهم خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة { أَلا تَسْتَمِعُونَ } [الشعراء : 25] معجباً قومه من جوابه لأنهم

يزعمون قدمهما وينكرون حدوثهما وأن لهما رباً فاحتاج موسى إلى أن يستدل بما شاهدوا حدوثه وفناءه فاستدل حيث { قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآ ئِكُمُ الاوَّلِينَ } [الشعراء : 26] أي هو خالقكم وخالق آبائكم فإن لم تستدلوا بغيركم فبأنفسكم.

وإنما قال { وَرَبُّ ءَابَآ ئِكُمُ } لأن فرعون كان يدعي الربوبية على أهل عصره دون من تقدمهم.

{ قَالَ } أي فرعون { إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } [الشعراء : 27] حيث يزعم أن في الوجود إلهاً غيري وكان فرعون ينكر إلهية غيره { قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ } [الشعراء : 28] فتستدلون بما أقول فتعرفون ربكم ، وهذا غاية الإرشاد حيث عمم أولاً بخلق السماوات والأرض وما بينهما ، ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد من أحواله من وقت ميلاده إلى وقت وفاته ، ثم خصص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستوٍ من أظهر ما استدل به ، ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الرحمن عن الاحتجاج بالأحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان.

وقيل : سأله فرعون عن الماهية جاهلاً عن حقيقة سؤاله ، فلما أجاب موسى بحقيقة الجواب وقع عنده أن موسى حاد عن الجواب حيث سأله عن الماهية وهو يجيب عن ربوبيته وآثار صنعه فقال معجباً لهم من جواب موسى : ألا تستمعون؟ فعاد

موسى إلى مثل قوله الأول فجننه فرعون زاعماً أنه حائد عن الجواب ، فعاد ثالثاً إلى مثل كلامه الأول مبيناً أن الفرد الحقيقي إنما يعرف بالصفات وأن السؤال عن الماهية محال وإليه الإشارة في قوله تعالى { إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ } [آل عمران : 118] أي إن كان لكم عقل علمكم أنه لا تمكن معرفته إلا بهذا الطريق ، فلما تحير فرعون ولم يتهيأ له أن يدفع ظهور آثار صنعه.

جزء : 3 رقم الصفحة : 264

{ قَالَ لَاانِ اتَّخَذْتَ إِلَاهًا غَيْرِى } [الشعراء : 29] أي غيري إلهاً { لاجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ } [الشعراء : 29] أي لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني ، وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فرداً لا يبصر فيها ولا يسمع ، فكان ذلك أشد من القتل.

ولو قيل لأسجننك لم يؤد هذا المعنى وإن كان أخصر { قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ } [الشعراء : 30] الواو للحال دخلت عليها همزة الاستفهام أي أتفعل بي ذلك ولو جئتك { بِشَىْءٍ مُّبِينٍ } [الشعراء : 30] أي جائياً بالمعجزة { قَالَ فَأْتِ بِهِ } [الشعراء : 31] بالذي يبين صدقك { إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [الأعراف : 70] أن لك بينة وجواب الشرط مقدر أي فأحضره { فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ } [الأعراف : 107] ظاهر الثعبانية لا شيء يشبه الثعبان كما تكون الأشياء المزورة بالشعوذة والسحر.

روي أن العصا ارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون وجعلت تقول : يا موسى مرني بما شئت.

ويقول فرعون : أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها ، فأخذها فعادت عصا.

{ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ } [الأعراف : 108] فيه دليل على أن بياضها كان شيئاً يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة وكان بياضها نورياً.

روي أن فرعون لما أبصر الآية الأولى قال : فهل غيرها فأخرج يده فقال لفرعون ما هذه؟ قال فرعون : يدك ، فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق { قَالَ } أي فرعون { لِلْمَلا حَوْلَهُ } [الشعراء : 34] هو منصوب نصبين نصب في اللفظ والعامل فيه ما يقدر في الظرف ، ونصب في المحل وهو النصب على الحال من

266

الملأ أي كائنين حوله والعامل فيه قال { إِنَّ هَاذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } [الأعراف : 109] بالسحر.

ثم أغوى قومه على موسى بقوله

د>

جزء : 3 رقم الصفحة : 266

(149/3)

{ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } [الأعراف : 110] منصوب لأنه مفعول به من قولك أمرتك الخير { تَأْمُرُونَ } تشيرون في أمره من حبس أو قتل من المؤامرة وهي المشاورة ، أو من الأمر الذي هو ضد النهي.

لما تحير فرعون برؤية الآيتين وزال عنه ذكر دعوى الالهية وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وارتعدت فرائصه خوفاً طفق يؤامر قومه الذي هم بزعمه عبيده وهو إلههم ، أو جعلهم آمرين ونفسه مأموراً { قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ } [الشعراء : 36] أخر أمرهما ولا تباغت قتلهما خوفاً من الفتنة { وَابْعَثْ فِى الْمَدَآ ائِنِ حَاشِرِينَ } [الشعراء : 36] شرطاً يحشرون السحرة وعارضوا قول فرعون إن هذا لساحر عليم بقولهم.

{ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ } [الشعراء : 37] فجاء بكلمة الإحاطة وصيغة المبالغة ليسكنوا بعض قلقه { فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ } [الشعراء : 38] أي يوم الزينة وميقاته وقت الضحى لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة في قوله تعالى : { مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى } [طه : 59].

والميقات ما وقت به أي حدد من زمان أو مكان ومنه مواقيت الإحرام { وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم

مُّجْتَمِعُونَ } [الشعراء : 39] أي اجتمعوا وهو استبطاء لهم في الاجتماع والمراد منه استعجالهم { لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ } [الشعراء : 40] في دينهم { إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ } [الشعراء : 40] أي غلبوا موسى في دينه وليس غرضهم اتباع السحرة وإنما الغرض الكلي أن لا يتبعوا موسى فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى.

267

جزء : 3 رقم الصفحة : 267

{ نَعَمْ } وبكسر العين : علي ، وهما لغتان { وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } [الشعراء : 42] أي قال فرعون نعم لكم أجر عندي وتكونون مع ذلك من المقربين عندي في المرتبة والجاه فتكونون أول من يدخل علي وآخر من يخرج.

ولما كان قولهم : أئن لنا لأجراً في معنى جزاء الشرط لدلالته عليه وكان قوله : وإنكم إذا لمن المقربين معطوفاً عليه دخلت إذا قارة في مكانها الذي تقضيه من الجواب والجزاء { قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ } [يونس : 80] من السحر فسوف ترون عاقبته { فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ } [الشعراء : 44] سبعين ألف حبل { وَعِصِيَّهُمْ } سبعين ألف عصا.

وقيل : كانت الحبال اثنين وسبعين ألفاً وكذا العصي { وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ } [الشعراء : 44] أقسموا بعزته وقوته وهو من أيمان الجاهلية { فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ } [الشعراء : 45] تبتلع { مَا يَأْفِكُونَ } [الأعراف : 117] ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم ويزوّرونه ويخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حياة تسعى { فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ } [الشعراء : 46] عبر عن الخرور بالإلقاء بطريق المشاكلة لأنه ذكر مع الإلقاءات ولأنهم لسرعة ما سجدوا صاروا كأنهم ألقوا { قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف : 121] عن عكرمة رضي الله عنه : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

جزء : 3 رقم الصفحة : 268

{ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ } [الأعراف : 122] عطف بيان لـ رب العالمين لأن فرعون كان يدعي الربوبية فأرادوا أن يعزلوه.

وقيل ؛ إن فرعون لما سمع منهم آمنا برب العالمين قال : إياي عنيتم؟ قالوا : رب موسى وهارون.

{ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ } [طه : 71] بذلك

268

{ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ } [طه : 71] وقد تواطأتم على أمر ومكر { فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [الشعراء : 49] وبال ما فعلتم.

ثم صرح فقال { لاقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ } [الأعراف : 124] من أجل خلاف ظهر منكم { وَلاصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ } [الشعراء : 49] كأنه أراد به ترهيب العامة لئلا يتبعوهم في الإيمان

جزء : 3 رقم الصفحة : 268

{ قَالُوا لا ضَيْرَ } [الشعراء : 50] لا ضرر وخبر " لا " محذوف أي في ذلك أو علينا { إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَآ أَن كُنَّآ } لأن كنا { أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ } [الأعراف : 143] من أهل المشهد أو من رعية فرعون.

أراد وإلا ضرر علينا في ذلك بل لنا أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا ، أو لا ضير علينا فيما تتوعدنا به إنه لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت ، والقتل أهون أسبابه وأرجاها ، أو لا ضير علينا في قتلك إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا إنقلاب من يطمع في مغفرته ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق إلى الإيمان { وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ } [الشعراء : 52] وبوصل الهمزة : حجازي { بِعِبَادِى } بني إسرائيل سماهم عباده لإيمانهم بنبيه أي سر بهم ليلاً وهذا بعد سنين من إيمان السحرة { إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ } [الشعراء : 52] يتبعكم فرعون وقومه علل الأمر بالإسراء باتباع فرعون وجنوده آثارهم يعني إني بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدموا ويتبعوكم حتى يدخلوا مدخلكم من طريق البحر فأهلكهم.

وروي أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوتهم ولد فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه.

وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن اجمع بني إسرائيل كل أربعة أبيات في بيت ثم اذبح الجداء واضربوا بدمائها على أبوابكم فإني سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتاً على بابه دم وسآمرهم بقتل أبكار القبط ، واخبزوا خبزاً فطيراً فإنه أسرع لكم ، ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري.

{ فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِى الْمَدَآ ائِنِ حَاشِرِينَ } [الشعراء : 53] أي جامعين للناس بعنف ، فلما اجتمعوا قال :

{ إِنَّ هؤلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ } [الشعراء : 54] والشرذمة الطائفة القليلة ذكرهم بالاسم الدال على القلة ، ثم جعلهم قليلاً بالوصف ، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً.

واختار جمع السلامة الذي هو للقلة أو أراد بالقلة الذلة لا قلة العدد أي أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا تتوقع غلبتهم.

وإنما استقل قوم موسى وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً لكثرة من معه.

فعن الضحاك : كانوا سبعة الاف ألف { وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآ ئِظُونَ } [الشعراء : 55] أي أنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا وهي خروجهم من مصرنا وحملهم حلينا وقتلهم أبكارنا { وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ } [الشعراء : 56] شامي وكوفي وغيرهم حذرون فالحذر المتيقظ والحاذر الذي يجدد حذره.

وقيل : المؤدي في السلاح وإنما يفعل ذلك حذراً واحتياطاً لنفسه يعني ونحن قوم من عادتنا التيقظ

والحذر واستعمال الحزم في الأمور ، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده ، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به العجز والفتور.

{ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ } [الشعراء : 57] بساتين { وَعُيُونٍ } وأنهار جارية { وَكُنُوزٍ } وأموال ظاهرة من الذهب والفضة وسماها كنوزاً لأنهم لا ينفقون منها في طاعة الله تعالى { وَمَقَامٍ } ومنزل { كَرِيمٍ } بهي بهيج.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : المنابر { كَذَالِكَ } يحتمل النصب على أخرجناهم مثل ذلك الآخراج الذي وصفنا ، والرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك { وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ } [الشعراء : 59] عن الحسن : لما عبروا النهر رجعوا وأخذوا ديارهم وأموالهم { فَأَتْبَعُوهُم } فلحقوهم فاتبعوهم يزيد { مُّشْرِقِينَ } حال أي داخلين في وقت شروق الشمس وهو طلوعها أدرك قوم فرعون موسى وقومه وقت طلوع الشمس.

(151/3)

{ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ } [الشعراء : 61] أي تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه والمراد بنو إسرائيل والقبط { قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ } [الشعراء : 61] أي قرب أي يلحقنا عدونا وأمامنا البحر { قَالَ } موسى عليه السلام ثقة بوعد الله إياه { كَلا } ارتدعوا عن سوء الظن بالله فلن يدركوكم { إِنَّ مَعِىَ } [الشعراء : 62] { مَعِىَ } حفص { رَبِّى سَيَهْدِينِ } [الشعراء : 62] أي سيهديني طريق النجاة من إدراكهم وإدرارهم بالياء : يعقوب { سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ } [الشعراء : 63] أي القلزم أو النيل { فَانفَلَقَ } أي فضرب فانفلق وانشق فصار اثني عشر فرقاً على عدد الأسباط { فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ } [الشعراء : 63] أي جزء تفرق منه { كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ } [الشعراء : 63] كالجبل المنطاد في السماء { وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ } [الشعراء : 64] حيث انفلق البحر { الاخَرِينَ } قوم فرعون أي قربناهم من بني إسرائيل أو من البحر { وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُا أَجْمَعِينَ } [الشعراء : 65] من الغرق { ثُمَّ أَغْرَقْنَا الاخَرِينَ } [الشعراء : 66] فرعون وقومه ، وفيه إبطال القول بتأثير الكواكب في الآجال وغيرها من الحوادث فإنهم اجتمعوا في الهلاك مع اختلاف طوالعهم.

روي أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون فكان يقول لبني إسرائيل : ليلحق آخركم بأولكم.

ويستقبل القبط فيقول : رويدكم يلحق آخركم بأولكم.

فلما انتهى موسى إلى البحر قال يوشع لموسى : أين أمرت فهذا البحر أمامك وغشيك آل فرعون؟

قال موسى : ههنا.
فخاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فدخلوا.
وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام قال عند ذلك : يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء
271
جزء : 3 رقم الصفحة : 271
{ إِنَّ فِى ذَالِكَ } [السجدة : 26] أي فيما فعلنا بموسى وفرعون { لاَيَةً } لعبرة عجيبة لا توصف { وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم } [الشعراء : 8] أي المغرقين { مُؤْمِنِينَ } قالوا : لم يؤمن منهم إلا آسية وحزقيل مؤمن آل فرعون ومريم التي دلت موسى على قبر يوسف { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ } [الشعراء : 9] بالانتقام من أعدائه { الرَّحِيمُ } بالإنعام على أوليائه.
{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ } [الشعراء : 69] على مشركي قريش { نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ } [الشعراء : 69] خبره { إِذْ قَالَ لابِيهِ وَقَوْمِهِ } [الأنبياء : 52] قوم إبراهيم أو قوم الأب { مَا تَعْبُدُونَ } [الشعراء : 70] أي أي شيء تعبدون؟ وإبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة الأصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس بمستحق للعبادة { قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا } وجواب { مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ } { مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ } [سبأ : 23] لأنه سؤال عن المعبود لا عن العبادة.
وإنما زادوا نعبد في الجواب افتخاراً ومباهاة بعبادتها ولذا عطفوا على نعبد { فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ } [الشعراء : 71] فنقيم على عبادتها طول النهار.
وإنما قالوا فنظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل أو معناه الدوام { قَالَ } أي إبراهيم { هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ } [الشعراء : 72] هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف لدلالة { إِذْ تَدْعُونَ } [الشعراء : 72] عليه { أَوْ يَنفَعُونَكُمْ } [الشعراء : 73] إن عبدتموها { أَوْ يَضُرُّونَ } [الشعراء : 73] إن تركتم عبادتها.
جزء : 3 رقم الصفحة : 272
{ قَالُوا بَلْ } [ص : 60] إضراب أي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ولا نعبدها لشيء من ذلك ولكن { وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَالِكَ يَفْعَلُونَ } [الشعراء : 74] فقلدناهم { قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ الاقْدَمُونَ } الأولون
272
جزء : 3 رقم الصفحة : 272

{ فَإِنَّهُمْ } أي الأصنام { عَدُوٌّ لِّى } [الشعراء : 77] العدو والصديق يجيئان في معنى الوحدة والجماعة يعني لو عبدتهم لكانوا أعداء لي في يوم القيامة كقوله { سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا } [مريم : 82] وقال الفراء : هو من المقلوب أي فإني عدوهم.

وفي قوله عدو لي دون " لكم " زيادة نصح ليكون أدعى لهم إلى القبول ، ولو قال " فإنهم عدو لكم " لم يكن بتلك المثابة { إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء : 77] استثناء منقطع لأنه لم يدخل تحت الأعداء كأنه قال : لكن رب العالمين.

{ الَّذِى خَلَقَنِى } [الشعراء : 78] بالتكوين في القرار المكين { فَهُوَ يَهْدِينِ } [الشعراء : 78] لمناهج الدنيا ولمصالح الدين والاستقبال في يهديني مع سبق العناية لأنه يحتمل يهديني للأهم الأفضل والأتم الأكمل ، أو الذي خلقني لأسباب خدمته فهو يهديني إلى آداب خلته { وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى } [الشعراء : 79] أضاف الإطعام إلى ولي الإنعام لأن الركون إلى الأسباب عادة الأنعام { وَيَسْقِينِ } قال ابن عطاء : هو الذي يحييني بطعامه ويرويني بشرابه { وَإِذَا مَرِضْتُ } [الشعراء : 80] وإنما لم يقل أمرضني لأنه قصد الذكر بلسان الشكر فلم يضف إليه ما يقتضي الضر.

قال ابن عطاء : وإذا مرضت برؤية الخلق { فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء : 80] بمشاهدة الحق.

قال الصادق : إذا مرضت برؤية الأفعال فهو يشفين بكشف منة الإفضال { وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ } [الشعراء : 81] ولم يقل إذا مت لأنه الخروج من حبس البلاء ودار الفناء إلى روض البقاء لوعد اللقاء.

وأدخل " ثم " في الإحياء لتراخيه عن الإفناء ، وأدخل الفاء في الهداية والشفاء لأنهما يعقبان الخلق والمرض لامعاً معاً.

{ وَالَّذِى أَطْمَعُ } [الشعراء : 82] طمع العبيد في الموالي بالإفضال لا على الاستحقاق

بالسؤال { أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيائَتِى } [الشعراء : 82] قيل : هو قوله { إِنّى سَقِيمٌ } [الصافات : 89] { بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ } [الأنبياء : 63] { هَاذَا رَبّى } [الأنعام : 76] (الأنعام : 67) للبازغ هي أختي لسارة ، وما هي إلا معاريض جائزة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار ، واستغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم وهضم لأنفسهم وتعليم للأمم في طلب المغفرة ، { يَوْمَ الدِّينِ } [الفاتحة : 4] يوم الجزاء.

جزء : 3 رقم الصفحة : 273

{ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا } [الشعراء : 83] حكمة أو حكماً بين الناس بالحق أو نبوة لأن النبي عليه السلام ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله { وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ } [يوسف : 101] أي الأنبياء ولقد أجابه حيث قال { وَإِنَّهُ فِى الاخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [البقرة : 130] { وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الاخِرِينَ } [الشعراء : 84] أي ثناء حسناً وذكراً جميلاً في الأمم التي تجيء بعدي فأعطي ذلك فكل أهل دين يتولونه ويثنون عليه ، ووضع اللسان موضع القول لأن القول يكون به.

{ وَاجْعَلْنِى مِن } [الشعراء : 85] يتعلق بمحذوف أي وارثاً من { وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ } [الشعراء : 85]

أي من الباقين فيها { وَاغْفِرْ لابِى } [الشعراء : 86] اجعله أهل المغفرة بإعطاء الإسلام وكان وعده الإسلام يوم فارقه { إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ } [الشعراء : 86] الكافرين { وَلا تُخْزِنِى } [الشعراء : 87] الاخزاء من الخزي وهو الهوان أو من الخزاية وهو الحياء وهذا نحو الاستغفار كما بينا { يَوْمَ يُبْعَثُونَ } [الأعراف : 14] الضمير فيه للعباد لأنه معلوم ، أو للضالين وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه أي ولا تخزني في يوم يبعث الضالون وأبي فيهم { يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ } [الشعراء : 88] هو بدل من يوم الأول { وَلا بَنُونَ } [الشعراء : 88] أحداً { إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الشعراء : 89] عن الكفر والنفاق وقلب الكافر والمنافق
274

(153/3)

مريض لقوله تعالى : { فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ } [محمد : 29] أي إن المال إذا صرف في وجوه البر وبنوه صالحون فإنه ينتفع به وبهم سليم القلب ، أو جعل المال والبنون في معنى الغني كأنه قيل : يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه.

وقد جعل من مفعولاً لـ ينفع أي لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله ، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع.

ويجوز على هذا إلا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين.

وقد صوب الخليل إكراماً له ثم جعله صفة له في قوله :

جزء : 3 رقم الصفحة : 274

{ سَلِيمٍ } وما أحسن ما رتب عليه السلام كلامه مع المشركين حيث سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ، ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً عن أن يكون حجة ، ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلّص منها إلى ذكر الله تعالى فعظم شأنه وعدد نعمته من حين إنشائه إلى وقت وفاته مع ما يرجّى في الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعا بدعوات المخلصين وابتهل إليه ابتهال الأوابين ، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمني الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا.

جزء : 3 رقم الصفحة : 274

{ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ } [الشعراء : 90] أي قربت عطف جملة على جملة أي تزلف من موقف السعداء فينظرون إليها.

{ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ } [الشعراء : 91] أي أظهرت حتى يكاد يأخذهم لهبها { لِلْغَاوِينَ } للكافرين { وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ } يوبخون على إشراكهم فيقال لهم أين الهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم ، أو هل

275

ينفعون أنفسهم بانتصارهم لأنهم وآلهتهم وقود النار

جزء : 3 رقم الصفحة : 275

{ فَكُبْكِبُوا } أنكسوا أو طرح بعضهم على بعض { فِيهَا } في الجحيم { هُمُ } أي الآلهة { وَالْغَاوُنَ } وعبدتهم الذين برزت لهم.

والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة إثر مرة حتى يستقر في قعرها نعوذ بالله منها { وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ } [الشعراء : 95] شياطينه أو متبعوه من عصاة الإنس والجن { قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ } [الشعراء : 96] يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم ، ويجوز أن يجري ذلك بين العصاة والشياطين { تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم } نعدلكم أيها الأصنام { بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف : 121]في العبادة { وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلا الْمُجْرِمُونَ } [الشعراء : 99] أي رؤساؤهم الذين أضلوهم أو إبليس وجنوده ومن سن الشرك.

{ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ } [الشعراء : 100] كما للمؤمنين من الأنبياء والأولياء والملائكة { وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ } [الشعراء : 101] كما نرى لهم أصدقاء إذ لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون وأما أهل النار فبينهم التعادي : { الاخِلاءُ يَوْمَاِذ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ } [الزخرف : 67] أو { حَمِيمٍ } من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس.

والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام الذي يهمه ما يهمك ، أو من الحامّة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخاص.

وجمع الشافع ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة ، وأما الصديق وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك فقليل.

وسئل حكيم عن الصديق فقال : اسم لا معنى له.

وجاز أن يراد بالصديق الجمع

276

جزء : 3 رقم الصفحة : 276

{ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً } [الشعراء : 102] رجعة إلى الدنيا { فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 102] وجواب " لو " محذوف وهو لفعلنا كيت وكيت ، أو لو في مثل هذا بمعنى التمني كأنه قيل : فليت لنا كرة.

لما بين معنى " لو " و " ليت " من التلاقي { إِنَّ فِى ذَالِكَ } [السجدة : 26] فيما ذكر من الأنباء { لايَةً } أي لعبرة لمن اعتبر { وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ } [الشعراء : 8] فيه أن فريقاً منهم آمنوا { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ } [الشعراء : 9] المنتقم ممن كذب إبراهيم بنار الجحيم { الرَّحِيمُ } المسلم كل ذي قلب سليم إلى جنة النعيم.

{ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ } [الشعراء : 105] القوم يذكر ويؤنث.

قيل : ولد نوح في زمن آدم عليه السلام ونظير قوله المرسلين والمراد نوح عليه السلام قولك " فلان يركب الدواب ويلبس البرود " وماله إلا دابة أو برد ، أو كانوا ينكرون بعث الرسل أصلاً فلذا جمع ، أو لأن من كذب واحداً منهم فقد كذب الكل لأن كل رسول يدعو الناس إلى الإيمان بجميع الرسل وكذا جميع ما في هذه السورة { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ } [الشعراء : 142] نسباً لا ديناً { نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ } [الشعراء : 106] خالق الأنام فتتركوا عبادة الأصنام { إِنّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ } [الشعراء : 107] كان مشهوراً بالأمانة فيهم كمحمد عليه الصلاة والسلام في قريش.

{ فَاتَّقُوا اللَّهَ } فيما آمركم به وأدعوكم إليه من الحق { وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ } [الشعراء : 109] على هذا الأمر { مِنْ أَجْرٍ } [الفرقان : 57] جزاء { إِنْ أَجْرِىَ } [يونس : 72] بالفتح مدني وشامي وأبو عمرو وحفص { إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء : 109] لذلك أريده { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ } [آل عمران : 50] كرره ليقرره في نفوسهم مع تعليق كل واحد

منهما بعلة ، فعلة الأول كونه أميناً فيهما بينهم ، وعلة الثاني حسم طمعه منهم كأنه قال : إذا عرفتم رسالتي وأمانتي فاتقوا الله ، ثم إذا عرفتم احترازي من الأجر فاتقوا الله.

{ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ } [الشعراء : 111] الواو للحال و " قد " مضمرة بعدها دليله قراءة يعقوب جمع تابع كشاهد وأشهاد أو تبع كبطل وأبطال { وَاتَّبَعَكَ الارْذَلُونَ } [الشعراء : 111] السّفلة والرذالة الخسة والدناءة.

وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا.

وقيل : كانوا من أهل الصناعات الدنيئة والصناعة لا تزري بالديانة فالغني غني الدين والنسب نسب التقوى ، ولا يجوز أن يسمى المؤمن رذلاً وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسباً وما زالت أتباع الأنبياء كذلك { قَالَ وَمَا عِلْمِى } [الشعراء : 112] وأي شيء أعلم { بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأنعام : 108] من الصناعات إنما أطلب منهم الايمان.

وقيل : إنهم طعنوا مع استرذالهم في إيمانهم وقالوا : إن الذين آمنوا بك ليس في قلوبهم ما يظهرونه

فقال : ما علي إلا اعتبار الظواهر دون التفتيش عن السرائر { إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ } [الشعراء : 113] أن الله يحاسبهم على ما في قلوبهم { وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 114] أي ليس من شأني أن أتبع شهواتكم بطرد المؤمنين طمعاً في إيمانكم { إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُّبِينٌ } [الشعراء : 115] ما علي إلا أن أنذركم إنذاراً بيناً بالبرهان الصحيح الذي يتميز به الحق من الباطل ثم أنتم أعلم بشأنكم { قَالُوا لَـاإِن لَّمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ } عما تقول { لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ } [الشعراء : 116] من المقتولين بالحجارة { قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ } [الشعراء : 117] ليس هذا إخباراً بالتكذيب لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنه أراد أنهم كذبوني في وحيك ورسالتك

278

جزء : 3 رقم الصفحة : 278

(155/3)

{ فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا } [الشعراء : 118] أي أي فاحكم بيني وبينهم حكماً ، والفتاحة الحكومة والفتاح الحاكم لأنه يفتح المستغلق كما سمي فيصلاً لأنه يفصل بين الخصومات { وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ } [الشعراء : 118] معي حفص { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الأنعام : 27] من عذاب عملهم.

{ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ } [الشعراء : 119] الفلك السفينة وجمعه فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد { الْمَشْحُونِ } المملوء ومنه شحنة البلد أي الذي يملؤه كفاية { ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ } [الشعراء : 120] أي بعد إنجاء نوح ومن آمن { الْبَاقِينَ } من قومه { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ } المنتقم بإهانة من جحد وأصر { الرَّحِيمُ } المنعم بإعانة من وحد وأقر.

{ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ } [الشعراء : 123] هي قبيلة وفي الأصل اسم رجل هو أبو القبيلة { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ } في تكذيب الرسول الأمين { وَأَطِيعُونِ } مكان مرتفع { ءَايَةً } برج حمام أو بناء يكون لارتفاعه كالعلامة يسخرون بمن مر بهم { تَعْبَثُونَ } تلعبون { وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ } [الشعراء : 129] مآخذ الماء أو قصوراً مشيدة أو حصوناً { لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ } [الشعراء : 129] ترجون الخلود في الدنيا { وَإِذَا بَطَشْتُم } [الشعراء : 130] أخذتم أحداً بعقوبة { بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ } [الشعراء : 130] قتلاً بالسيف

279

وضرباً بالسوط والجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب

جزء : 3 رقم الصفحة : 279

{ فَاتَّقُوا اللَّهَ } [آل عمران : 123] في البطش { وَأَطِيعُونِ } فيما أدعوكم إليه { وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ } [الشعراء : 132] من النعم.

ثم عددها عليهم فقال { أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ } [الشعراء : 133] قرن البنين بالأنعام لأنهم يعينونهم على حفظها والقيام عليها { وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } إن عصيتموني { قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ } [الشعراء : 136] أي لا نقبل كلامك ودعوتك وعظت أم سكت.

ولم يقل أم لم تعظ لرؤوس الآي { إِنْ هَاذَآ إِلا خُلُقُ الاوَّلِينَ } [الشعراء : 137] ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت واتخاذ الابتناء إلا عادة الأولين ، أو ما نحن عليه دين الأولين.

إلا خلق الأولين مكي وبصري ويزيد وعلي أي ما جئت به اختلاق الأولين وكذب المتنبئين قبلك كقولك أساطير الأولين ، أو خلقنا كخلق الأولين نموت ونحيا كما حيوا { وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } [الشعراء : 138] في الدنيا ولا بعث ولا حساب.

{ فَكَذَّبُوهُ } أي هوداً { فَأَهْلَكْنَاهُمْ } بريح صرصر عاتية.

{ إِنَّ فِى ذَالِكَ لاَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْاَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ } إنكار لأن يتركوا خالدين في نعيمهم لا يزالون عنه { فِى مَا هَاهُنَآ } [الشعراء : 146] في الذي استقر في هذا المكان من النعيم { ءَامِنِينَ } من العذاب والزوال والموت.

ثم فسره بقوله

(156/3)

{ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } [الحجر : 45] وهذا أيضاً إجمال ثم تفصيل { وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ } [الشعراء : 148] وعطف نخل على جنات مع أن الجنة تتناول النخل أول شيء تفضيلاً للنخل على سائر الشجر { طَلْعُهَا } هو ما يخرج من النخل كنصل السيف { هَضِيمٌ } لين نضيج كأنه قال : ونخل قد أرطب ثمره { وَتَنْحِتُونَ } تنقبون { مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ } [الشعراء : 149] شامي وكوفي حاذقين حال وغيرهم فرهين أشرين ، والفراهة الكيس والنشاط { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ } الكافرين أو التسعة الذين عقروا الناقة جعل الأمر مطاعاً على المجاز الحكمي والمراد الامر وهو كل جمة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأول كقولهم " أنبت الربيع البقل " { الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الارْضِ } [الشعراء : 152] بالظلم والكفر { وَلا يُصْلِحُونَ } [الشعراء : 152] بالإيمان والعدل والمعنى أن فسادهم مصمت ليس معه شيء من الصلاح كما

تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح.
{ قَالُوا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ } [الشعراء : 153] المسحر الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله.
وقيل : هو من السرح الرئة وأنه بشر { مَآ أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [الشعراء : 154] في دعوى الرسالة.
{ قَالَ هَاذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ } [الشعراء : 155] نصيب من الماء فلا تزاحموها فيه
281
{ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ } [الشعراء : 155] لا تزاحمكم هي فيه ، روي أنهم قالوا : نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقباً ، فجعل صالح يتفكر فقال له جبريل : صل ركعتين واسأل ربك الناقة ، ففعل فخرجت الناقة ونتجت سقباً مثلها في العظم وصدرها ستون ذراعاً ، وإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ، وإذا كان يوم شربهم لا تشرب فيه الماء ، وهذا دليل على جواز المهايأة لأن قولهم : لها شرب ولكم شرب يوم معلوم من المهايأة
جزء : 3 رقم الصفحة : 281
{ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُواءٍ } [الأعراف : 73] بضرب أو عقر أو غير ذلك { فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الشعراء : 156] عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب ، لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد { فَعَقَرُوهَا } عقرها قدار ولكنهم راضون به فأضيف إليهم ، روي أن عاقرها قال : لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون : أترضين؟ فتقول : نعم ، وكذلك صبيانهم { فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ } [الشعراء : 157] على عقرها خوفاً من نزول العذاب بهم لا ندم توبة أو ندموا حين لا ينفع الندم وذلك عند معاينة العذاب أو على ترك الولد { فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ } [الشعراء : 158] المقدم ذكره.
{ إِنَّ فِى ذَالِكَ لاَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } .
{ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْاَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ } أراد بالعالمين الناس ، أتطئون الذكور من الناس مع كثرة الإناث ، أو أتطئون أنتم من بين من عداكم من العالمين الذكران أي أنتم مختصون بهذه الفاحشة والعالمين على هذا كل ما ينكح من الحيوان
282
جزء : 3 رقم الصفحة : 282
{ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم } [الشعراء : 166] " من " تبيين لما خلق ، أو تبعيض والمراد بما خلق العضو المباح منهن وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم ، وفيه دليل على تحريم أدبار الزوجات والمملوكات ومن أجازه فقد أخطأ خطأ عظيماً { بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ } [الشعراء : 166]

العادي المتعدي في ظلمه المتجاوز فيه الحد أي بل أنتم قوم أحق بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة.

(157/3)

{ قَالُوا لَـاٰإِن لَّمْ تَنتَهِ يَـالُوطُ } عن إنكارك علينا وتقبيح أمرنا { لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ } [الشعراء : 167] من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا وطردناه من بلدنا ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال { قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ } [الشعراء : 168] هو أبلغ من أن يقول قال ، فقول " فلان من العلماء " أبلغ من قولك " فلان عالم " لأنك تشهد بأنه مساهم لهم في العلم.

والقلي البغض يقلي الفؤاد والكبد ، وفيه دليل على عظم المعصية لأن قلاه من حيث الدين { رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ } [الشعراء : 169] من عقوبة عملهم { فَنَجَّيْنَـاهُ وَأَهْلَهُا أَجْمَعِينَ } [الشعراء : 170] يعني بناته ومن آمن معه { إِلا عَجُوزًا } [الشعراء : 171] هي امرأة لوط وكانت راضية بذلك والراضي بالمعصية في حكم العاصي ، واستثناء الكافرة من الأهل وهم مؤمنون للاشتراك في هذا الاسم وإن لم تشاركهم في الإيمان { فِى الْغَابِرِينَ } [الشعراء : 171] صفة لها في الباقين في العذاب فلم تنج منه ، والغابر في اللغة الباقي كأنه قيل : إلا عجوزاً غابرة أي مقدراً

283

غبورها إذ الغبور لم يكن صفتها وقت تنجيتهم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 283

{ ثُمَّ دَمَّرْنَا الاخَرِينَ } [الشعراء : 172] والمراد بتدميرهم الائتفاك بهم { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا } [الأعراف : 84] عن قتادة : أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم الله.

وقيل : لم يرض بالائتفاك حتى أتبعه مطراً من حجارة { فَسَآءَ } فاعله { مَطَرُ الْمُنذَرِينَ } [الشعراء : 173] والمخصوص بالذم وهو مطرهم محذوف ولم يرد بالمنذرين قوماً بأعيانهم بل المراد جنس الكافرين { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔايْكَةِ } بالهمزة والجر هي غيضة تنبت ناعم الشجر عن الخليل { لْـَٔايْكَةِ } حجازي وشامي وكذا في " ص " علم لبلد.

قيل : أصحاب الأيكة هم أهل مدين التجئوا إلى غيضة إذ ألح عليهم الوهج.

والأصح أنهم غيرهم نزلوا غيضة بعينها بالبادية وأكثر شجرهم المقل بدليل أنه لم يقل هنا " أخوهم شعيب " لأنه لم يكن من نسبهم بل كان من نسب أهل مدين ففي الحديث أن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة { الْمُرْسَلِينَ } أتموه { وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ } [الشعراء : 181] ولا تنقصوا الناس حقوقهم فالكيل وافٍ وهو مأمور به ، وطفيف وهو منهي عنه ، وزائد وهو مسكوت

عنه ، فتركه دليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعل فلا شيء عليه
284
جزء : 3 رقم الصفحة : 284
{ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ } [الشعراء : 182] وبكسر القاف كوفي غير أبي بكر وهو الميزان أو القبان ، فإن كان من القسط وهو العدل وجعلت العين مكررة فوزنه فعلاس وإلا فهو رباعي.

(158/3)

{ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ } [الأعراف : 85] يقال بخسته حقه إذا نقصته إياه { أَشْيَآءَهُمْ } دراهمهم ودنانيرهم بقطع أطرافهما { وَلا تَعْثَوْا فِى الارْضِ مُفْسِدِينَ } [البقرة : 60] ولا تبالغوا فيها في الإفساد نحو : قطع الطريق والغارة وإهلاك الزروع.
وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه.
يقال : عثا في الأرض إذا أفسد وعثي في الأرض لغة في عثا.
{ وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ } [الشعراء : 184] الجبلة عطف على " كم " أي اتقوا الذي خلقكم وخلق الجبلة { الاوَّلِينَ } الماضين { قَالُوا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا } إدخال الواو هنا ليفيد معنيين كلاهما مناف الرسالة عندهم : التسحير والبشرية.
وتركها في قصة ثمود ليفيد معنى واحداً وهو كونه مسحراً ، ثم كرر بكونه بشراً مثلهم { وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ } [الشعراء : 186] " إن " مخففة من الثقيلة واللام دخلت للفرق بينهما وبين النافية.
وإنما تفرقنا على فعل الظن وثاني مفعوليه لأن أصلهما أن يتفرقا على المبتدأ والخبر كقولك " إن زيداً لمنطلق " فملا كان بابا " كان " و " ظننت " من جنس باب المبتدأ والخبر فعل ذلك في البابين فقيل : إن كان زيد لمنطلقاً وإن ظننته لمنطلقاً { فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا } [الشعراء : 187] كسفا حفص وهما جمعاً كسفة وهي القطعة وكسفه قطعه { مِّنَ السَّمَآءِ } [الشعراء : 4] أي السحاب أو الظلة { إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [الأعراف : 70] أي إن كنت صادقاً أنك نبي فادع الله أن يسقط علينا كسفاً من السماء أي قطعاً من السماء عقوبة
285
جزء : 3 رقم الصفحة : 285
{ قَالَ رَبِّى } [الشعراء : 188] بفتح الياء : حجازي وأبو عمرو ، وبسكونها : غيرهم { أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ } [الحج : 68] أي إن الله أعلم بأعمالكم وبما تستحقون عليها من العذاب ، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل ، وإن أراد عقاباً آخر فإليه الحكم والمشيئة { فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ } [الشعراء : 189] هي سحابة أظلتهم بعدما حبست عنهم الريح وعذبوا بالحر

سبعة أيام فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالهم من الحر فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا { إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَالِكَ لاَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } وقد كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر تقريراً لمعانيها في الصدور ليكون أبلغ في الوعظ والزجر ، ولأن كل قصة منها كتنزيل برأسه ، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها فكانت جديرة بأن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها وأن تختتم بما اختتمت به.

{ وَإِنَّهُ } أي القرآن { لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء : 192] منزل منه { نَزَلَ بِهِ } [الشعراء : 193] مخفف والفاعل { الرُّوحُ الامِينُ } [الشعراء : 193] أي جبريل لأنه أمين على الوحي الذي فيه الحياة.

حجازي وأبو عمرو وزيد وحفص ، وغيرهم بالتشديد.

ونصب الروح والفاعل هو الله تعالى أي جعل الله الروح نازلاً به ، والباء على القراءتين للتعدية { عَلَى قَلْبِكَ } [البقرة : 97] أي حفظك وفهمك إياه وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى كقوله : { سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى } [الأعلى : 6] { لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ } بلغه قريش وجرهم { مُّبِينٍ } فصيح ومصحح عما صحفته العامة.

والباء إما أن يتعلق بـ المنذرين أي لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم هود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم السلام ، أو بـ نزل أي نزله بلسان عربي لتنذر به لأنه لو نزله بلسان أعجمي لتجافوا عنه أصلاً ولقالوا : ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر

الإنذار به.

وفي هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لأنك تفهمه وتفهّمه قومك ، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها ، وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات فإذا كلم بلغته التي نشأ عليها لم يكن قلبه ناظراً إلا إلى معاني الكلام ، وإن كلم بغيرها كان نظره أولاً في ألفاظها ثم في معانيها ، وإن كان ماهراً بمعرفتها فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين.

(159/3)

جزء : 3 رقم الصفحة : 286

{ وَإِنَّهُ } وإن القرآن { لَفِى زُبُرِ الاوَّلِينَ } [الشعراء : 196] يعني ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية.

وقيل : إن معانيه فيها ، وفيه دليل على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية فيكون دليلاً على

جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة.
{ أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً } ولم تكن لهم آيةٌ شامي ، جعلت آية اسم " كان " وخبره { أَن يَعْلَمَهُ } [الشعراء : 197] أي القرآن لوجود ذكره في التوراة.
وقيل : في يكن ضمير القصة وآية خبر مقدم والمبتدأ أن يعلمه والجملة خبر " كان " .
وقيل : " كان " تامة والفاعل آية وأن يعلمه بدل منها أو خبر مبتدأ محذوف أي أولم تحصل لهم آية.
وغيره يكن بالتذكير وآية بالنصب على أنها خبره وأن يعلمه هو الاسم وتقديره : أولم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل { مَعِىَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ } كعبد الله بن سلام وغيره قال الله تعالى : { وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ } [القصص : 53] وخط في المصحف علماؤا بواو قبل الألف { وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الاعْجَمِينَ } [الشعراء : 198] جمع أعجم وهو الذي لا يفصح وكذلك الأعجمي إلا أن فيه لزيادة يا ء النسبة زيادة تأكيد ، ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه قالوا له أعجم وأعجمي شبهوه بمن لا يفصح ولا
287
يبين ، والعجمي الذي من جنس العجم أفصح أولم يفصح.
وقرأ الحسن الأعجميين وقيل : الأعجمين تخفيف الأعجميين كما قالوا الأشعرون أي الأشعريون بحذف يا ء النسبة ولولا هذا التقدير لم يجز أن يجمع جمع السلامة لأن مؤنثه عجماء
جزء : 3 رقم الصفحة : 287
{ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 199] والمعنى أنا أنزلنا القرآن على رجل عربي مبين ففهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز ، وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتاب قبله على أن البشارة بإنزاله وصفته في كتبهم وقد تضمنت معانيه وقصصه وصح بذلك أنها من عند الله وليست بأساطير كما زعموا ، فلم يؤمنوا به وسموه شعراً تارة وسحراً أخرى وقالوا هذا من افتراء محمد عليه الصلاة والسلام ، ولو نزلناه على بعض الأعاجم الذي لا يحسن العربية فضلاً أن يقدر على نظم مثله فقرأه عليهم هكذا معجزاً لكفروا به كما كفروا ولتمحلوا لجحودهم عذراً ولسموه سحراً.
ثم قال { كَذَالِكَ سَلَكْنَاهُ } [الشعراء : 200] أي أدخلنا التكذيب أو الكفر وهو مدلول قوله ما كانوا به مؤمنين { فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ } [الحجر : 12] الكافرين الذين علمنا منهم اختيار الكفر والإصرار عليه يعني مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم وقررناه فيها فكيفما فعل بهم وعلى أي وجه دبر أمرهم فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الكفر به والتكذيب له كما قال : { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَاذَآ إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ } [الأنعام : 7].
وهو حجتنا على المعتزلة في خلق أفعال العباد خيرها وشرها.
وموقع قوله { لا يُؤْمِنُونَ بِهِ } [الشعراء : 201] بالقرآن من قوله سلكناه في قلوب المجرمين موقع الموضح والملخص لأنه مسوق لثبات كونه مكذباً مجحوداً في قلوبهم ، فاتبع ما يقرر هذا المعنى

من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد ، ويجوز أن يكون حالاً أي سلكناه فيها غير مؤمن به { حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الاليِمَ } [يونس : 88] المراد به
288
معاينة العذاب عند الموت ويكون ذلك إيمان يأس فلا ينفعهم
جزء : 3 رقم الصفحة : 288
{ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً } [الشعراء : 202] فجأة { وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [الأعراف : 95] بإتيانه { فَيَقُولُوا } وفيأتيهم معطوفان على يروا { هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ } [الشعراء : 203] يسألون النظرة والإمهال طرفة عين فلا يجابون إليها { أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ } [الشعراء : 204] توبيخ لهم وإنكار عليهم قولهم : { فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الانفال : 32] .
ونحو ذلك.

(160/3)

{ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ } [الشعراء : 205] قيل : هي سنو مدة الدنيا { ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ } [الشعراء : 206] من العذاب { مَآ أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ } [الشعراء : 207] به في تلك السنين.
والمعنى أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن فقال الله تعالى : أفبعذابنا يستعجلون أشراً وبطراً واستهزاء واتكالاً على الأمل الطويل ، ثم قال : هب أن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم؟.
قال يحيى بن معاذ : أشد الناس غفلة من اغتر بحياته والتذ بمراداته وسكن إلى مألوفاته والله تعالى يقول : أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ، وعن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال : عظني فلم يزده على تلاوة هذه الآية.
فقال ميمون : قد وعظت فأبلغت.
وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقرؤها عند جلوسه للحكم { وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنذِرُونَ } [الشعراء : 208] رسل ينذرونهم.
ولم تدخل الواو
289
على الجملة بعد إلا كما في : { وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ } [الحجر : 4] لأن

الأصل عدم الواو إذ الجملة صفة لـ قرية وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف
جزء : 3 رقم الصفحة : 289
{ ذِكْرَى } منصوبة بمعنى تذكرة لأن أنذر وأذكر متقاربان فكأنه قيل : مذكرون تذكرة.
أو حال من الضمير في { مُنذِرُونَ } أي بنذرونهم ذوي تذكرة أو مفعول له أي ينذرون لأجل التذكرة والموعظة ، أو مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه ذكرى والجملة اعتراضية ، أو صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى ، أو تكون ذكرى متعلقة بـ أهلكنا مفعولاً له ، والمعنى وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم { وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ } [الشعراء : 209] فنهلك قوماً غير ظالمين.
ولما قال المشركون : إن الشياطين تلقى القرآن على محمد أنزل { وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ } [الشعراء : 210] أي القرآن { وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنابَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ } وما يتسهل لهم ولا يقدرون عليه.
{ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ } [الشعراء : 212] لممنوعون بالشهب { فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـاهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ } [الشعراء : 213] مورد النهي لغيره على التعريض والتحريك له زيادة الإخلاص { وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقْرَبِينَ } [الشعراء : 214] خصهم لنفي التهمة إذ الإنسان يساهل قرابته ، أو ليعلموا أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً وأن النجاة في اتباعه دون قربة.
ولما نزلت صعد الصفا ونادى الأقرب فالأقرب وقال : " يا بني عبد المطلب يا بني
290
هاشم يا بني عبد مناف يا عباس عم النبي يا صفية عمة رسول الله إني لا أملك لكم من الله شيئاً "
جزء : 3 رقم الصفحة : 290
{ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ } [الحجر : 88] وألن جانبك وتواضع ، وأصله أن الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه ، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب { لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 215] من عشيرتك وغيرهم { فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنّى بَرِى ءٌ مّمَّا تَعْمَلُونَ } [الشعراء : 216] يعني أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض جناحك لهم ، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ } [الشعراء : 217] على الذي قهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم ، والتوكل : تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره ، وقالوا : المتوكل أن تقبل بالكلية على ربك وتعرض بالكلية عما دونه فإن حاجتك إليه في الدارين.
فتوكل مدني وشامي عطف على فقل أو فلا تدع.

{ الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ } [الشعراء : 218] متهجداً { وَتَقَلُّبَكَ } أي ويرى تقلبك { فِى السَّاجِدِينَ } [الشعراء : 219] في المصلين.

أتبع كونه رحيماً على رسوله ما هو من أسباب الرحمة وهو ذكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه في تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، وليعلم أنهم كيف يعبدون الله ويعملون لآخرتهم.

وقيل : معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة.

وتقلبه في الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمهم.

وعن مقاتل أنه سأل أبا حنيفة : هل تجد الصلاة بالجماعة في القرآن؟ فقال : لا يحضرني فتلا له هذه الآية.

291

جزء : 3 رقم الصفحة : 291

{ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ } [الإسراء : 1] لما تقوله { الْعَلِيمُ } بما تنويه وتعلمه ، هوّن عليه معاناة مشاق العبادات حيث أخبر برؤيته له إذ لا مشقة على من يعلم أنه يعمل بمرأى مولاه وهو كقولك.

:

بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي

نزل جواباً لقول المشركين إن الشياطين تلقى السمع على محمد صلى الله عليه وسلّم { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ } [المائدة : 60] أي هل أخبركم أيها المشركون { عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ } [الشعراء : 221] ثم نبأ فقال { تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ } [الشعراء : 222] مرتكب للاثام وهم الكهنة والمتنبئة كسطيح وطليحة ومسيلمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلّم يشتم الأفاكين ويذمهم فكيف تنزل الشياطين عليه { يُلْقُونَ السَّمْعَ } [الشعراء : 223] هم الشياطين كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يستمعون إلى الملأ الأعلى فيحفظون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ثم يوحون به إلى أوليائهم.

ويلقون حال ، أي تنزل ملقين السمع ، أو صفة لـ كل أفاك لأنه في معنى الجمع فيكون في محل الجزاء ، أو استئناف فلا يكون له محل كأنه قيل : لم تنزل على الأفاكين؟ فقيل : يفعلون كيت وكيت { وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ } [الشعراء : 223] فيما يوحون به إليهم لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا.

وقيل : يلقون إلى أوليائهم السمع أي المسموع من الملائكة.

وقيل : الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين ويتلقون وحيهم إليهم أو يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس وأكثر الأفاعين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم ، والأفاك الذي يكثر الإفك ، ولا يدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك فأراد أن هؤلاء الأفاكين قل من يصدق منهم فيما يحكي عن الجني وأكثرهم

292

مفتر عليه ، وعن الحسن : وكلهم.

وإنما فرق بين وإنه لتنزيل رب العالمين ، وما تنزلت به الشياطين ، وهل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، وهن أخوات ، لأنه إذا فرق بينهن بآيات ليست منهن ثم رجع إليهن مرة بعد مرة دل ذلك على شدة العناية بهن كما إذا حدثت حديثاً وفي صدرك اهتمام بشيء فتعيد ذكره ولا تنفك عن الرجوع إليه.

ونزل فيمن كان يقول الشعر ويقول نحن نقول كما يقول محمد صلى الله عليه وسلّم واتبعهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 292

{ وَالشُّعَرَآءُ } مبتدأ خبره { يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُنَ } [الشعراء : 224] أي لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب ومدح من لا يستحق المدح ، ولا يستحسن ذلك منهم إلا الغاوون أي السفهاء أو الراوون أو الشياطين أو المشركون.

قال الزجاج : إذا مدح أو هجا شاعر بما لا يكون وأحب ذلك قوم وتابعوه فهم الغاوون يتبعهم نافع { أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ } [الشعراء : 225] من الكلام { يَهِيمُونَ } خبر " أن " أي في كل فن من الكذب يتحدثون أو في كل لغو وباطل يخوضون ، والهائم الذاهب على وجهه لا مقصد له وهو تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة وأبخلهم على حاتم.

عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فبتن بجانبيّ مصرعات

وبت أفض أغلاق الختام

فقال : وجب عليك الحد.

فقال : قد درأ الله عني الحد بقوله

293

جزء : 3 رقم الصفحة : 293

{ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ } [الشعراء : 226-71] حيث وصفهم بالكذب والخلف في الوعد.

(162/3)

ثم استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين بقوله { إِلا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ } [ص : 24] كعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن زهير وكعب بن مالك رضي الله عنهم { وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا } [الشعراء : 227] أي كان ذكر الله وتلاوة القرآن أغلب عليهم من الشعر وإذ قالوا شعراً قالوه

في توحيد الله تعالى والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والأدب ومدح رسول الله والصحابة وصلحاء الأمة ونحو ذلك مما ليس فيه ذنب.

وقال أبو يزيد : الذكر الكثير ليس بالعدد والغفلة لأنه بالحضور { وَانتَصَرُوا } وهجوا { مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا } [غافر : 8-165] هجوا أي ردوا هجاء من هجا رسول الله صلى الله عليه وسلّم والمسلمين ، وأحق الخلق بالهجاء من كذب رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهجاه.

وعن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال له " اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل " .

وكان يقول لحسان " قل وروح القدس معك " .

ختم السورة بما يقطع أكباد المتدبرين وهو قوله { وَسَيَعْلَمُ } وما فيه من الوعيد البليغ وقوله { الَّذِينَ ظَلَمُوا } [البقرة : 165] وإطلاقه ، وقوله { أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ } [الشعراء : 227] وإبهامه ، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله تعالى عنه حين عهد إليه وكان السلف يتواعظون بها.

قال ابن عطاء : وسيعلم المعرض عنا ما الذي فاته منا.

وأيّ منصوب بـ ينقلبون على المصدر لا بـ يعلم لأن أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها أي ينقلبون أيّ انقلاب والله اعلم.

294

سورة النمل

(مكية وهي ثلاث وتسعون آية)

{ طسا تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ } [النمل : 1] أي وآيات كتاب مبين وتلك إشارة إلى آيات السورة ، والكتاب المبين : اللوح ، وآياته أنه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبين للناظرين فيه آياته ، أو القرآن وآياته إنه يبين ما أودع فيه من العلوم والحكم وعلى هذا عطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى نحو هذا فعل السخي والجود.

ونكر الكتاب ليكون أفخم له.

وقيل : إنما نكر الكتاب هنا وعرفه في " الحجر " وعرف القرآن هنا ونكره ثمّ ، لأن القرآن والكتاب اسمان علمان للمنزل على محمد عليه الصلاة والسلام ووصفان له لأنه يقرأ ويكتب ، فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم ، وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف { هُدًى وَبُشْرَى } [النمل : 2] في محل النصب على الحال من آيات أي هداية وبشارة فالعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة ، أو الجر على أنه بدل من كتاب أو صفة له أو الرفع على هي هدى وبشرى ، أو على البدل من آيات أو على أن يكون خبراً بعد

295

خبر لتلك أي تلك آيات وهادية من الضلالة ومبشرة بالجنة.

وقيل : هدى لجميع الخلق وبشرى { لِلْمُؤْمِنِينَ } خاصة

جزء : 3 رقم الصفحة : 295

{ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَواةَ } [الانفال : 3] يديمون على فرائضها وسننها { وَيُؤْتُونَ الزكاة } [الأعراف : 156] يؤدون زكاة أموالهم { وَهُم بِالاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } [النمل : 3] من جملة صلة الموصول.

ويحتمل أن تتم الصلة عنده وهو استئناف كأنه قيل : وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة ، ويدل عليه أنه عقد جملة اسمية وكرر فيها المبتدأ الذي هو هم حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق.

{ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ } [النمل : 4] بخلق الشهوة حتى رأوا ذلك حسناً كما قال : { أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُواءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا } [فاطر : 8].

(163/3)

{ فَهُمْ يَعْمَهُونَ } [النمل : 4] يترددون في ضلالتهم كما يكون حال الضال عن الطريق { أولئك الَّذِينَ لَهُمْ سُواءُ الْعَذَابِ } [النمل : 5] القتل والأسر يوم بدر بما كان منهم من سوء الأعمال { وَهُمْ فِى الاخِرَةِ هُمُ الاخْسَرُونَ } [النمل : 5] أشد الناس خسراناً لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم فخسروا ذلك مع خسران النجاة وثواب الله { وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ } [النمل : 6] لتؤتاه وتلقنه { مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ } [النمل : 6] من عند أيّ حكيم وأيّ عليم وهذا معنى تنكيرهما ، وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه.

جزء : 3 رقم الصفحة : 296

إذ منصوب بـ " اذكر " كأنه قال : على أثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى عليه السلام { قَالَ مُوسَى لاهْلِهِ } [النمل : 7] لزوجته ومن معه عند مسيره من مدين إلى
296
مصر { إِنّى ءَانَسْتُ } [النمل : 7] أبصرت { نَارًا سَاَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ } [النمل : 7] عن حال الطريق لأنه كان قد ضله { أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ } [النمل : 7] بالتنوين : كوفي أي شعلة مضيئة { قَبَسٍ } نار مقبوسة بدل أو صفة.

وغيرهم بشهاب قبس على الإضافة لأنه يكون قبساً وغير قبس.

ولا تدافع بين قوله سآتيكم هنا ولعلي آتيكم في القصص مع أن أحدهما ترجٍ والآخر تيقن ، لأن الراجي إذا قوي رجاؤه يقول سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة ، ومجيئه بسين التسويف عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ أو كانت المسافة بعيدة وبأو لأنه بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر

بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منها إما هداية الطريق وإما اقتباس النار ولم يدر أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين وهما عز الدنيا والآخرة ، واختلاف الألفاظ في هاتين السورتين والقصة واحدة دليل على جواز نقل الحديث بالمعنى ، وجواز النكاح بغير لفظ التزوج.

{ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } [النمل : 7] تستدفئون بالنار من البرد الذي أصابكم ، والطاء بدل من تاء افتعل لأجل الصاد

جزء : 3 رقم الصفحة : 296

{ فَلَمَّا جَآءَهَا } [النمل : 8] أي النار التي أبصرها { نُودِىَ } موسى { أَن بُورِكَ } [النمل : 8] مخففة من الثقيلة وتقديره ونودي بأنه بورك والضمير ضمير الشأن ، وجاز ذلك من غير عوض وإن منعه الزمخشري لأن قوله بورك دعاء والدعاء يخالف غيره في أحكام كثيرة ، أو مفسرة لأن في النداء معنى القول أي قيل له بورك أي قدس أو جعل فيه البركة والخير { مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا } [النمل : 8] أي بورك من في مكان النار وهم الملائكة ومن حول مكانها أي موسى لحدوث أمر ديني فيها وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له وإظهار المعجزات عليه { وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [النمل : 8] هو من جملة ما نودي فقد نزه ذاته عما لا يليق به من التشبيه وغيره.

{ يَامُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [النمل : 9] الضمير في إنه للشأن والشأن أنا الله مبتدأ وخبره والعزيز الحكيم صفتان للخبر ، أو يرجع إلى ما دل عليه ما قبله أي إن مكلمك أنا والله بيان لأنا والعزيز الحكيم صفتان للمبين ، وهو تمهيد لما أراد أن يظهر على يده من المعجزات.

297

جزء : 3 رقم الصفحة : 297

(164/3)

{ وَأَلْقِ عَصَاكَ } [النمل : 10] لتعلم معجزتك فتأنس بها وهو عطف على بورك لأن المعنى نودي أن بورك من في النار وأن ألق عصاك كلاهما تفسير لـ نودي والمعنى قيل له بورك من في النار وقيل له ألق عصاك ، ويدل عليه ما ذكر في سورة القصص وأن ألق عصاك بعد قوله { أَن يَاإِبْرَاهِيمُ } على تكرير حرف التفسير { فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ } [النمل : 10] تتحرك حال من الهاء في { رَءَاهَا } { كَأَنَّهَا جَآنٌّ } [النمل : 10] حية صغيرة حال من الضمير في تهتز { وَلَّى } موسى { مُدْبِرًا } أدبر عنها وجعلها تلي ظهره خوفاً من وثوب الحية عليه { وَلَمْ يُعَقِّبْ } [القصص : 31] ولم يلتفت أولم يرجع.

يقال قد عقب فلان إذا رجع يقاتل بعد أن ولى فنودي { يَامُوسَى لا تَخَفْ إِنِّى لا يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ } [النمل : 10] أي لا يخاف عندي المرسلون حال خطابي إياهم أولاً يخاف لدي

المرسلون من غيري { إِلا مَن ظَلَمَ } [النمل : 11] أي لكن من ظلم من غيرهم لأن الأنبياء لا يظلمون ، أو لكن من ظلم منهم من ذل من المرسلين فجاء غير ما أذنت له مما يجوز على الأنبياء كما فرط من آدم ويونس وداود وسليمان عليهم السلام { ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنَا } [النمل : 11] أي أتبع توبة { بَعْدَ سُواءٍ } [النمل : 11] زلة { فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النمل : 11] أقبل توبته وأغفر زلته وأرحمه فأحقق أمنيته وكأنه تعريض بما قال موسى حين قتل القبطي : { رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُا } [القصص : 16].

جزء : 3 رقم الصفحة : 298

{ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ } [النمل : 12] جيب قميصك وأخرجها { تَخْرُجْ بَيْضَآءَ } [طه : 22] نيرة تغلب نور الشمس { مِنْ غَيْرِ سُواءٍ } [طه : 22] برص وبيضاء ومن غير سوء حالان { وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى } [النمل : 12] كلام مستأنف و " في " يتعلق بمحذوف أي اذهب في تسع آيات أو وألق عصاك وأدخل يدك في جملة تسع آيات { إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ } [النمل : 12] " إلى " يتعلق بمحذوف أي مرسلاً إلى فرعون وقومه { إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } [النمل : 12] خارجين عن أمر الله كافرين 298

جزء : 3 رقم الصفحة : 298

{ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا } [النمل : 13] أي معجزاتنا { مُبْصِرَةً } حال أي ظاهرة بينة جعل الإبصار لها وهو في الحقيقة لمتأمليها لملابستهم إياها بالنظر والتفكر فيها ، أو جعلت كأنها تبصر فتهدي لأن الأعمى لا يقدر على الاهتداء فضلاً أن يهدي غيره ومنه قولهم " كلمة عيناء وعوراء " لأن الكلمة الحسنة ترشد والسيئة تغوي { قَالُوا هَاذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ } [النمل : 13] ظاهر لمن تأمله وقد قوبل بين المبصرة والمبين { وَجَحَدُوا بِهَا } [النمل : 14] قيل : الجحود لا يكون إلا من علم من الجاحد وهذا ليس بصحيح ، لأن الجحود هو الإنكار وقد يكون الإنكار للشيء للجهل به وقد يكون بعد المعرفة تعنتاً كذا ذكره في شرح التأويلات.

وذكر في الديوان يقال جحد حقه وبحقه بمعنى.

والواو في { وَاسْتَيْقَنَتْهَآ } للحال و " قد " بعدها مضمرة والاستيقان أبلغ من الإيقان { أَنفُسُهُمْ } أي جحدوها بألسنتهم واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم { ظُلْمًا } حال من الضمير في وجحدوا وأي ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنها آيات من عند الله ثم سماها سحراً بيناً { وَعُلُوًّا } ترفعاً عن الإيمان بما جاء به موسى { فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } [الأعراف : 103] وهو الإغراق هنا والإحراق ثمة.

{ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا } [الأنبياء : 51] أعطينا { دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا } [النمل : 15] طائفة من العلم أو علماً سنياً غزيراً والمراد علم الدين والحكم { وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ } [النمل : 15] والآيات حجة لنا على المعتزلة في ترك الأصلح وهنا محذوف ليصح عطف الواو عليه ولولا تقدير المحذوف لكان الوجه الفاء كقولك " أعطيته فشكر " ، وتقديره :

آتيناهما علماً فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه وقالا الحمد لله الذي فضلنا ، والكثير المفضل عليه من لم يؤت علماً أو من لم يؤت مثل علمهما ، وفيه أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير.

وفي الآية دليل على شرف العلم وتقدم

299

(165/3)

حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم ، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من عباده ، وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة لأنهم القوام بما بعثوا من أجله ، وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله على ما أوتوه ، وإن يعتقد العالم أنه إن فضل على كثير فقد فضل عليهم مثلهم ، وما أحسن قول عمر رضي الله عنه : كل الناس أفقه من عمر رضي الله عنه.

جزء : 3 رقم الصفحة : 299

{ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُادَ } ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر قالوا : أوتي النبوة مثل أبيه فكأنه ورثه وإلا فالنبوة لا تورث { وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ } تشهيراً لنعمة الله تعالى واعترافاً بمكانها ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير.

والمنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد ، وكان سليمان عليه السلام يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض.

روي أنه صاحب فاختة فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا ، وصاح طاوس فقال : يقول : كما تدين تدان ، وصاح هدهد فقال : يقول : استغفروا الله يا مذنبين ، وصاح خطاف فقال : يقول : قدموا خيراً تجدوه.

وصاحت رحمة فقال : تقول : سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه.

وصاح قمري فأخبر أنه يقول : سبحان ربي الأعلى وقال : الحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله والقطاة تقول من سكت سلم والديك يقول اذكروا الله ياغافلون والنسر يقول يابن آدم عش ما شئت آخرك الموت والعقاب يقول في البعد من الناس أنس.

والضفدع يقول : سبحان ربي القدوس { وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ } [النمل : 16] المراد به كثرة ما أوتي كما تقول فلان يعلم كل شيء ومثله وأوتيت من كل

300

شيء { إِنَّ هَاذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } [النمل : 16] قوله وارد على سبيل الشكر كقوله عليه السلام :

" أنا سيد ولد آدم ولا فخر " أي أقول هذا القول شكراً ولا أقوله فخراً ، والنون في علمنا وأوتينا نون الواحد المطاع وكان ملكاً مطاعاً فكلم أهل طاعته على الحال التي كان عليها وليس التكبر من لوازم ذلك.

جزء : 3 رقم الصفحة : 300

{ وَحُشِرَ } وجمع { لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالانسِ وَالطَّيْرِ } [النمل : 17] روي أن معسكره كان مائة فرسخ في مائة فرسخ ، خمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للإنس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة وسبعمائة سرية ، وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وابريسم فرسخاً في فرسخ ، وكان يوضع منبره في وسطه وهو من ذهب وفضة فيقعد وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة فيقعد وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة ، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين ، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه حر الشمس ، وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر.

ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله تعالى إليه وهو يسير بين السماء والأرض إني قد زدت في ملكك أن لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك ، فيحكى أنه مر بحراث فقال : لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً فألقته الريح في أذنه فنزل ومشي إلى الحراث وقال : إني جئت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال : لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتي ال داود { فَهُمْ يُوزَعُونَ } [النمل : 17] يحبس أولهم على آخرهم أي يوقف سلاف العسكر حتى يلحقهم التوالي ليكونوا مجتمعين وذلك للكثرة العظيمة.

والوزع : المنع ، ومنه قول عثمان رضي الله عنه : " ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن " .

جزء : 3 رقم الصفحة : 301

{ حَتَّى إِذَآ أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ } [النمل : 18] أي ساروا حتى إذا بلغوا وادي النمل وهو 301

(166/3)

واد بالشام كثير النمل.

وعدي بـ " على " لأن إتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء { قَالَتْ نَمْلَةٌ } [النمل : 18] عرجاء تسمى طاخية أو منذرة.

وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال : سلوا عما شئتم فسأله أبو حنيفة رضي الله عنه وهو شاب عن نملة سليمان أكانت ذكراً أم أنثى؟ فأفحم فقال أبو حنيفة رضي الله عنه : كانت أنثى.

فقيل له : بماذا عرفت؟ فقال : بقوله قالت نملة ولو كانت ذكراً لقال قال نملة ، وذلك أن النملة مثل الحمامة في وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة ، نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي { يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ } [النمل : 18] ولم يقل " ادخلن " لأنه لما جعلها قائلة والنمل مقولاً لهم كما يكون في أولي العقل أجرى خطابهن مجرى خطابهم { لا يَحْطِمَنَّكُمْ } [النمل : 18] لا يكسرنكم ، والحطم الكسر وهو نهي مستأنف وهو في الظاهر نهي لسليمان عن الحطم وفي الحقيقة نهي لهن عن البروز والوقوف على طريقة " لا أرينك هاهنا " أي لا تحضر هذا الموضع.

وقيل : هو جواب الأمر وهو ضعيف يدفعه نون التوكيد لأنه من ضرورات الشعر { سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ } [النمل : 18] قيل : أراد لا يحطمنكم جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ { وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [الأعراف : 95] لا يعلمون بمكانكم أي لو شعروا لم يفعلوا ، قالت ذلك على وجه العذر واصفة سليمان وجنوده بالعدل فسمع سليمان قولها من ثلاثة أميال

جزء : 3 رقم الصفحة : 301

{ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا } [النمل : 19] متعجباً من حذرها واهتدائها لمصالحها ونصيحتها للنمل ، أو فرحاً لظهور عدله.

وضاحكاً حال مؤكدة لأن تبسم بمعنى ضحك وأكثر ضحك الأنبياء التبسم كذا قاله الزجاج { وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى } [النمل : 19] ألهمني وحقيقته كفني عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك { أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ } [النمل : 19] من النبوة والملك والعلم { وَعَلَى وَالِدَىَّ } [النمل : 19] لأن الإنعام على الوالدين إنعام على الولد { وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ } [النمل : 19] في بقية عمري { وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ } [النمل : 19] وأدخلني الجنة برحمتك لا بصالح عملي إذ لا يدخل الجنة أحد إلا برحمته كما جاء في الحديث { فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } [النمل : 19] أي في زمرة أنبيائك المرسلين أو مع عبادك الصالحين.

روي أن النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء فأمر سليمان الريح فوقفت

302

لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهن ثم دعا بالدعوة.

جزء : 3 رقم الصفحة : 302

{ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ } [النمل : 20] مكي وعلي وعاصم ، وغيرهم بسكون الياء.

والتفقد صلب ما غاب عنك { لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ } [النمل : 20] " أم " بمعنى بل والمعنى أنه تعرف الطير فلم يجد فيها الهدهد فقال : مالي لا أراه على معنى أنه لا يراه وهو حاضر

لساتر ستره أو غير ذلك ، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : بل هو غائب.
وذكر أن سليمان عليه السلام لما حج خرج إلى اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال فنزل ليصلي فلم يجد الماء وكان الهدهد قنّاقنه وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاجة فتستخرج الشياطين الماء فتفقده لذلك.
وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال ، فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب : عليّ به ، فارتفع فنظر فإذا هو مقبل فقصده فناشده الله فتركه ، فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض وقال : يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله فارتعد سليمان وعفا عنه { لاعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا } [النمل : 21] بنتف ريشه وإلقائه في الشمس ، أو بالتفريق بينه وبين إلفه ، أو بإلزامه خدمة أقرآنه ، أو بالحبس مع أضداده.
وعن بعضهم أضيق السجون معاشرة الأضداد.
أو بإبداعه القفص أو بطرحه بين يدي النمل ليأكله.
وحل له تعذيب الهدهد لما رأى فيه من المصلحة كما حل ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع ، وإذا سخر له الطير لم يتم التسخير إلا بالتأديب والسياسة { أَوْ لا ذْبَحَنَّهُا أَوْ لَيَأْتِيَنِّى } [النمل : 21] بالنون الثقيلة ليشاكل قوله لأعذبنه وحذف نون العماد للتخفيف.
{ لَيَأْتِيَنِّى } بنونين : مكي الأول للتأكيد والثاني للعماد { بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } [إبراهيم : 10] بحجة له فيها عذر ظاهر على غيبته.
والإشكال أنه حلف على أحد ثلاثة أشياء : اثنان منها فعله ولا مقال فيه ، والثالث فعل الهدهد وهو مشكل لأنه من أين درى أنه يأتي بسلطان حتى قال : والله ليأتيني بسلطان؟ وجوابه أن معنى كلامه ليكونن أحد الأمور يعني إن كان

الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح وإن لم يكن كان أحدهما وليس في هذا ادعاء دراية

{ فَمَكَثَ } الهدهد بعد تفقد سليمان إياه ، وبضم الكاف غيره عاصم وسهل ويعقوب ، وهما لغتان.
{ غَيْرَ بَعِيدٍ } [ق : 31] أي مكثاً غير طويل أو غير زمان بعيد كقوله " عن قريب " ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان.
فلما رجع سأله عما لقي في غيبته { فَقَالَ أَحَطتُ } [النمل : 22] علماً شيئاً من جميع جهاته { بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ } [النمل : 22] ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام مع ما أوتي من فضل النبوة والعلوم الجمة ابتلاء له في علمه ، وفيه دليل بطلان قول الرافضة أن الإمام لا يخفي عليه شيء ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه { وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ } [النمل : 22] غير منصرف.
أبو عمرو جعله اسماً للقبيلة أو المدينة وغيره بالتنوين جعله اسماً للحي أو الأب الأكبر { بِنَبَإٍ يَقِينٍ }

[النمل : 22] النبأ الخبر الذي له شأن ، وقوله من سبأ بنبإٍ من محاسن الكلام ويسمى البديع وقد حسن وبدع لفظاً ومعنى هاهنا ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبإ بخبر لكان المعنى صحيحاً وهو كما جاء أصح لما في النبإ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

{ إِنّى وَجَدتُّ امْرَأَةً } [النمل : 23] هي بلقيس بنت شراحيل وكان أبوها ملك أرض اليمن ولم يكن له ولد غيرها فغلبت على الملك وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس.

والضمير في { تَمْلِكُهُمْ } راجع إلى سبأ على تأويل القوم أو أهل المدينة { وَأُوتِيَتْ } حال ، و " قد " مقدرة { مِن كُلِّ شَىْءٍ } [النمل : 16] من أسباب الدنيا ما يليق بحالها { وَلَهَا عَرْشٌ } [النمل : 23] سرير عظيم { عَظِيمٌ } كبير.

قيل : كان ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعاً وطوله في الهواء ثمانون ذراعاً ، وكان من ذهب وفضة وكان مرصعاً بأنواع الجواهر وقوائمه من يا قوت أحمر وأخضر ودر وزمرد ، وعليه سبعة أبواب على كل بيت باب مغلق.

واستصغر حالها إلى حال سليمان فاستعظم عرشها كتلك ، وقد أخفى الله تعالى على سليمان ذلك لمصلحة رآها كما أخفى مكان يوسف على يعقوب عليهما السلام

(168/3)

جزء : 3 رقم الصفحة : 304

{ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ } [النمل : 24] أي سبيل التوحيد { فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ } [النمل : 24] إلى الحق ولا يبعد من الهدهد التهدي إلى معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وحرمة السجود للشمس إلهاماً من الله كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي لا يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها.

{ أَلا يَسْجُدُوا } [النمل : 25] بالتشديد أي فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا فحذف الجار مع " أن " وأدغمت النون في اللام ، ويجوز أن تكون " لا " مزيدة ويكون المعنى فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا.

وبالتخفيف : يزيد وعلي ، وتقديره : ألا يا هؤلاء اسجدوا فـ " ألا " للتنبيه و " يا " حرف نداء ومناداه محذوف ، فمن شدد لم يقف إلا على العرش العظيم ، ومن خفف وقف على فهم لا يهتدون ثم ابتدأ ألا يسجدوا أو وقف على ألايا ثم ابتدأ اسجدوا وسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً بخلاف ما يقوله الزجاج إنه لا يجب السجود مع التشديد ، لأن مواضع السجدة إما أمر بها أو مدح للاتي بها أو ذم لتاركها ، وإحدى القراءتين أمر والآخرى ذم للتارك { لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ } [النمل : 25]

سمى المخبوء بالمصدر { فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [مريم : 93] قتادة خبء السماء المطر وخبء الأرض النبات { وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } [النمل : 25] وبالتاء فيهما : علي وحفص { اللَّهُ لا إِلَاهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } [طه : 8] وصف الهدهد عرش الله بالعظيم تعظيم به بالنسبة إلى سائر ما خلق من السماوات والأرض ، ووصفه عرش بلقيس تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك إلى ههنا كلام الهدهد.

جزء : 3 رقم الصفحة : 305

فلما فرغ من كلامه { قَالَ } سليمان للهدهد { سَنَنظُرُ } من النظر الذي هو التأمل { أَصَدَقْتَ } فيما أخبرت { أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [النمل : 27] وهذا أبلغ من " أم كذبت " لأنه إذا كان معروفاً 305

بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة ، وإذا كان كاذباً اتهم بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به ، ثم كتب سليمان كتاباً صورته : من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ : بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من ابتع الهدى ، أما بعد فلا تعلوا علي وأتوني مسلمين وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه وقال للهدهد :

جزء : 3 رقم الصفحة : 305

{ اذْهَب بِّكِتَابِى هَاذَا فَأَلْقِهْ } [النمل : 28] بسكون الهاء تخفيفاً : أبو عمرو وعاصم وحمزة ، ويختلسها كسراً لتدل الكسرة على الياء المحذوفة : يزيد وقالون ويعقوب ، بإثبات الياء : غيرهم { أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ } [يس : 14] إلى بلقيس وقومها لأنه ذكرهم معها في قوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس وبني الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك { ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ } [النمل : 28] تنح عنهم إلى مكان قريب بحيث تراهم ولا يرونك ليكون ما يقولونه بمسمع منك { فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } [النمل : 28] ما الذي يردونه من الجواب.

فأخذ الهدهد الكتاب بمنقاره ودخل عليها من كوة فطرح الكتاب على نحرها وهي راقدة وتوارى في الكوة فانتبهت فزعة ، أو أتاها والجنود حواليها فرفرف ساعة وألقى الكتاب في حجرها وكانت قارئة ، فلما رأت الخاتم.

{ قَالَتْ } لقومها خاضعة خائفة { اللَّهِ إِنّى } وبفتح الياء : مدني { أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل : 29] حسن مضمونه وما فيه أو مختوم.

قال عليه الصلاة والسلام : " كرم الكتاب ختمه " وقيل : من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به ، أو مصدر ببسم الله الرحمن الرحيم أو لأنه من عند ملك كريم.

{ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ } [النمل : 30] هو تبيين لما ألقى إليها كأنها لما قالت إني ألقي إلى كتاب كريم قيل لها : ممن هو وما هو؟ فقالت : إنه من سليمان وإنه كيت وكيت.

و " أن " فيه { أَلا تَعْلُوا } [النمل : 31] لا تترفعوا { عَلَى } ولا تتكبروا كما يفعل الملوك
306

(169/3)

مفسرة كقوله { وَانطَلَقَ الْمَلا مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا } [ص : 6] يعني أي امشوا { وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ } [النمل : 31] مؤمنين أو منقادين وكتب الأنبياء مبنية على الإيجاز والاختصار
جزء : 3 رقم الصفحة : 306
{ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِى فِى أَمْرِى } أشيروا علي في الأمر الذي نزل بي.
والفتوى الجواب في الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتاء في السن ، والمراد هنا بالفتوى الإشارة عليها بما عندهم من الرأي ، وقصدها بالرجوع إلى استشارتهم تطييب أنفسهم ليمالئوها ويقوموا معها { مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا } [النمل : 32] فاصلة أو ممضية حكماً { حَتَّى تَشْهَدُونِ } [النمل : 32] بكسر النون ، والفتح لحن لأن النون إنما تفتح في موضع الرفع وهذا في موضع النصب ، وأصله تشهدونني فحذفت النون الأولى للنصب والياء لدلالة الكسرة عليها.
وبالياء في الوصل والوقف : يعقوب أي تحضروني وتشيروني وتشهدوا أنه صواب أي لا أبت الأمر إلا بمحضركم.
وقيل : كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً كل واحد على عشرة الاف.
{ قَالُوا } مجيبين لها { نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ } أرادوا بالقوة قوة الأجساد والالات وبالبأس النجدة والبلاء في الحرب { وَالامْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ } [النمل : 33] أي موكول إليك ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نطعك ولا نخالفك كأنهم أشاروا عليها بالقتال ، أو أرادوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة وأنت ذات الرأي والتدبير فانظري ماذا ترين نتبع رأيك.
فلما أحست منهم الميل إلى المحاربة مالت إلى المصالحة ورتبت الجواب فزيفت أولاً ما ذكروه وأرتهم الخطأ فيه حيث { قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً } [النمل : 34] عنوة وقهراً { أَفْسَدُوهَا } خربوها { وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً } [النمل : 34] أذلوا أعزتها وأهانوا أشرافها وقتلوا وأسروا فذكرت لهم سوء عاقبة الحرب ثم قالت { وَكَذَالِكَ يَفْعَلُونَ } [النمل : 34] أرادت وهذه عادتهم المستمرة التي
307
لا تتغير لأنها كانت في بيت الملك القديم فسمعت نحو ذلك ورأت.
ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية وما رأت من الرأي السديد.
وقيل : هو تصديق من الله لقولها ، واحتج الساعي في الأرض بالفساد بهذه الآية.
ومن استباح حراماً فقد كفر ، وإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين

جزء : 3 رقم الصفحة : 307
{ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ } [النمل : 35] أي مرسلة رسلاً بهدية.

(170/3)

{ فَنَاظِرَةٌ } فمنتظرة { بِمَ } أي بـ " ما " لأن الألف تحذف مع حرف الجر في الاستفهام { يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ } [النمل : 35] بقبولها أم بردها لأنها عرفت عادة الملوك وحسن مواقع الهدايا عندهم ، فإن كان ملكاً قبلها وانصرف ، وإن كان نبياً ردها ولم يرض منا إلا أن نتبعه على دينه.
فبعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري وحليهن راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر ، وخمسمائة جارية على رماك في زي الغلمان ، وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت وحقاً فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب ، وبعثت رسلاً وأمرت عليهم المنذر بن عمرو بدليل قوله تعالى ؛ بم يرجع المرسلون.
وكتبت كتاباً فيه نسخة الهدايا وقالت فيه : إن كنت نبياً فميز بين الوصفاء والوصائف وأخبر بما في الحق واثقب الدرة ثقباً واسلك في الخرزة خيطاً.
ثم قالت للمنذر : إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك منظره ، وإن رأيته بشاشاً لطيفاً فهو نبي.
فأقبل الهدهد وأخبر سليمان الخبر كله فأمر سليمان الجن فضربوا لبنات الذهب والفضة وفرشوها في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ ، وجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة ، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبنات ، وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا عن اليمين واليسار ، ثم قعد على سريره والكراسي من جانبيه ، واصطفت الشياطين صفوفاً فراسخ ، والإنس صفوفاً فراسخ ، والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك ، فلما دنا القوم ورأوا الدواب تروث على اللبن رموا بما معهم من الهدايا ، ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم سليمان بوجه طلق فأعطوه كتاب الملكة فنظر فيه وقال : أين الحق؟ فأمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت في الدرة وأخذت دودة بيضاء
308
الخيط بفيها ونفذت فيها ، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وقال للمنذر : ارجع إليهم.
جزء : 3 رقم الصفحة : 308
{ فَلَمَّا جَآءَ } [الحجر : 61] رسولها المنذر بن عمرو { سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ } [النمل : 36] بنونين وإثبات الياء في الوصل والوقف : مكي وسهل ، وافقهما مدني وأبو عمرو في الوصل.

حمزة ويعقوب في الحالين ، وغيرهم بنونين بلا يا ء فيهما ، والخطاب للرسل { بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَانِاَ اللَّهُ } [النمل : 36] من النبوة والملك والنعمة.

وبفتح الباء : مدني وأبو عمرو وحفص { خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَاكُم } [النمل : 36] من زخارف الدنيا { بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ } [النمل : 36] الهدية اسم المهدي كما أن العطية اسم المعطي فتضاف إلى المهدي والمهدى له تقول " هذه هدية فلان " تريد هي التي أهداها أو أهديت إليه ، والمعنى أن ما عندي خير مما عندكم وذلك أن الله آتاني الدين الذي فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع ، وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه فكيف يرضى مثلي بأن يمد بمال بل أنتم قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فلذلك تفرحون بما تزادون ويهدى إليكم لأن ذلك مبلغ همتكم ، وحالي خلاف حالكم وما أرضي منكم بشيء ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية.

والفرق بين قولك " أتمدونني بمال وأنا أغنى منكم " وبين أن تقوله بالفاء أني إذا قلته بالواو جعلت مخاطبي عالماً بزيادتي في الغنى وهو مع ذلك يمدني بمال ، وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالي فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده كأني أقول له : أنكر عليك ما فعلت فإني غني عنه ، وعليه ورد فما آتاني الله ووجه الإضراب أنه لما أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه وهو أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح إلا أن يهدى إليهم حظ من الدنيا التي يعلمون غيرها.

{ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ } [النمل : 37] خطاب للرسول أو الهدهد محملاً كتاباً آخر إليهم ائت بلقيس وقومها { فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُم بِهَا } [النمل : 37] لا طاقة لهم بها وحقيقة القبل المقاومة

(171/3)

والمقابلة أي لا يقدرون أن يقابلوهم { وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ } [النمل : 37] من سبأ { أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ } [النمل : 37] الذل أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك ، والصغار أن يقعوا في أسر واستعباد.

فلما رجع إليها رسولها بالهدايا وقص عليها القصة قالت : هو نبي وما لنا به طاقة ثم جعلت عرشها في آخر سبعة أبيات وغلقت الأبواب ووكلت به حرساً يحفظونه ، وبعثت إلى سليمان إني قادمة إليك لأنظر ما الذي تدعو إليه ، وشخصت إليه في إثني عشر ألف.

قيل : تحت كل قيل ألوف فلما بلغت على رأس فرسخ من سليمان.

جزء : 3 رقم الصفحة : 309

{ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ } أراد أن يريها بذلك بعض ما خصه

الله تعالى به من إجراء العجائب على يده مع إطلاعها على عظم قدرة الله تعالى وعلى ما يشهد لنبوة سليمان ، أو أراد أن يأخذه قبل أن تسلم لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها وهذا بعيد عند أهل التحقيق ، أو أراد أن يؤتى به فينكر ويغير ثم ينظر أتثبته أم تنكره اختباراً لعقلها { قَالَ عِفْرِيتٌ مِّن الْجِنِّ } [النمل : 39] وهو الخبيث المارد واسمه ذكوان { أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ } [النمل : 39] مجلس حكمك وقضائك { وَإِنّى عَلَيْهِ } [النمل : 39] على حمله { لَقَوِىٌّ أَمِينٌ } [النمل : 39] آتي به كما هو لا آخذ منه شيئاً ولا أبدله.

فقال سليمان عليه السلام : أريد أعجل من هذا.

جزء : 3 رقم الصفحة : 310

{ قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مّنَ الْكِتَابِ } [النمل : 40] أي ملك بيده كتاب المقادير أرسله الله تعالى عند قول العفريت ، أو جبريل عليه السلام ، والكتاب على هذا اللوح المحفوظ ، أو الخضر أو اصف بن برخيا كاتب سليمان وهو الأصح وعليه الجمهور ، وكان عنده اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وهو : يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام أو يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً " واحداً " لا إله إلا أنت.

وقيل : كان له علم بمجاري الغيوب

310

إلهاماً { أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ } [النمل : 39] بالعرش و اتيك في الموضعين يجوز أن يكون فعلاً أو اسم فاعل.

ومعنى قوله { قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } [النمل : 40] أنك ترسل طرفك إلى شيء فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك.

ويروى أن اصف قال لسليمان عليه السلام : مد عينيك حتى ينتهي طرفك فمد عينيه فنظر نحو اليمن فدعا اصف فغار العرش في مكانه ثم نبع عند مجلس سليمان بقدرة الله تعالى قبل أن يرتد طرفه { فَلَمَّا رَءَاهُ } [النمل : 40] أي العرش { مُسْتَقِرًّا عِندَهُ } [النمل : 40] ثابتاً لديه غير مضطرب { قَالَ هَاذَا } [الأنعام : 76] أي حصول مرادي وهو حضور العرش في مدة ارتداد الطرف { مِن فَضْلِ رَبّى } [النمل : 40] عليّ وإحسانه إلي بلا استحقاق مني بل هو فضل خال من العوض صافٍ عن الغرض { قَالَ الَّذِى } [النمل : 40] ليمتحنني أأشكر إنعامه { أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ } [النمل : 40] لأنه يحط به عنها عبء الواجب ويصونها عن سمة الكفران ويستجلب به المزيد وترتبط به النعمة ، فالشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة.

وفي كلام بعضهم : إن كفران النعمة بوار وقلما أقشعت نافرة فرجعت في نصابها ، فاستدع شاردها بالشكر ، واستدم راهنها بكرم الجوار.

واعلم أن سبوغ ستر الله تعالى متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج لله وقاراً أي لم تشكر لله نعمة { وَمَن كَفَرَ } [النور : 55] بترك الشكر على النعمة { فَإِنَّ رَبّى غَنِىٌّ } [النمل : 40] عن الشكر {

كَرِيمٌ } بالإنعام على من يكفر نعمته ، قال الواسطي : ما كان منا من الشكر فهو لنا ، وما كان منه من النعمة فهو إلينا وله المنة والفضل علينا.
جزء : 3 رقم الصفحة : 310

(172/3)

{ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا } [النمل : 41] غيروا أي اجعلوا مقدمة مؤخره وأعلاه أسفله { نَنظُرْ } بالجزم على الجواب { أَتَهْتَدِى } إلى معرفة عرشها أو للجواب الصواب إذا سئلت عنه { أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَآءَتْ } بلقيس { قِيلَ أَهَاكَذَا عَرْشُكِ } [النمل : 42] " ها " للتنبيه والكاف للتشبيه و " ذا " اسم إشارة ولم يقل " أهذا عرشك " ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقيناً { قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ } [النمل : 42] فأجابت أحسن جواب فلم تقل " هو هو " و " لا ليس به " وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقطع في المحتمل للامرين ، أو لما شبهوا عليها بقولهم : أهكذا عرشك شبهت عليهم بقولها { كَأَنَّهُ هُوَ } [النمل : 42] مع أنها علمت أنه عرشها
311
{ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا } [النمل : 42] من كلام بلقيس أي وأوتينا العلم بقدرة الله تعالى وبصحة نبوتك بالآيات المتقدمة من أمر الهدهد والرسل من قبل هذه المعجزة أي إحضار العرش أو من قبل هذه الحالة { وَكُنَّا مُسْلِمِينَ } [النمل : 42] منقادين لك مطيعين لأمرك ، أو من كلام سليمان وملئه عطفوا على كلامها قولهم : وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها ، أو أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنا مسلمين موحدين خاضعين.
جزء : 3 رقم الصفحة : 311
{ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ } [النمل : 43] متصل بكلام سليمان أي وصدها عن العلم بما علمناه أو عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين أظهر الكفرة.
ثم بين نشأها بين الكفرة بقوله { إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ } [النمل : 43] أو كلام مبتدأ أي قال الله تعالى وصدها قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل ، أو صدها الله ، أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل.
{ قِيلَ لَهَا ادْخُلِى الصَّرْحَ } [النمل : 44] أي القصر أو صحن الدار { فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً } [النمل : 44] ماء عظيماً { وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا } [النمل : 44] سأقيها بالهمزة : مكي.
روي أن سليمان أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه السمك وغيره ، ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس.
وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره وتحقيقاً لنبوته.

وقيل : إن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضي إليه بأسرارهم لأنها كانت بنت جنية.
وقيل : خافوا أن يولد له منها ولد يجمع فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد فقالوا له : إن في عقلها شيئاً وهي شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار ، فاختبر عقلها بتنكير العرش ، واتخذ الصرح ليعرف ساقها ورجلها فكشفت عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً إلا أنها شعراء فصرف بصره { قَالَ } لها { إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ } [النمل : 44] مملس مستو ومنه الأمرد { مِّن قَوَارِيرَ } [النمل : 44] من الزجاج.
وأراد سليمان تزوجها فكره شعرها فعملت لها الشياطين النورة فأزالته فنكحها سليمان وأحبها وأقرها على
312
ملكها وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له { قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى } [النمل : 44] بعبادة الشمس { وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [النمل : 44] قال المحققون : لا يحتمل أن يحتال سليمان لينظر إلى ساقيها وهي أجنبية فلا يصح القول بمثله.
جزء : 3 رقم الصفحة : 312

(173/3)

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ } [النمل : 45] في النسب { صَالِحًا } بدل { أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ } [المائدة : 117] بكسر النون في الوصل : عاصم وحمزة وبصري ، وبضم النون : غيرهم اتباعاً للباء ، والمعنى بأن اعبدوا الله وحدوه { فَإِذَا } للمفاجأة { هُمْ } مبتدأ { فَرِيقَانِ } خبر { يَخْتَصِمُونَ } صفة وهي العامل في { إِذَآ } والمعنى فإذا قوم صالح فريقان مؤمن به وكافر به يختصمون فيقول كل فريق الحق معي وهو مبين في قوله : { قَالَ الْمَلا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِى ءَامَنتُم بِهِ كَافِرُونَ } .
وقال الفريق الكافر : { وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } { قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ } بالعذاب الذي توعدون { قَبْلَ الْحَسَنَةِ } [النمل : 46] قبل التوبة { لَوْلا } هلا { تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ } [النمل : 46] تطلبون المغفرة من كفركم بالتوبة والإيمان قبل نزول العذاب بكم { لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [آل عمران : 132] بالإجابة { قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ } [النمل : 47] تشاءمنا بك لأنهم قحطوا عند مبعثه لتكذيبهم فنسبوه إلى مجيئه.
والأصل { تَطَيَّرْنَا } وقريء به فأدغمت التاء في الطاء وزيدت الألف لسكون الطاء { وَبِمَن مَّعَكَ } [النمل : 47] من المؤمنين { قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ } [النمل : 47] أي سببكم الذي يجيء منه خيركم

وشركم عند الله وهو قدره وقسمته ، أو عملكم مكتوب عند الله فإنما نزل بكم ما نزل عقوبة لكم وفتنة ومنه { وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ } [الإسراء : 13] وأصله أن المسافر إذا مر بطائر فيزجره فإن مر سانحاً تيمن ، وإذا مر بارحاً تشأم ، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله

313

وقسمته ، أو من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة { بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ } [النمل : 47] تختبرون أو تعذبون بذنبكم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 313

{ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ } [النمل : 48] مدينة ثمود وهي الحجر { تِسْعَةُ رَهْطٍ } [النمل : 48] هو جمع لا واحد له ولذا جاز تمييز التسعة به فكأنه قيل تسعة أنفس ، وهو من الثلاثة إلى العشرة.

وعن أبي دؤاد : رأسهم قدار بن سالف وهم الذين سعوا في عقر الناقة وكانوا أبناء أشرافهم { يُفْسِدُونَ فِي الارْضِ وَلا يُصْلِحُونَ } [الشعراء : 152] يعني أن شأنهم الإفساد البحت لا يخلط بشيء من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح.

وعن الحسن يظلمون الناس ولا يمنعون الظالمين من الظلم.

وعن ابن عطاء : يتبعون معايب الناس ولا يسترون عوراتهم { قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ } [النمل : 49] تحالفوا خبر في محل الحال بإضمار " قد " أي قالوا متقاسمين أو أمر أي أمر بعضهم بعضاً بالقسم { لَنُبَيِّتَنَّهُ } لنقتلنه بياتاً أي ليلاً { وَأَهْلَهُ } ولده وتبعه { ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ } [النمل : 49] لولي دمه لتبيتنه بالتاء وبضم التاء الثانية ثم لتقولن بالتاء وضم اللام : حمزة وعلي ما حضرنا { شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ } [النمل : 49] حفص مهلك أبو بكر وحماد والمفضل من هلك ، فالأول موضع الهلاك ، والثاني المصدر مهلك غيرهم ، من أهلك وهو الإهلاك أو مكان الإهلاك أي لم نتعرض لأهله فكيف تعرضنا له؟ أو ما حضرنا موضع هلاكه فكيف تولیناه؟ { وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } [الأنعام : 146] فيما ذكرنا.

{ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [النمل : 50] مكرهم ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله.

ومكر الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون ، شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة.

روي أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه فقالوا : زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثالث ، فخرجوا إلى الشعب وقالوا : إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم ، فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم

314

يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم ، وعذب الله كلاً منهم في مكانه ونجى صالحاً عليه السلام ومن معه

جزء : 3 رقم الصفحة : 314

{ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ } [النمل : 51] بفتح الألف : كوفي وسهل ، وبكسرها : غيرهم على الاستئناف ، ومن فتحه رفعه على أنه بدل من العاقبة ، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : هي تدميرهم ، أو نصبه على معنى لأنا أو على أنه خبر " كان " أي فكان عاقبة مكرهم الدمار { وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ } [النمل : 51] بالصيحة { فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً } [النمل : 52] ساقطة منهدمة من خوى النجم إذا سقط ، أو خالية من الخواء ، وهي حال عمل فيها ما دل عليه تلك { بِمَا ظَلَمُوا } [النمل : 52] بظلمهم { إِنَّ فِى ذَالِكَ } [السجدة : 26] فيما فعل بثمود { لاَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [النمل : 52] قدرتنا فيتعظون { وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا } [النمل : 53] بصالح { وَكَانُوا يَتَّقُونَ } [يونس : 63] ترك أوامره وكانوا أربعة الاف نجواً مع صالح من العذاب.

{ وَلُوطًا إِذْ قَالَ } [الأعراف : 80] واذكر لوطاً ، وإذ بدل من لوطاً أي واذكر وقت قول لوط { لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ } [الأعراف : 80] أي إتيان الذكور { وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ } [الأنبياء : 3] تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها من بصر القلب ، أو يرى ذلك بعضهم من بعض لأنهم كانوا يرتكبونها في ناديهم معالنين بها لا يتستر بعضهم من بعض مجانة وانهماكاً في المعصية ، أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم.

ثم صرح فقال { أَاِنَّكُمْ } بهمزتين : كوفي وشامي { لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً } [الأعراف : 81] للشهوة { مِّن دُونِ النِّسَآءِ } [الأعراف : 81] أي إن الله تعالى إنما خلق الأنثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر ولا الأنثى للأنثى فهي مضادة لله في حكمته { بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } [النمل : 55] تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك ، أو أريد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها.

وقد اجتمع الخطاب والغيبة في قوله بل أنتم قوم تجهلون و بل أنتم قوم تفتنون فغلب الخطاب على الغيبة لأنه أقوى إذ الأصل أن يكون الكلام بين الحاضرين.

315

جزء : 3 رقم الصفحة : 315

{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ } [النمل : 56] أي لوطاً ومتبعيه فخبر " كان " جواب واسمه أن قالوا { مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [الأعراف : 82] يتنزهون عن القاذورات ينكرون هذا العمل القذر ويغيظنا إنكارهم.

وقيل : هو استهزاء كقوله { إِنَّكَ لانتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ } [هود : 87] { فَأَنجَيْنَاهُ } فخلصناه من العذاب الواقع بالقوم { وَأَهْلَهُا إِلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا } [النمل : 57] بالتشديد سوى حماد وأبي بكر أي قدرنا

كونها { مِنَ الْغَابِرِينَ } [الأعراف : 83] من الباقين في العذاب { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا } [الأعراف : 84] حجارة مكتوباً عليها اسم صاحبها { فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ } [الشعراء : 173] الذين لم يقبلوا الإنذار.

(175/3)

{ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى } [النمل : 59] أمر رسوله محمداً صلى الله عليه وسلّم بتحميده ثم بالصلاة على المصطفين من عبادة توطئه لما يتلوه من الدلالة على وحدانيته وقدرته على كل شيء وهو تعليم لكل متكلم في كل أمر ذي بال بأن يتبرك بهما ويستظهر بمكانهما ، أو هو خطاب للوط عليه السلام بأن يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم { ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } بالياء : بصري وعاصم.
ولا خير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل شيء ، وإنما هو إلزام لهم وتهكم بحالهم وذلك أنهم اثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة ، فقيل لهم مع العلم بأنه لا خير فيما اثروه وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى وعبثاً لينبهوا على الخطأ المفرط والجهل المورط ، وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا قرأها قال : " بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم " .
316
ثم عدد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله فقال
جزء : 3 رقم الصفحة : 316
{ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ } [النمل : 60] والفرق بين " أم " و " أم " في أما يشركون و أمن خلق السماوات أن تلك متصلة إذ المعنى أيهما خير ، وهذه منقطعة بمعنى " بل " والهمزة ، ولما قال الله خير أم الآلهة قال بل أمن خلق السماوات والأرض خير ، تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء { وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً } [النمل : 60] مطراً { فَأَنابَتْنَا } صرف الكلام عن الغيبة إلى التكلم تأكيداً لمعنى اختصاص الفعل بذاته وإيذاناً بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والأشكال مع حسنها بماء واحد لا يقدر عليه إلا هو وحده { بِهِ } بالماء { حَدَآ ئِقَ } بساتين ، والحديقة : البستان وعليه حائط من الإحداق وهو الإحاطة { ذَاتَ } ولم يقل " ذوات " لأن المعنى جماعة حدائق كما تقول النساء ذهبت { بَهْجَةٍ } حسن لأن الناظر يبتهج به.
ثم رشح معنى الاختصاص بقوله { مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنابِتُوا شَجَرَهَآ } [النمل : 60] ومعنى الكينونة

الانبغاء أراد أنّ تأتّى ذلك محال من غيره { أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ } [النمل : 61] أغيره يقرن به ويجعل شريكاً له { بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ } [النمل : 60] به غيره أو يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد و بل هم بعد الخطاب أبلغ في تخطئة رأيهم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 317

{ أَمَّن جَعَلَ الارْضَ } [النمل : 61] وما بعده بدل من خلق فكان حكمها حكمه { قَرَارًا } دحاها وسواها للاستقرار عليها { وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ } [النمل : 61] ظرف أي وسطها وهو المفعول الثاني والأول { أَنْهَارًا } وبين البحرين مثله { وَجَعَلَ لَهَا } [النمل : 61] للأرض { رَوَاسِىَ } جبالاً تمنعها عن الحركة { وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ } [النمل : 61] العذب والمالح { حَاجِزًا } مانعاً أن يختلطا { أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [النمل : 61] التوحيد فلا يؤمنون { أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ } [النمل : 62] الاضطرار افتعال من الضرورة وهي الحالة

317

المحوجة إلى اللجأ.

يقال اضطره إلى كذا والفاعل والمفعول مضطر ، والمضطر الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجأ والتضرع إلى الله ، أو المذنب إذا استغفر ، أو المظلوم إذا دعا ، أو من رفع يديه ولم ير لنفسه حسنة غير التوحيد وهو منه على خطر { وَيَكْشِفُ السُّواءَ } [النمل : 62] الضر أو الجور { وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الارْضِ } [النمل : 62] أي فيها وذلك توارثهم سكناها والتصرف فيها قرناً بعد قرن ، أو أراد بالخلافة الملك والتسلط { أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلا مَّا تَذَكَّرُونَ } [النمل : 62] وبالياء : أبو عمرو ، وبالتخفيف : حمزة وعلي وحفص.

و " ما " مزيدة أي تذكرون تذكراً قليلاً.

جزء : 3 رقم الصفحة : 317

{ أَمَّن يَهْدِيكُمْ } [النمل : 63] يرشدكم بالنجوم { فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [الأنعام : 97] ليلاً وبعلامات في الأرض نهاراً { وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَـٰحَ } [النمل : 63] الريح مكي وحمزة وعلى { بُشْرَا } من البشارة وقد مرّ في " الأعراف " { بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ } [النمل : 63] قدام المطر { أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ } ينشيء الخلق { ثُمَّ يُعِيدُهُ } [العنكبوت : 19] وإنما قيل لهم { ثُمَّ يُعِيدُهُ } [العنكبوت : 19] وهم منكرون للإعادة لأنه أزيحت علتهم بالتمكن من المعرفة والإقرار فلم يبق لهم عذر في الإنكار { وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ } [النمل : 64] أي المطر { وَالارْضِ } أي ومن الأرض النبات { مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن } [النمل : 64] حجتكم على

إشراككم { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة : 23] في دعواكم أن مع الله إلهاً آخر.
{ قُل لا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ } [النمل : 65] من فاعل يعلم والغيب هو ما لم يقم عليه دليل ولا أطلع عليه مخلوق مفعوله والله بدل من من والمعنى لا يعلم أحد الغيب إلا الله.
نعم إن الله تعالى يتعالى عن أن يكون ممن في السماوات والأرض ولكنه جاء على لغة بني تميم حيث يجرون الاستثناء المنقطع مجرى المتصل ويجيزون النصب والبدل في المنقطع كما في المتصل ويقولون ما في الدار

أحد إلا حمار.
وقالت عائشة رضي الله عنها : من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول : { قُل لا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ } [النمل : 65].
وقيل : نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن وقت الساعة { وَمَا يَشْعُرُونَ } [البقرة : 9] وما يعلمون { أَيَّانَ } متى { يُبْعَثُونَ } ينشرون
جزء : 3 رقم الصفحة : 318
{ بَلِ ادَّارَكَ } [النمل : 66] أدرك مكي وبصري ويزيد والمفضل أي انتهى وتكامل من أدركت الفاكهة تكاملت نضجاً { بَلِ ادَّارَكَ } [النمل : 66] عن الأعشى افتعل.
{ بَلِ ادَّارَكَ } [النمل : 66] غيرهم استحكم وأصله تدارك فأدغمت التاء في الدال وزيد ألف الوصل ليمكن التكلم بها { عِلْمُهُمْ فِى الاخِرَةِ } [النمل : 66] أي في شأن الآخرة ومعناها ، والمعنى أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة قد حصلت لهم ومكنوا من معرفته وهم شاكون جاهلون وذلك قوله { بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ } [النمل : 66] والإضرابات الثلاث تنزيل لأحوالهم وتكرير لجهلهم ، وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث ، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ، ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة ، ثم بما هو أسوأ حالاً وهو العمى.
وقد جعل الآخرة مبتدأ عماهم ومنشأة فلذا عداه بـ " من " دون " عن " لأن الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي منعهم عن التدبر والتفكر.
ووجه ملاءمة مضمون هذه الآية وهو وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة بما قبله وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب وأن العباد لا علم لهم بشيء منه ، أنه لما ذكر أن العباد لا يعلمون الغيب وكان هذا بياناً لعجزهم ووصفاً لقصور علمهم ، وصل به أن عندهم عجزاً أبلغ منه وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بد من كونه وهو وقت جزاء أعمالهم لا يكون مع أن عندهم أسباب معرفة كونه واستحكام العلم به.
وجاز أن يكون وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكماً بهم كما تقول لأجهل الناس " ما أعلمك " على سبيل الهزء وذلك حيث شكوا عموا عن إثباته الذي الطريق إلى علمه مسلوك فضلاً أن يعرفوا وقت

كونه الذي لا طريق إلى معرفته ، ويجوز أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفني من قولك " أدركت الثمرة " لأن تلك غايتها التي عندها تعدم ، وقد فسرها الحسن بإضمحل علمهم في الآخرة.
319
وتدارك من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك.
جزء : 3 رقم الصفحة : 319

(177/3)

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَائِنَّا لَمُخْرَجُونَ } [النمل : 67] من قبورنا أحياء وتكرير حرف الاستفهام في أءذا وأءنا في قراءة عاصم وحمزة وخلف ، إنكار بعد إنكار وجحود عقيب جحود ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه.
والعامل في إذا ما دل عليه لمخرجون وهو نخرج لأن اسم الفاعل والمفعول بعد همزة الاستفهام ، أو إن " أو لام الابتداء لا يعمل فيما قبله فكيف إذا اجتمعن " ؟ والضمير في " إنا " لهم ولآبائهم لأن كونهم تراباً قد تناولهم وآباءهم لكنه غلبت الحكاية على الغائب ، وآباؤنا عطف على الضمير في كنا لأن المفعول جرى مجرى التوكيد { لَقَدْ وُعِدْنَا هَاذَا } [النمل : 68] أي البعث { نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ } [النمل : 68] من قبل محمد صلى الله عليه وسلّم.
قدم هنا هذا على نحن وآباؤنا وفي المؤمنون نحن وآباؤنا على هذا ليدل على أن المقصود بالذكر هو البعث هنا وثمة المبعوثون { إِنْ هَاذَآ إِلا أَسَاطِيرُ الاوَّلِينَ } [الأنعام : 25] ما هذا إلا أحاديثهم وأكاذيبهم.
{ قُلْ سِيرُوا فِى الارْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } [النمل : 69] أي آخر أمر الكافرين.
وفي ذكر الإجرام لطف بالمسلمين في ترك الجرائم كقوله تعالى : { فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنابِهِمْ } [الشمس : 14].
وقوله { مِّمَّا خَطِياـَاتِهِمْ أُغْرِقُوا } [نوح : 25] { وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } [الحجر : 88] لأجل أنهم لم يتبعوك ولم يسلموا فيسلموا { وَلا تَكُن فِى ضَيْقٍ } [النمل : 70] في حرج صدر { مِّمَّا يَمْكُرُونَ } [النحل : 127] من مكرهم وكيدهم لك فإن الله يعصمك من الناس.
يقال ضاق الشيء ضيقاً بالفتح وهو قراءة غير ابن كثير وبالكسر وهو قراءته { وَيَقُولُونَ مَتَى هَاذَا الْوَعْدُ } [يونس : 48] أي وعد العذاب { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة : 23] أن العذاب نازل بالمكذب.
320
جزء : 3 رقم الصفحة : 320
{ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ } [النمل : 72] استعجلوا العذاب الموعود

فقيل لهم عسى أن يكون ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء في { وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } [البقرة : 195] أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وأزف لكم ومعناه تبعكم ولحقكم ، وعسى ولعل وسوف في وعد الملوك ووعيدهم يدل على صدق الأمر وجده فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ } [النمل : 73] أي إفضال { عَلَى النَّاسِ } [الأعراف : 144] بترك المعاجلة بالعذاب { وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ } [يونس : 60] أي أكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا يشكرونه فيستعجلون العذاب بجهلهم { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ } [النمل : 74] تخفي { صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } [النمل : 74] يظهرون من القول فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم ولكن له وقت مقدر ، أو أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ومكايدهم وهو معاقبهم على ذلك بما يستحقونه.

وقرى تكنّ يقال كننت الشيء وأكننته إذا سترته وأخفيته { وَمَا مِنْ غَآ ئِبَةٍ فِى السَّمَآءِ وَالارْضِ إِلا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ } [النمل : 75] سمى الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة وخافية ، والتاء فيهما كالتاء في العاقبة والعافية ونظائرهما الرمية والذبيحة والنطيحة في أنها أسماء غير صفات ، ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالراوية كأنه قال : وما من شيء شديد الغيبوبة إلا وقد علمه الله وأحاط به وأثبته في اللوح المحفوظ.

والمبين الظاهر البيّن لمن ينظر فيه من الملائكة.

جزء : 3 رقم الصفحة : 321

{ إِنَّ هَاذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَى بَنِى إِسْرَاءِيلَ } أي يبين لهم { أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [النمل : 76] فإنهم اختلفوا في المسيح فتحزبوا فيه أحزاباً ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً ، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا

321

وأخذوا له وأسلموا يريد اليهود والنصارى

جزء : 3 رقم الصفحة : 321

(178/3)

{ وَإِنَّهُ } وإن القرآن { لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } [النمل : 77] لمن أنصف منهم وآمن أي من بني إسرائيل أو منهم ومن غيرهم { إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم } [النمل : 78] بين من آمن بالقرآن ومن كفر به { بِحُكْمِهِ } بعدله لأنه لا يقضي إلا بالعدل فسمى المحكوم به حكماً ، أو بحكمته ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه جمع حكمة { وَهُوَ الْعَزِيزُ } [إبراهيم : 4] فلا يرد قضاؤه { الْعَلِيمُ } بمن يقضي له وبمن يقضي عليه أو العزيز في انتقامه من المبطلين العليم بالفصل بينهم وبين المحقين.

{ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران : 159] أمره بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين { إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } [النمل : 79] وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج وهو الدين الواضح الذي لا يتعلق به شك ، وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله وبنصرته { إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَادِى الْعُمْىِ عَن ضَلَـالَتِهِمْ } لما كانوا لا يعون ما يسمعون ولا به ينتفعون ، شبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس ، وبالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون ، وبالعمي حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ويجعلهم هداة بصراء إلا الله تعالى.

ثم أكد حال الصم بقوله إذا ولوا مدبرين لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن تولى عنه مدبراً كان أبعد عن إدراك صوته ، ولا يسمع الصّمّ مكي وكذا " في الروم " { وَمَآ أَنتَ بِهَادِى الْعُمْىِ } وكذا في " الروم " : حمزة { وَمَآ أَنتَ بِهَادِى الْعُمْىِ عَن ضَلَـالَتِهِمْ } [النمل : 81] أي ما يجدي إسماعك إلا على الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته أي يصدقون بها { فَهُم مُّسْلِمُونَ } [النمل : 81] مخلصون من قوله { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ } [البقرة : 112] يعني جعله سالماً لله خالصاً له.

322

جزء : 3 رقم الصفحة : 322

{ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ } [النمل : 82] سمى معنى القول ومؤداه بالقول وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب ، ووقوعه حصوله والمراد مشارفة الساعة وظهور أشراطها وحين لا تنفع التوبة { أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الارْضِ تُكَلِّمُهُمْ } [النمل : 82] هي الجساسة ، في الحديث : طولها ستون ذراعاً لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب ، ولها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان.

وقيل : لها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيّل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير ، وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعاً تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية فتقول { وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ } [النمل : 82] أي لا يوقنون بخروجي لأن خروجها من الآيات وتقول : ألا لعنة الله على الظالمين.

أو تكلمهم ببطلان الأديان كلها سوى دين الإسلام ، أو بأن هذا مؤمن وهذا كافر.

وفتح أن كوفي وسهل على حذف الجار أي تكلمهم بأن ، وغيرهم كسروا لأن الكلام بمعنى القول ، أو بإضمار القول أي تقول الدابة ذلك ويكون المعنى بآيات ربنا أو حكاية لقول الله تعالى عند ذلك.

ثم ذكر قيام الساعة فقال { وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا } [النمل : 83] " من " للتبعيض أي واذكر يوم نجمع من كل أمة من الأمم زمرة { مِّمَّن يُكَذِّبُ } [النمل : 83] " من " للتبيين { بِـَايَاتِنَا } المنزلة على أنبيائنا { فَهُمْ يُوزَعُونَ } [النمل : 17] يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ثم يساقون إلى موضع الحساب وهذه عبارة عن كثرة العدد ، وكذا الفوج عبارة عن الجماعة الكثيرة { حَتَّى إِذَآ } حضروا موقف الحساب والسؤال { وَلَتَنصُرُنَّهُا قَالَ } [آل عمران : 81] لهم تعالى تهديداً { حَتَّى إِذَآ } [النمل : 84] المنزلة على رسلي { وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا } [النمل : 84] الواو للحال كأنه قال : أكذبتم بآياتي بادىء الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها وأنها حقيقة

بالتصديق أو بالتكذيب { بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } حيث لم تتفكروا فيها فإنكم لم تخلقوا عبثا
323
جزء : 3 رقم الصفحة : 323

(179/3)

{ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ } [النمل : 85] أي يغشاهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله : { هَاذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ } [المرسلات : 35].

{ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا } [النمل : 86] حال ، جعل الإبصار للنهار وهو لأهله والتقابل مراعى من حيث المعنى لأن معنى مبصراً ليبصروا فيه طرق التقلب في المكاسب { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاياَتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [النحل : 79] يصدقون فيعتبرون ، وفيه دليل على صحة البعث لأن معناه ألم يعلموا أنا جعلنا الليل والنهار قواماً لمعاشهم في الدنيا ليعلموا أن ذلك لم يجعل عبثاً بل محنة وابتلاء ولا بد عند ذلك من ثواب وعقاب فإذا لكم يكونا في هذه الدار فلا بد من دار أخرى للثواب والعقاب { وَيَوْمَ } واذكر يوم { يُنفَخُ فِى الصُّورِ } [الأنعام : 73] وهو قرن أو جمع صورة والنافخ إسرافيل عليه السلام { فَفَزِعَ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَمَن فِى الارْضِ } [النمل : 87] اختير " فزع " على " يفزع " للإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة ، والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون { إِلا مَن شَآءَ اللَّهُ } [الزمر : 68] إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا : هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام وقيل : الشهداء وقيل الحور النار النار وحملة العرش وعن جابر رضي الله عنه منهم موسى عليه السلام لأنه صعق مرة ، ومثله : { وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَمَن فِى الارْضِ إِلا مَن شَآءَ اللَّهُ } [الزمر : 68] { وَكُلٌّ أَتَوْهُ } [النمل : 87] حمزة وحفص وخلف ، اتوه غيرهم وأصله " اتيوه " { دَاخِرِينَ } حال أي صاغرين ومعنى الإتيان حضورهم الموقف ورجوعهم إلى أمره تعالى وانقيادهم له.
جزء : 3 رقم الصفحة : 324
{ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا } [النمل : 88] بفتح السين : شامي وحمزة ويزيد وعاصم ، وبكسرها : غيرهم حال من المخاطب { جَامِدَةً } واقفة ممسكة عن الحركة من جمد في مكانه إذا لم يبرح { وَهِىَ تَمُرُّ } [النمل : 88] حال من الضمير المنصوب في تحسبها { مَرَّ السَّحَابِ } [النمل : 88] أي
324
مثل مر السحاب والمعنى أنك إذا رأيت الجبال وقت النفخة ظننتها ثابتة في مكان واحد لعظمها وهي تسير سيراً سريعاً كالسحاب إذا ضربته الريح ، وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحركت لا

تكاد تبين حركتها كما قال النابغة في صفة جيش :

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم

وقوف لحاج والركاب تهملج

{ صُنْعَ اللَّهِ } [النمل : 88] مصدر عمل فيه ما دل عليه تمر لأن مرورها كمر السحاب من صنع الله فكأنه قيل : صنع الله ذلك صنعاً وذكر اسم الله لأنه لم يذكر قبل { الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ } [النمل : 88] أي أحكم خلقه { إِنَّهُ خَبِيرُ بِمَا تَفْعَلُونَ } [النمل : 88] يفعلون مكي وبصري غير سهل وأبو بكر غير يحي ، وغيرهم بالتاء أي أنه عالم بما يفعل العباد فيكافئهم على حسب ذلك.

ثم لخص ذلك بقوله

جزء : 3 رقم الصفحة : 324

{ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ } [النمل : 89] أي بقول لا إله إلا الله عند الجمهور { فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا } [القصص : 84] أي فله خير حاصل من جهتها وهو الجنة ، وعلى هذا لا يكون خير بمعنى أفضل ويكون منها في موضع رفع صفة لـ خير أي بسببها { وَهُم مِّن فَزَعٍ } [النمل : 89] كوفي أي من فزع شديد مفرط الشدة وهو خوف النار أو من فزع ما وإن قل ، وبغير تنوين غيرهم { يَوْمَاإِذٍ } كوفي ومدني ، وبكسر الميم غيرهم والمراد يوم القيامة { ءَامِنُونَ } " أمن " يعدى بالجار وبنفسه كقوله { أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ } [الأعراف : 99] { وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ } [النمل : 90] بالشرك { فَكُبَّتْ } ألقيت { ضِعْفًا فِى النَّارِ } [ص : 61] يقال كببت الرجل ألقيته على وجهه أي ألقوا على رؤوسهم في النار ، أو عبر عن الجملة بالوجه كما يعبر بالرأس والرقبة عنها أي ألقوا في النار ويقال لهم تبكيتاً عند الكب { هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [النمل : 90] في الدنيا من الشرك والمعاصي

325

جزء : 3 رقم الصفحة : 325

(180/3)

{ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَاذِهِ الْبَلْدَةِ } [النمل : 91] مكة { الَّذِى حَرَّمَهَا } [النمل : 91] جعلها حرماً آمناً يأمن فيها اللاجيء إليها ولا يختلي خلاها ولا يعضد شوكها ولا ينفر صيدها { وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ } [النمل : 91] مع هذه البلدة فهو مالك الدنيا والآخرة { وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [يونس : 72] المنقادين له.

{ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ } من التلاوة أو من التلو كقوله : { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ } [الأحزاب : 2] ، أمر رسوله بأن يقول أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة ولا اتخذ له شريكاً كما فعلت قريش ، وأن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام ، وأن أتلو القرآن لأعرف الحلال والحرام وما يقتضيه

الإسلام.
وخص مكة من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها لأنها أحب بلاده إليه وأعظمها عنده وأشار إليها بقوله هذه إشارة تعظيم لها وتقريب دالاً على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه ، ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما { فَمَنِ اهْتَدَى } [يونس : 108] باتباعه إياي فيما أنا بصدده من توحيد الله ونفي الشركاء عنه والدخول في الملة الحنيفية واتباع ما أنزل عليّ من الوحي { فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ } [يونس : 108] فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إليّ { وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ } أي ومن ضل ولم يتبعني فلا عليّ وما أنا إلا رسول منذر { وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلَـاغُ الْمُبِينُ } [النور : 54] { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا } [النمل : 93] ثم أمره أن يحمد الله على ما خوّله من نعمة النبوة التي لا توازيها نعمة ، وأن يهدد أعداءه بما سيريهم الله من آياته في الآخرة فيستيقنون بها.
وقيل : هو انشقاق القمر والدخان وما حل بهم من نقمات الله في الدنيا { وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [هود : 123] بالتاء مدني وشامي وحفص ويعقوب خطاب لأهل مكة ، وبالياء غيرهم أي كل عمل يعملونه فإن الله عالم به غير غافل عنه فالغفلة والسهو لا يجوزان عليه.
326
سورة القصص
(مكية ثمانون وثمان آيات)
{ طسام * تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } يقال بان الشيء وأبان بمعنى واحد ، ويقال أبنته فأبان لازم ومتعدٍ أي مبين خيره وبركته أو مبين للحلال والحرام والوعد والوعيد والإخلاص والتوحيد { نَتْلُوا عَلَيْكَ } [القصص : 3] نقرأ عليك أي يقرؤه جبريل بأمرنا ومفعول نتلو { مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ } [القصص : 3] أي نتلو عليك بعض خبرهما { بِالْحَقّ } حال أي محقين { لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأنعام : 99] لمن سبق في علمنا أنه مؤمن لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم { إِنَّ فِرْعَوْنَ } [القصص : 4] جملة مستأنفة كالتفسير للجمل كأن قائلاً قال : وكيف كان نبؤهما؟ فقال : إن فرعون { عَلا } طغى وجاوز الحد في الظلم واستكبر وافتخر بنفسه ونسي العبودية { فِى الارْضِ } [السجدة : 10] أي أرض مملكته يعني مصر { وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا } [القصص : 4] فرقاً يشيعونه على ما يريد ويطيعونه.
لا يملك أحد منهم أن يلوي عنقه أو فرقاً مختلفة يكرم طائفة ويهين أخرى فأكرم القبطي وأهان الإسرائيلي { يَسْتَضْعِفُ طَآ ئِفَةً مِّنْهُمْ } [القصص : 4] هم بنو إسرائيل { يُذَبّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِ نِسَآءَهُمْ } [القصص : 4] أي يترك البنات أحياء للخدمة ، وسبب ذبح الأبناء أن كاهناً قال له : يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده.
وفيه دليل على حمق فرعون فإنه إن صدق الكاهن لم ينفعه القتل ،
327

وإن كذب فما معنى القتل.
ويستضعف حال من الضمير في وجعل أو صفة لـ شيعاً أو كلام مستأنف ويذبح بدل من يستضعف { إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } [القصص : 4] أي إن القتل ظلماً إنما هو فعل المفسدين إذ لا طائل تحته صدق الكاهن أو كذب.
جزء : 3 رقم الصفحة : 327

(181/3)

{ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ } [القصص : 5] نتفضل وهو دليل لنا في مسألة الأصلح ، وهذه الجملة معطوفة على إن فرعون علا في الأرض لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيراً لنبأ موسى وفرعون واقتصاصاً له ، أو حال من يستضعف أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم وإرادة الله تعالى كائنة فجعلت كالمقارنة لاستضعافهم { عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الارْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَائِمَّةً } [القصص : 5] قادة يفتدى بهم في الخير أو قادة إلى الخير أو ولاة وملوكاً { وَنَجْعَلَهُمْ } أي يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم { الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ } [القصص : 6] مكن له إذا جعل له مكاناً يقعد عليه أو يرقد ، ومعنى التمكين { لَهُمْ فِى الارْضِ } [التوبة : 74] أي أرض مصر والشام أن يجعلها بحيث لا تنبو بهم ويسلطهم وينفذ أمرهم { وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا } [القصص : 6] بضم النون ونصب فرعون وما بعده ، وبالياء ورفع فرعون وما بعده : علي وحمزة أي يرون منهم ما حذروه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم ، ويرى نصب عطف على المنصوب قبله كقراءة النون أو رفع على الاستئناف { مِنْهُم } من بني إسرائيل ويتعلق بـ نري دون يحذرون لأن الصلة لا تتقدم على الموصول { مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ } [القصص : 6] الحذر : التوقي من الضرر.
جزء : 3 رقم الصفحة : 328
{ وَأَوْحَيْنَآ إِلَى أُمِّ مُوسَى } [القصص : 7] بالإلهام أو بالرؤيا أو بإخبار ملك كما كان لمريم ، وليس هذا وحي رسالة ولا تكون هي رسولاً { أَنْ أَرْضِعِيهِ } [القصص : 7] " أن " بمعنى أي أو مصدرية { فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ } [القصص : 7] من القتل بأن يسمع الجيران صوته فينمو عليه { فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ } [القصص : 7] البحر ، قيل : هو نيل مصر { وَلا تَخَافِى } [القصص : 7] من الغرق والضياع { وَلا تَحْزَنِى } [القصص : 7] بفراقه { إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ } [القصص : 7] بوجه لطيف لتربيته { وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } [القصص : 7] وفي هذه الآية
328
أمران ونهيان وخبران وبشارتان.
والفرق بين الخوف والحزن أن الخوف غم يلحق الإنسان كمتوقع ، والحزن غم يلحقه لواقع وهو فراقه

والإخطار به فنهيت عنهما وبشرت برده إليها وجعله من المرسلين.
وروي أنه ذبح في طلب موسى تسعون ألف وليد.
وروي أنها حين ضربها الطلق وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالي بني إسرائيل مصافية لها فعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ودخل حبه قلبها فقالت : ما جئتك إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون ولكن وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله فاحفظيه ، فلما خرجت القابلة جاءت عيون فرعون فلفته في خرقة ووضعته في تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئاً فخرجوا وهي لا تدري مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار برداً وسلاماً ، فلما ألح فرعون في طلب الولدان أوحي إليها بإلقائه في اليم فألقته في اليم بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر
جزء : 3 رقم الصفحة : 328
{ فَالْتَقَطَهُا ءَالُ فِرْعَوْنَ } [القصص : 8] أخذه ، قال الزجاج : كان فرعون من أهل فارس من اصطخر { لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا } [القصص : 8] أي ليصير الأمر إلى ذلك لا أنهم أخذوه لهذا كقولهم للموت ما تلده الوالدة وهي لم تلد لأن يموت ولدها ولكن المصير إلى ذلك كذا قاله الزجاج.
وعن هذا قال المفسرون : إن هذه لام العاقبة والصيرورة.
وقال صاحب الكشاف : هي لأم كي التي معناها التعليل كقولك " جئتك لتكرمني " ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز لأن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء { وَحَزَنًا } وحزناً علي وحمزة وهما لغتان كالعدم والعدم { إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ } [القصص : 8] خاطين تخفيف خاطئين : أبو جعفر أي كانوا مذنبين فعاقبهم الله بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم ، أو كانوا خاطئين في كل شيء فليس خطؤهم في تربية عدوهم ببدع منهم.
{ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ } [القصص : 9] روي أنهم حين التقطوا التابوت
329

عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه فعالجوا كسره فأعياهم فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً فعالجته ففتحه فإذا بصبي نوره بين عينيه فأحبوه وكانت لفرعون بنت برصاء فنظرت إلى وجهه فبرئت ، فقالت الغواة من قومه : هو الذي نحذر منه فأذن لنا في قتله ، فهمّ بذلك فقالت آسية : قرة عين لي ولك.
فقال فرعون : لك ، لا لي.

وفي الحديث " لو قال كما قالت لهداه الله تعالى كما هداها " وهذا على سبيل الفرض أي لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها وكان أسلم كما أسلمت.
وقرة خبر مبتدأ محذوف أي هو قرة و لي ولك صفتان لقرة { لا تَقْتُلُوهُ } [القصص : 9] خاطبته خطاب الملوك أو خاطبت الغواة { عَسَى أَن يَنفَعَنَآ } [يوسف : 21] فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع وذلك لما عاينت من النور وبرء البرصاء { أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا } [يوسف : 21] أو نتبناه فإنه أهل لأن يكون ولداً للملوك { وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [الأعراف : 95] حال ، وذو حالها آل فرعون وتقدير الكلام : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ، وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنيه.
وقوله إن فرعون الآية جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم ، وما أحسن نظم هذا الكلام عند أصحاب المعاني والبيان.
جزء : 3 رقم الصفحة : 329
{ وَأَصْبَحَ } وصار { فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا } [القصص : 10] صفراً من العقل لما دهمها من فرط الجزع لما سمعت بوقوعه في يد فرعون { إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ } [القصص : 10] لتظهر به والضمير لموسى والمراد بأمره وقصته وأنه ولدها.
قيل : لما رأت الأمواج تلعب بالتابوت كادت تصيح وتقول : وا ابناه.
وقيل : لما سمعت أن فرعون أخذ التابوت لم تشك أنه يقتله فكادت تقول : وا ابناه شفقة عليه.
و " إن " مخففة من الثقيلة أي إنها كادت { لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا } [القصص : 10] لولا ربطنا على قلبها والربط على القلب تقويته بإلهام الصبر { لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [القصص : 10] من المصدقين بوعدنا وهو إنا رادوه إليك وجواب " لولا " محذوف أي لأبدته أو فارغاً من الهم حين سمعت أن فرعون تبناه إن كادت لتبدي بأنه ولدها لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت لولا أنا
330
طمأنا قلبها وسكنا قلقه الذي حدث به من شدة الفرح لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لابتبني فرعون.
قال يوسف بن الحسين : أمرت أم موسى بشيئين ونهيت عن شيئين وبشرت ببشارتين فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حياطتها فربط على قلبها
جزء : 3 رقم الصفحة : 330
{ وَقَالَتْ لاخْتِهِ } [القصص : 11] مريم { قُصِّيهِ } اتبعي أثره لتعلمي خبره { فَبَصُرَتْ بِهِ } [القصص : 11] أي أبصرته { عَن جُنُبٍ } [القصص : 11] عن بعد حال من الضمير في به أو من الضمير في بصرت { وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [الأعراف : 95] أنها أخته { وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ } [القصص : 12] تحريم منع لا تحريم شرع أي منعناه أن يرضع ثدياً غير ثدي أمه وكان لا يقبل ثدي مرضع

حتى أهمهم ذلك.

والمراضع جمع مرضع وهي المرأة التي ترضع أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع وهو الثدي أو الرضاع { مِن قَبْلُ } [يوسف : 6] من قبل قصها أثره أو من قبل أن نرده على أمه { فَقَالَتْ } أخته وقد دخلت بين المراضع ورأته لا يقبل ثدياً { هَلْ أَدُلُّكُمْ } [القصص : 12] أرشدكم { عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ } [القصص : 12] أي موسى { لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ } [القصص : 12] النصح إخلاص العمل من شائبة الفساد.

روي أنها لما قالت وهم له ناصحون قال هامان : إنها لتعرفه وتعرف أهله فخذوها حتى تخبر بقصة هذا الغلام ، فقالت : إنما أردت وهم للملك ناصحون.

فانطلقت إلى أمها بأمرهم فجاءت بها والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع ، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها ، فقال لها فرعون : ومن أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت : إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلني ، فدفعه إليها وأجرى عليها وذهبت به إلى بيتها وأنجز الله وعده في الرد فعندها ثبت واستقر في علمها أنه سيكون نبياً وذلك قوله :

جزء : 3 رقم الصفحة : 331

(183/3)

{ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا } [القصص : 13] بالمقام معه { وَلا تَحْزَنَ } [العنكبوت : 33] بفراقه { وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } [القصص : 13] أي وليثبت علمها مشاهدة كما علمت خبراً.

وقوله ولا تحزن معطوف على تقر وإنما حل لها ما تأخذه من الدينار كل يوم كما قال السدي لأنه مال حربي لا أنه أجرة على إرضاع ولدها { وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [الأنعام : 37] هو داخل تحت علمها أي لتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون انه حق فيرتابون ، ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى فجزعت.

جزء : 3 رقم الصفحة : 332

{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ } [يوسف : 22] بلغ موسى نهاية القوة وتمام العقل وهو جمع شدة كنعمة وأنعم عند سيبويه { وَاسْتَوَى } واعتدل وتم استحكامه وهو أربعون سنة.

ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة { حُكْمًا وَعِلْمًا } [يوسف : 22] نبوة { وَعِلْمًا } فقهاً أو علماً بمصالح الدارين { وَكَذَالِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ } [الأنعام : 84] أي كما فعلنا بموسى وأمه نفعل بالمؤمنين.

قال الزجاج : جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان لأنهما يؤديان إلى الجنة التي هي جزاء المحسنين ، والعالم الحكيم من يعمل بعلمه لأنه تعالى قال : { وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [البقرة : 102].

فجعلهم جهالاً إذ لم يعملوا بالعلم { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ } [القصص : 15] أي مصر { عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا } [القصص : 15] حال من الفاعل أي مختفياً وهو ما بين العشاءين أو وقت القائلة يعني انتصاف النهار.

وقيل : لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل المدينة إلا على تغفل { فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَاذَا مِن شِيعَتِهِ } [القصص : 15] ممن شايعه على دينه من بني إسرائيل.

قيل : هو السامري ، وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره { وَهَاذَا مِنْ عَدُوِّهِ } [القصص : 15] من مخالفيه من القبط وهو قانون ، وقيل : فيهما هذا وهذا وإن كانا غائبين على جهة الحكاية أي إذا نظر إليهما الناظر قال :

332

هذا من شيعته وهذا من عدوه { فَاسْتَغَاثَهُ } فاستنصره { الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى } [القصص : 15] ضربه بجمع كفه أو بأطراف أصابعه { فَقَضَى عَلَيْهِ } [القصص : 15] فقتله { قَالَ هَاذَا } [الأنعام : 76] إشارة إلى القتل الحاصل بغير قصد { مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ } [القصص : 15] وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلماً لنفسه واستغفر منه لأنه كان مستأمناً فيهم ولا يحل قتل الكافر الحربي المستأمن ، أو لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل ، وعن ابن جريج : ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر { إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ } [القصص : 15] ظاهر العداوة

{ قَالَ رَبِّ } [آل عمران : 41] يا رب { إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى } [القصص : 16] بفعل صار قتلاً { فَاغْفِرْ لِى } [القصص : 16] زلتي { فَغَفَرَ لَهُا } [القصص : 16] زلته { إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ } [يوسف : 98] بإقالة الزلل { الرَّحِيمُ } بإزالة الخجل { قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا } [القصص : 17] معيناً { لِّلْمُجْرِمِينَ } للكافرين وبما أنعمت على قسم جوابه محذوف تقديره أقسم بإنعامك علي بالمغفرة لأتوبن فلن أكون ظهيراً للمجرمين ، أو استعطاف كأنه قال : رب اعصمني بحق ما أنعمت علي من المغفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين ، وأراد بمظاهرة المجرمين صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد.

{ فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَآ ئِفًا } [القصص : 18] على نفسه من قتله القبطي أن يؤخذ به { يَتَرَقَّبُ } حال أي يتوقع المكروه وهو الاستقادة منه أو الأخبار أو ما يقال فيه ، وقال ابن عطاء : خائفاً على نفسه يترقب نصرة ربه.

وفيه دليل على أنه لا بأس بالخوف من دون الله بخلاف ما يقوله بعض الناس أنه لا يسوغ الخوف من دون الله { فَإِذَا الَّذِى } [القصص : 18] إذا للمفاجأة وما بعدها مبتدأ { اسْتَنْصَرَهُ } أي موسى { بِالامْسِ يَسْتَصْرِخُهُ } [القصص : 18] يستغيثه والمعنى أن الإسرائيلي الذي خلصه موسى استغاث به ثانياً من قبطي آخر { قَالَ لَهُ مُوسَى } [القصص : 18] أي للإسرائيلي { إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ } [القصص : 18] أي ضال عن الرشد ظاهر الغي فقد قاتلت بالأمس رجلاً فقتلته بسببك ، والرشد في التدبير أن لا يفعل فعلاً يفضي إلى البلاء على نفسه وعلى من يريد نصرته.

333

جزء : 3 رقم الصفحة : 333

{ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ } [القصص : 19] موسى { أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى } [القصص : 19] بالقبطي الذي { هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا } [القصص : 19] لموسى والإسرائيلي لأنه ليس على دينهما ، أو لأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل { قَالَ } الإسرائيلي لموسى عليه السلام وقد توهم أنه أراد أخذه لا أخد القبطي إذ قال له إنك لغوي مبين { يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسَا } [القصص : 19] يعني القبطي { بِالامْسِ إِن تُرِيدُ } [القصص : 19] ما تريد { إِلا أَن تَكُونَ جَبَّارًا } [القصص : 19] أي قتالاً بالغضب { فِى الارْضِ } [السجدة : 10] أرض مصر { وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ } [القصص : 19] في كظم الغيظ ، وكان قتل القبطي بالأمس قد شاع ولكن خفي قاتله ، فلما أفشى على موسى عليه السلام علم القبطي أن قاتله موسى فأخبر فرعون فهموا بقتله.

{ فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَآ ئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنْصَرَهُ بِالامْسِ يَسْتَصْرِخُهُا قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ } هو مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون { يَسْعَى } صفة لرجل أو حال من رجل لأنه وصف بقوله من أقصى المدينة { قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلا يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ } أي يأمر بعضهم بعضاً بقتلك أو يتشاورون بسببك ، والائتمار : التشاور.

يقال الرجلان يتامران ويأتمران لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر { فَاخْرُجْ } من المدينة { إِنّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ } [القصص : 20] لك بيان وليس بصلة الناصحين لأن الصلة لا تتقدم على الموصول كأنه قال : إني من الناصحين ، ثم أراد أن يبين فقال : لك كما يقال سقياً لك ومرحباً لك { فَخَرَجَ } موسى { مِّنْهَا } من المدينة { خَآ ئِفًا يَتَرَقَّبُ } [القصص : 18] التعرض له في الطريق أو أن يلحقه من يقتله { قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [القصص : 21] أي قوم فرعون.

جزء : 3 رقم الصفحة : 334

{ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ } [القصص : 22] نحوها ، والتوجه الإقبال على الشيء ، ومدين قرية

شعيب عليه السلام سميت بمدين بن إبراهيم ولم تكن في سلطان فرعون ، وبينما وبين مصر مسيرة ثمانية أيام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : خرج ولم يكن له علم

334

بالطريق إلا حسن الظن بربه { قَالَ عَسَى رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ السَّبِيلِ } [القصص : 22] أي وسطه ومعظم نهجه فجاءه ملك فانطلق به إلى مدين

جزء : 3 رقم الصفحة : 334

(185/3)

{ وَلَمَّا وَرَدَ } [القصص : 23] وصل { مَآءَ مَدْيَنَ } [القصص : 23] ماءهم الذي يسقون منه وكان بئراً { وَجَدَ عَلَيْهِ } [القصص : 23] على جانب البئر { أُمَّةً } جماعة كثيرة { مِّنَ النَّاسِ } [المائدة : 67] من أناس مختلفين { يَسْقُونَ } مواشيهم { وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ } [القصص : 23] في مكان أسفل من مكانهم { امْرَأَتَيِنِ تَذُودَانِ } [القصص : 23] تطردان غنمهما عن الماء لأن على الماء من هو أقوى منهما فلا تتمكنان من السقي أو لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم ، والذود الطرد والدفع { قَالَ مَا خَطْبُكُمَا } [القصص : 23] ما شأنكما وحقيقته ما مخطوبكما أي ما مطلوبكما من الذياد فسمي المخطوب خطباً { قَالَتَا لا نَسْقِى } [القصص : 23] غنمنا { حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَآءُ } [القصص : 23] مواشيهم يصدر شامي ويزيد وأبو عمرو أي يرجع والرعاء جمع راعٍ كقائم وقيام { وَأَبُونَا شَيْخٌ } [القصص : 23] لا يمكنه سقي الأغنام { كَبِيرٌ } في حاله أو في السن لا يقدر على رعي الغنم ، أبدتا إليه عذرهما في توليهما السقي بأنفسهما.

{ فَسَقَى لَهُمَا } [القصص : 24] فسقى غنمهما لأجلهما رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف.

روي أنه نحى القوم عن رأس البئر وسألهم دلواً فأعطوه دلوهم وقالوا : استق بها وكانت لا ينزعها إلا أربعون فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا بالبركة.

وترك المفعول في يسقون و تذودان و لا نسقى و فسقى لأن الغرض هو الفعل لا المفعول ، ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد وهم على السقي ، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلاً ، وكذا في لا نسقى و فسقى فالمقصود هو السقي لا المسقى.

ووجه مطابقة جوابها سؤاله أنه سألهما عن سبب الذود فقالتا : السبب في ذلك أنا امرأتان مستورتان ضعيفتان لا نقدر على مزاحمة الرجال ونستحي من الاختلاط بهم فلا بدلنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا.

وإنما رضي شعيب عليه السلام لابنتيه بسقي الماشية لأن هذا الأمر في نفسه ليس بمحظور والدين

لا
335
يأباه ، وأما المروءة فعادات الناس في ذلك متباينة وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة.
جزء : 3 رقم الصفحة : 335
{ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ } [القصص : 24] أي ظل سمرة ، وفيه دليل جواز الاستراحة في الدنيا بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة ولما طال البلاء عليه أنس بالشكوى إذ لا نقص في الشكوى إلى المولى { فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ } [القصص : 24] لأي شيء { أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ } [القصص : 24] قليل أو كثير غثٍ أو سمين { فَقِيرٌ } محتاج ، وعدي فقير باللام لأنه ضمن معنى سائل وطالب.
قيل : كان لم يذق طعاماً سبعة أيام وقد لصق بظهره بطنه.
ويحتمل أن يريد أني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلي من خير الدارين وهو النجاة من الظالمين لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة ، قال ذلك رضاً بالبدل السني وفرحاً به وشكراً له.
وقال ابن عطاء : نظر من العبودية إلى الربوبية وتكلم بلسان الافتقار لما ورد على سره من الأنوار
جزء : 3 رقم الصفحة : 335
{ لَنَآ } على استحياء في موضع الحال أي مستحية ، وهذا دليل كمال إيمانها وشرف عنصرها لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها ولم تعلم أيجيبها أم لا ، فأتته مستحية قد استترت بكم درعها ، و " ما " في ما سقيت مصدرية أي جزاء سقيك.
روي أنهما ما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حفّل قال لهما : ما أعجلكما؟ قالتا : وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا.
فقال لإحداهما : اذهبي فادعيه لي فتبعها موسى عليه السلام فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها : امشي خلفي وانعتي لي الطريق { فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ } [القصص : 25] أي قصته وأحواله مع فرعون ، والقصص مصدر كالعلل سمي به المقصوص { قَالَ } له { لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [القصص : 25] إذ لا سلطان لفرعون بأرضنا ، وفيه دليل جواز العمل بخبر الواحد ولو عبداً أو أنثى والمشي مع الأجنبية مع ذلك الاحتياط والتورع.
وأما أخذ الأجر على البر والمعروف
336

فقيل : إنه لا بأس به عند الحاجة كما كان لموسى عليه السلام ، على أنه روي أنها لما قالت ليجزيك كره ذلك وإنما أجابها لئلا يخيب قصدها لأن للقاصد حرمة.
ولما وضع شعيب الطعام بين يديه امتنع فقال شعيب : ألست جائعاً؟ قال : بلى ولكن أخاف أن يكون عوضاً مما سقيت لهما وإنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا ولا نأخذ على المعروف ثمناً.
فقال شعيب عليه السلام : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فأكل.
جزء : 3 رقم الصفحة : 336
{ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ } [القصص : 26] اتخذه أجيراً لرعي الغنم.
روي أن كبراهما كانت تسمى صفراء والصغرى صفيراء ، وصفراء هي التي ذهبت به وطلبت إلى أبيها أن يستأجره وهي التي تزوجها { إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِىُّ الامِينُ } [القصص : 26] فقال : وما علمك بقوته وأمانته؟ فذكرت نزع الدلو وأمرها بالمشي خلفه.
وورد الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أن أمانته وقوته أمران متحققان.
وقولها إن خير من استأجرت القوى الأمين كلام جامع لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك ، وقيل : القوي في دينه الأمين في جوارحه.
وقد استغنت بهذا لكلام الجاري مجرى المثل عن أن تقول استأجره لقوته وأمانته.
وعن ابن مسعود رضي الله عنه : أفرس الناس ثلاث : بنت شعيب وصاحب يوسف في قوله { عَسَى أَن يَنفَعَنَآ } [يوسف : 21].
وأبو بكر في عمر.
{ قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ } [القصص : 27] أزوجك { إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ } [القصص : 27] قوله هاتين يدل على أنه كان له غيرها وهذه مواعدة منه ولم يكن ذلك عقد نكاح إذ لو كان عقداً لقال قد أنكحتك { عَلَى أَن تَأْجُرَنِى } [القصص : 27] تكون أجيراً لي من أجرته إذا كنت له أجيراً { ثَمَانِىَ حِجَجٍ } [القصص : 27] ظرف والحجة السنة وجمعها حجج والتزوج على رعي الغنم جائز بالإجماع لأنه من باب القيام بأمر الزوجية فلا مناقضة بخلاف التزوج على الخدمة { فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا } [القصص : 27] أي عمل عشر حجج { فَمِنْ عِندِكَ } [القصص : 27] فذلك تفضل منك ليس بواجبة عليك ، أو فإتمامه من عندك ولا أحتمه عليك ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع { وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ } [القصص : 27] بإلزام أتم الأجلين ، وحقيقة قولهم : شققت
337
عليه وشق عليه الأمر أن الأمر إذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين تقول تارة أطيقه وطوراً لا أطيقه { سَتَجِدُنِى إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّـالِحِينَ } [القصص : 27] في حسن المعاملة والوفاء بالعهد ، ويجوز أن يراد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة.
والمراد باشتراطه مشيئة الله فيما وعد من الصلاح الاتكال على توفيقه فيه ومعونته لأنه إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ذلك

جزء : 3 رقم الصفحة : 337
{ قَالَ } موسى { ذَالِكَ } مبتدأ وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب والخبر { بَيْنِى وَبَيْنَكَ } [القصص : 28] يعني ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم بيننا جميعاً لا يخرج كلانا عنه ، لا أنا فيما شرطت علي ولا أنت فيما شرطت على نفسك.
ثم قال { أَيَّمَا الاجَلَيْنِ قَضَيْتُ } [القصص : 28] أي أي أجل قضيت من الأجلين يعني العشرة أو الثمانية.
و أي نصب بـ قضيت و " ما " زائدة ومؤكدة لإبهام أي وهي شرطية وجوابها { فَلا عُدْوَانَ عَلَىَّ } [القصص : 28] أي لا يعتدى علي في طلب الزيادة عليه ، قال المبرد : قد علم أنه لا عدوان عليه في أيهما ولكن جمعهما ليجعل الأقل كالأتم في الوفاء ، وكما أن طلب الزيادة على الأتم عدوان فكذا طلب الزيادة على الأقل { وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } [القصص : 28] هو من وكل إليه الأمر ، وعدي بـ " على " لأنه استعمل في موضع الشاهد والرقيب.

(187/3)

روي أن شعيباً كانت عنده عصيّ الأنبياء عليهم السلام فقال لموسى بالليل : أدخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ، ولم يزل الأنبياء عليهم السلام يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب فمسها وكان مكفوفاً فضن بها فقال : خذ غيرهما فما وقع في يده إلا هي سبع مرات فعلم أن له شأناً.
ولما أصبح قال له شعيب : إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فإن الكلأ وإن كان بها أكثر إلا أن فيها تنيناً أخشاه عليك وعلى الغنم ، فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها فمشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله فنام فإذا التنين
338
قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى دامية ، فلما أبصرها دامية والتنين مقتولاً ارتاح لذلك.
ولما رجع إلى شعيب مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأناً وقال له : إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كل أدرع ودرعاء فأوحي إليه في المنام أن أضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فوضعت كلهن أدرع ودرعاء فوفى له بشرطه.
جزء : 3 رقم الصفحة : 338
{ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الاجَلَ } [القصص : 29] قال عليه السلام " قضى أوفاهما وتزوج صغراهما "

وهذا بخلاف الرواية التي مرت { وَسَارَ بِأَهْلِهِ } [القصص : 29] بامرأته نحو مصر.
قال ابن عطاء : لما تم أجل المحنة ودنا أيام الزلفة وظهرت أنوار النبوة سار بأهله ليشتركوا معه في لطائف صنع ربه { فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الاجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لاهْلِهِ امْكُثُوا إِنّى } [القصص : 29] عن الطريق لأنه قد ضل الطريق { فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِىَ مِن شَاطِىِ الْوَادِ الايْمَنِ } بالنسبة إلى موسى { فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ } [القصص : 30] بتكليم الله تعالى فيها { مِنَ الشَّجَرَةِ } [القصص : 30] العناب أو العوسج { بِاَالِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ } [الصافات : 104-9] " أن " مفسرة أو مخففة من الثقيلة { إِنّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [القصص : 30] قال جعفر : أبصر ناراً دلته على الأنوار لأنه رأى النور في هيئة النار ، فلما دنا منها شملته أنوار القدس وأحاطت به جلابيب الأنس فخوطب بألطف خطاب واستدعى منه أحسن جواب فصار بذلك مكلماً شريفاً أعطى ما سأل وأمن مما خاف ، والجذوة باللغات الثلاث وقريء بهن ، فعاصم بفتح الجيم ، وحمزة وخلف بضمها ، وغيرهم بكسرها.
العود الغليظ كانت في رأسه نار أو لم تكن ، و " من " الأولى والثانية لابتداء الغاية أي أتاه النداء من شاطيء الوادي من قبل الشجرة.
و من الشجرة بدل من
339
شاطىء الواد بدل الاشتمال لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء أي الجانب
جزء : 3 رقم الصفحة : 339
{ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ } [القصص : 31] ونودي أن ألق عصاك فألقاها فقلبها الله ثعباناً { فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ } [النمل : 10] تتحرك { كَأَنَّهَا جَآنٌّ } [النمل : 10] حية في سعيها وهي ثعبان في جثتها { وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ } [النمل : 10] يرجع فقيل له { يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الامِنِينَ } [القصص : 31] أي أمنت من أن ينالك مكروه من الحية { اسْلُكْ } أدخل { يَدَكَ فِى جَيْبِكَ } [النمل : 12] جيب قميصك { تَخْرُجْ بَيْضَآءَ } [طه : 22] لها شعاع كشعاع الشمس { مِنْ غَيْرِ سُواءٍ } [طه : 22] برص.

(188/3)

{ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ } [القصص : 32] حجازي بفتحتين وبصري.
الرّهب حفص الرّهب غيرهم ومعنى الكل الخوف والمعنى : واضمم يدك إلى صدرك يذهب ما بك من فرق لأجل الحية.
عن ابن عباس رضي الله عنهما : كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه.

وقيل : معنى ضم الجناح أن الله تعالى لما قلب العصا حية فزع موسى واتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء فقيل له : إن اتقاءك بيدك غضاضة عند الأعداء فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتناب ما هو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخرى.

والمراد بالجناح اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر ، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه ، أو أريد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب ، استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران.

ومعنى من الرهب من أجل الرهب أي إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك ، جعل الرهب الذي كان يصيبه سبباً وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه.

ومعنى واضمم إليك جناحك واسلك يدك في جيبك على أحد التفسيرين واحد ولكن خولف بين العبارتين لاختلاف الغرضين إذ الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء ، وفي الثاني إخفاء الرهب.

ومعنى

340

{ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ } [طه : 22] في " طه " أدخل يمناك تحت يسراك { فَذَانِكَ } مخففاً مثنى " ذاك " ومشدداً : مكي وأبو عمرو مثنى ذلك فإحدى النونين عوض من اللام المحذوفة والمراد اليد والعصا حجتان نيرتان بينتان وسميت الحجة برهاناً لإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء برهرهة { مِنْ غَيْرِ سُواءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ } [القصص : 32] أي أرسلناك إلى فرعون وملئه بهاتين الايتين { إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } [النمل : 12] كافرين.

جزء : 3 رقم الصفحة : 340

{ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ } [القصص : 33] به بغير يا ء وبالياء : يعقوب { وَأَخِى هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ } [القصص : 34] حفص { رِدْءًا } حال أي عونا يقال ردأته أعنته ، وبلا همز : مدني { يُصَدِّقُنِى } عاصم وحمزة صفة أي ردأ مصدقاً لي ، وغيرهما بالجزم جواب لـ أرسله ومعنى تصديقه موسى إعانته إياه بزيادة البيان في مظان الجدال إن احتاج إليه ليثبت دعواه لا أن يقول له صدقت ، ألا ترى إلى قوله هو أفصح مني لساناً فأرسله وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لتقرير البرهان لا لقوله صدقت فسحبان وباقل فيه يستويان { إِنِّى أَخَافُ أَن } .

يكذبوني في الحالين : يعقوب { يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ } [القصص : 35] سنقويك به إذ اليد تشد بشدة العضد لأنه قوام اليد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور { وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا } [القصص : 35] غلبة وتسلطاً وهيبة في قلوب الأعداء { فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِاَايَاتِنَآ } [القصص : 35] الباء تعلق بـ يصلون أي لا يصلون إليكما بسبب آياتنا وتم الكلام ، أو بـ نجعل

لكما سلطاناً أي نسلطكما بآياتنا أو بمحذوف أي إذهبا بآياتنا ، أو هو بيان لـ الغالبون لا صلة ، أو قسم جوابه لا يصلون مقدماً عليه { أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ } [القصص : 35]

341

جزء : 3 رقم الصفحة : 341

(189/3)

فلمّا جاءهم مّوسى بآياتنا بيّناتٍ } واضحات { قَالُوا مَا هَاذَآ إِلا سِحْرٌ مُّفْتَرًى } [القصص : 36] أي سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله ، أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله { وَمَا سَمِعْنَا بِهَاذَا فِى ءَابَآ ئِنَا الاوَّلِينَ } [القصص : 36] حال منصوبة عن هذا أي كائناً في زمانهم يعني ما حدثنا بكونه فيهم { وَقَالَ مُوسَى رَبّى أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } [القصص : 37] أي ربي أعلم منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم حيث جعله نبياً وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبى يعني نفسه ، ولو كان كما تزعمون ساحراً مفترياً لما أهله لذلك لأنه غني حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينبيء الساحرين ولا يفلح عنده الظالمون.

وعاقبة الدار هي العاقبة المحمودة لقوله تعالى : { أُولئك لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ } .

والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقي الملائكة بالبشرى والغفران.

قال موسى بغير واو : مكي وهو حسن لأن الموضع موضع سؤال وبحث عما أجابهم موسى عند تسميتهم مثل تلك الآيات العظام سحراً مفترى ، ووجه الأخرى أنهم قالوا ذلك وقال موسى هذا ليوازن الناظر بين القول والمقول ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر.

ربي أعلم حجازي وأبو عمرو ومن يكون حمزة وعلي.

جزء : 3 رقم الصفحة : 342

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلا مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَاهٍ غَيْرِى } [القصص : 38] قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده أي ما لكم من إله غيري أو هو على ظاهره وأن إلهاً غيره غير معلوم عنده { فَأَوْقِدْ لِى يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ } أي اطبخ لي الاجر واتخذه.

وإنما لم يقل مكان الطين هذا لأنه أول من عمل الاجر فهو يعلمه الصنعة بهذه العبارة ، ولأنه

342

أفصح وأشبه بكلام الجبابرة إذ أمر هامان وهو وزيره بالإيقاد على الطين منادى باسمه بـ " يا " في وسط الكلام دليل التعظيم والتجبر { فَاجْعَل لّى صَرْحًا } [القصص : 38] قصراً عالياً { لَّعَلّى أَطَّلِعُ } [القصص : 38] أي أصعد والاطلاع الصعود { إِلَى إِلَاهِ مُوسَى } [القصص : 38] حسب أنه

تعالى في مكان كما كان هو في مكان { وَإِنّى لاظُنُّهُ } [غافر : 37] أي موسى { مِنَ الْكَاذِبِينَ } [الأعراف : 66] في دعواه أن له إلهاً وأنه أرسله إلينا رسولاً.

وقد تناقض المخذول فإنه قال { مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـاهٍ غَيْرِى } [القصص : 38] ثم أظهر حاجته إلى هامان ، وأثبت لموسى إلهاً وأخبر أنه غير متيقن بكذبه وكأنه تحصن من عصا موسى عليه السلام فلبّس وقال لعلى أطلع إلى إله موسى روي أن هامان جمع خمسين ألف بناء وبنى صرحاً لم يبلغه بناء أحد من الخلق ، فضرب الصرح جبريل عليه السلام بجناحه فقطعه ثلاث قطع ، وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل ، وقطعة في البحر ، وقطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا هلك

جزء : 3 رقم الصفحة : 342

{ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ } [القصص : 39] تعظم { فِى الارْضِ } [السجدة : 10] أرض مصر { بِغَيْرِ الْحَقِّ } [الشورى : 42] أي بالباطل ، فالاستكبار بالحق لله تعالى وهو المتكبر على الحقيقة أي المتبالغ في كبرياء الشأن كما حكى رسولنا عن ربه : " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار " .

وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ } [القصص : 39] يرجعون نافع وحمزة وعلي وخلف ويعقوب { فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ } [القصص : 40] من الكلام المفخم الذي دل به على عظمة شأنه شبههم استقلالاً لعددهم وإن كانوا الجم الغفير بحصيات أخذهن اخذ بكفه فطرحهن في البحر { فَانظُرْ } يا محمد { كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } [يونس : 39] وحذر قومك فإنك منصور عليهم.

{ وَجَعَلْنَاهُمْ أَاِمَّةً } [القصص : 41] قادة { يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } [البقرة : 221] أي عمل أهل النار.

قال ابن عطاء : نزع عن أسرارهم التوفيق وأنوار التحقيق فهم في ظلمات نفوسهم لا

343

(190/3)

يدلون على سبيل الرشاد.

وفيه دلالة خلق أفعال العباد { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ } [القصص : 41] من العذاب

جزء : 3 رقم الصفحة : 343

{ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِى هَاذِهِ } ألزمناهم طرداً وإبعاداً عن الرحمة.

وقيل : هو ما يلحقهم من لعن الناس إياهم بعدهم { لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ } [القصص : 42] المطرودين المبعدين أو المهلكين المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون ويوم ظرف لـ

المقبوحين { وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } [هود : 110] التوراة { مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الاولَى } [القصص : 43] قوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام { بَصَآ ئِرَ لِلنَّاسِ } [القصص : 43] حال من { الْكِتَابُ } والبصيرة نور القلب الذي يبصر به الرشد والسعادة كما أن البصر نور العين الذي يبصر به الأجساد.

يريد اتيناه التوراة أنواراً للقلوب لأنها كانت عمياء لا تستبصر ولا تعرف حقاً من باطل { وَهُدًى } وإرشاداً لأنهم كانوا يخبطون في ضلال { وَرَحْمَةً } لمن اتبعها لأنهم إذا عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة { لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [البقرة : 221] يتعظون.

جزء : 3 رقم الصفحة : 344

{ وَمَا كُنتَ } [القصص : 46] يا محمد { بِجَانِبِ } الجبل { الْغَرْبِيّ } وهو المكان الواقع في شق الغرب وهو الذي وقع فيه ميقات موسى { إِذْ قَضَيْنَآ إِلَى مُوسَى الامْرَ } [القصص : 44] أي كلمناه وقربناه نجياً { وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ } [القصص : 44] من جملة الشاهدين للوحي إليه حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى في ميقاته { وَلَاكِنَّآ أَنشَأْنَا } [القصص : 45] بعد موسى { قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ } [القصص : 45] أي طالت أعمارهم وفترت النبوة وكادت الأخبار تخفى واندرست العلوم ووقع التحريف في كثير منها ، فأرسلناك مجدداً لتلك الأخبار مبيناً ما وقع فيه التحريف ، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى كأنه قال : وما كنت شاهداً لموسى وما جرى

344

عليه ولكنا أوحيناه إليك ، فذكر سبب الوحي هو إطالة الفترة ودل به على المسبب اختصاراً فإذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده { وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا } [القصص : 45] مقيماً { فِى أَهْلِ مَدْيَنَ } [القصص : 45] وهم شعيب والمؤمنون به { تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا } تقرؤها عليهم تعلماً منهم يريد الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه.

و { تَتْلُوا } في موضع نصب خبر ثانٍ أو حال من الضمير في ثاويا { وَلَاكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ } [القصص : 45] ولكنا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمناكها

جزء : 3 رقم الصفحة : 344

{ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا } [القصص : 46] موسى أن خذ الكتاب بقوة { وَلَاكِنَّ } أعلمناك وأرسلناك { رَحْمَةً } للرحمة { مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ } [القصص : 46] في زمان الفترة بينك وبين عيسى وهو خمسمائة وخمسون سنة { لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [البقرة : 221] {

وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُ } [آل عمران : 110-47] عقوبة { بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } [الروم : 36] من الكفر والظلم.

ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي نسبت الأعمال إلى الأيدي وإن كانت من أعمال القلوب تغليباً للأكثر على الأقل عند العذاب { رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [القصص : 47] " لولا " الأولى امتناعية وجوابها محذوف ، والثانية تحضيضية ، والفاء الأولى للعطف والثانية جواب " لولا " لكونها في حكم الأمر إذ الأمر باعث على الفعل والباعث والمحضض من وادٍ واحد ، والفاء تدخل في جواب الأمر والمعنى : ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصي هلا أرسلت إلينا رسولاً محتجين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم يعني أن إرسال الرسول إنما هو ليلزموا الحجة ولا يلزموها كقوله : { لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةُ بَعْدَ الرُّسُلِ } [النساء : 165].

فإن قلت : كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول لدخول " لولا " الامتناعية عليها دونه؟ قلت : القول هو المقصود بأن يكون سبباً للإرسال ولكن العقوبة لما كانت سبباً للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال فأدخلت عليها " لولا " وجيء بالقول

345

معطوفاً عليها بالفاء المعطية معنى السببية ، ويؤول معناه إلى قولك : ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا.

جزء : 3 رقم الصفحة : 345

{ فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا } [يونس : 76] أي القرآن أو الرسول المصدق بالكتاب المعجز { قَالُوا } أي كفار مكة { لَوْلا أُوتِىَ } [القصص : 48] هلا أعطي { مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَى } [القصص : 48] من الكتاب المنزل جملة واحدة { أَوَلَمْ يَكْفُرُوا } يعني أبناء جنسهم ومن مذهبهم مذهبهم وعنادهم عنادهم وهم الكفرة في زمن موسى عليه السلام { بِمَآ أُوتِىَ مُوسَى مِن قَبْلُ } [القصص : 48] من قبل القرآن { قَالُوا } في موسى وهارون { وَإِن تَظَاهَرَا } (ساحران تظاهرا) تعاونا { سِحْرَانِ } كوفي أي ذوا سحر أو جعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما { وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ } [القصص : 48] بكل واحد منهما { كَافِرُونَ } وقيل : إن أهل مكة كما كفروا بمحمد عليه السلام وبالقرآن فقد كفروا بموسى والتوراة وقالوا في موسى ومحمد.

ساحران تظاهرا ، أو في التوراة والقرآن سحران تظاهرا ، وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد فأخبروهم أنه في كتابهم فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود فقالوا عند ذلك : ساحران تظاهرا.

{ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَآ } [القصص : 49] مما أنزل على موسى ومما أنزل على { أَتَّبِعْهُ } جواب فأتوا { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة : 23] في أنهما سحران { فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا

لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ } [القصص : 50] فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى فاعلم أنهم قد ألزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ } [القصص : 50] أي لا أحد أضل ممن اتبع في الدين هواه وبغير هدى حال أي مخذولاً يخلى بينه وبين هواه { إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [المائدة : 51]

346

جزء : 3 رقم الصفحة : 346

(192/3)

ولقد وصّلنا لهم القول لعلّهم يتذكّرون } التوصيل وتكريره يعني أن القرآن أتاهم متتابعاً متواصلاً وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً ومواعظ ليتذكروا فيفلحوا { الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ } [القصص : 52] من قبل القرآن وخبر الذين { هُم بِهِ } [النحل : 100] بالقرآن { يُؤْمِنُونَ } نزلت في مؤمني أهل الكتاب { وَإِذَا يُتْلَى } [القصص : 53] القرآن { عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ } [القصص : 53] من قبل نزول القرآن { مُسْلِمِينَ } كائنين على دين الإسلام ، مؤمنين بمحمد عليه السلام ، وقوله إنه تعليل للإيمان به لأن كونه حقاً من الله حقيق بأن يؤمن به ، وقوله إنا بيان لقوله آمنا لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد وبعيده فأخبروا بأن إيمانهم به متقادم { أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا } [القصص : 54] بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن ، أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله وبعد نزوله ، أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب { وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ } يدفعون بالطاعة المعصية أو بالحلم الأذى { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } [البقرة : 3] يزكون { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ } [القصص : 55] الباطل أو الشتم من المشركين { أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا } [القصص : 55] للاغين { لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ } [القصص : 55] أمان منا لكم بأن نقابل لغوكم بمثله { لا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ } [القصص : 55] لا نريد مخالطتهم وصحبتهم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 347

{ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ } [القصص : 56] لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم { وَلَاكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ } [البقرة : 272] يخلق فعل الاهتداء فيمن يشاء { وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [الأنعام : 117] بمن يختار الهداية ويقبلها ويتعظ بالدلائل والآيات.

قال الزجاج : أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب ، وذلك أنه قال عند موته : يا معشر بني هاشم صدقوا محمداً تفلحوا.

فقال عليه السلام : يا عم تأمرهم

بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك.
قال : فما تريد ابن أخي؟ قال : أريد منك أن تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله ، قال : يا ابن أخي أنا قد علمت أنك صادق ولكني أكره أن يقال جزع عند الموت.
وإن كانت الصيغة عامة ، والآية حجة على المعتزلة لأنهم يقولون الهدى هو البيان وقد هدى الناس أجمع ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم فدل أن وراء البيان ما يسمى هداية وهو خلق الاهتداء وإعطاء التوفيق والقدرة
جزء : 3 رقم الصفحة : 347
{ مَنْ } قالت قريش : نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك أن يتخطفونا من أرضنا ، فألقمهم الله الحجر بأنه مكن لهم في الحرم الذي أمنه بحرمة البيت وأمن قطانه بحرمته ، والثمرات تجبى إليه من كل أوب وهم كفرة ، فأنّى يستقيم أن يعرضهم للتخطف ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام؟ وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة وإلى الحرم مجاز { يُجْبَى إِلَيْهِ } [القصص : 57] وبالتاء : مدني ويعقوب وسهل أي يجلب ويجمع { ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ } [القصص : 57] معنى الكلية الكثرة كقوله { وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ } [النمل : 23] { رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا } [القصص : 57] هو مصدر لأن معنى يجبي إليه يرزق أو مفعول له أو حال من الثمرات إن كان بمعنى مرزوق لتخصصها بالإضافة كما تنصب عن النكرة المتخصصة بالصفة { وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [الأنعام : 37] متعلق بـ من لدنا أي قليل منهم يقرون بأن ذلك رزق من عند الله وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ، ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ولما خافوا التخطف إذا آمنوا.
{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَة بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا } [القصص : 58] هذا تخويف لأهل مكة من

(193/3)

سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم بإنعام الله عليهم فلم يشكروا النعمة وقابلوها بالبطر فأهلكوا.
و كم نصب بـ أهلكنا ومعيشتها بحذف الجار وإيصال الفعل أي في معيشتها ، والبطر سوء احتمال الغني وهو أن لا يحفظ حق الله فيه { فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ } [القصص : 58] منازلهم باقية الآثار يشاهدونها في الأسفار كبلاد ثمود وقوم شعيب وغيرهم { لَمْ تُسْكَن } [القصص : 58] حال والعامل فيها الإشارة { مِّن بَعْدِهِمْ إِلا قَلِيلا } [القصص : 58] من السكنى أي لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يوماً أو ساعة { وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ } [القصص : 58] لتلك المساكن من ساكنيها أي لا

يملك التصرف فيها غيرنا

جزء : 3 رقم الصفحة : 348

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى } [القصص : 59] في كل وقت { حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا } [القصص : 59] وبكسر الهمزة : حمزة وعلي أي في القرية التي هي أمها أي أصلها ومعظمها { رَسُولا } لإلزام الحجة وقطع المعذرة أو وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أم القرى يعني مكة لأن الأرض دحيت من تحتها رسولاً ، يعني محمداً عليه السلام { يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءايَاتِهِ } أي القرآن { وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَى إلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } [القصص : 59] أي وما أهلكناهم للانتقام إلا وأهلها مستحقون العذاب بظلمهم وهو إصرارهم على كفرهم وعنادهم ومكابرتهم بعد الاعذار إليهم { وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَواةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا } [القصص : 60] وأي شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أياماً قلائل وهي مدة الحياة الفانية { وَمَا عِندَ اللَّهِ } [النحل : 96] وهو ثوابه { خَيْرٍ } في نفسه من ذلك { وَأَبْقَى } لأنه دائم { أَفَلا تَعْقِلُونَ } [البقرة : 44] أن الباقي خير من الفاني.

وخيّر أبو عمرو بين الياء والتاء والباقون بالتاء لا غير.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما.

إن الله تعالى خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف : المؤمن والمنافق والكافر.

فالمؤمن يتزود ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع.

ثم قرر هذه الآية بقوله :

{ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا } [القصص : 61] أي الجنة فلا شيء أحسن منها لأنها دائمة ولذا سميت الجنة بالحسنى { فَهُوَ لَاقِيهِ } [القصص : 61] أي رائيه ومدركه ومصيبه

349

{ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَواةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } [القصص : 61] من الذين أحضروا النار ونحوه فكذبوه فإنهم لمحضرون.

نزلت في رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأبي جهل لعنه الله ، أو في علي وحمزة وأبي جهل ، أو في المؤمن والكافر ، ومعنى الفاء الأولى أنه لما ذكر التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله عقبه بقوله أفمن وعدناه أي أبعد هذا التفاوت الجلي يسوي بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة ، والفاء الثانية للتسبيب لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد.

و " ثم " لتراخي حال الإحضار عن حال التمتع ثم هو عليّ كما قيل عضدّ في عضد شبه المنفصل بالمتصل

جزء : 3 رقم الصفحة : 349

{ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ } [فصلت : 47] ينادي الله الكفار نداء توبيخ وهو عطف على { يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [القيامة : 6] أو منصوب بـ " ذكر " { فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ } [القصص : 62] بناء على زعمهم { الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ } [الأنعام : 22] ومفعولا تزعمون محذوفان تقديره : كنتم تزعمونهم شركائي ، ويجوز حذف المفعولين في باب ظننت ولا يجوز الاقتصار على أحدهما { قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ } [القصص : 63] أي الشياطين أو أئمة الكفر.

ومعنى حق عليهم القول وجب عليه مقتضاه وثبت وهو قوله : { لاَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [هود : 119] { رَبَّنَا هؤلاء } [الأعراف : 38] مبتدأ { الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ } [القصص : 63] أي دعوناهم إلى الشرك وسولنا لهم الغي صفة والراجع إلى الموصول محذوف والخبر { أَغْوَيْنَاهُمْ } والكاف في { كَمَا غَوَيْنَا } [القصص : 63] صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم فغووا غياً مثل ما غوينا يعنون أنا لم نغو إلا باختيارنا فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً فلا فرق إذاً بين غينا وغيهم ، وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب وهو كقوله { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِىَ الامْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ } [إبراهيم : 22] إلى قوله { وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ } [إبراهيم : 22] { تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ } [القصص : 63] منهم ومما اختاروه من الكفر { مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ } [القصص : 63] بل يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم ، وإخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقررتين لمعنى الجملة الأولى.

{ وَقِيلَ } للمشركين { ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ } [الأعراف : 195] أي الأصنام لتخلصكم من العذاب { فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ } [الكهف : 52] فلم يجيبوهم { وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } [القصص : 64] وجواب " لو " محذوف أي لما رأوا العذاب { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ } [القصص : 65] الذين أرسلوا إليكم.

حكى أولاً ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ثم ما يقوله الشياطين أو أئمة الكفر عند توبيخهم ، لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم ، ثم ما يشبه الشماتة بهم لاستغاثتهم آلهتهم وعجزهم عن نصرتهم ، ثم ما يبكون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل { فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الانابَآءُ يَوْمَاذٍ } [القصص : 66] خفيت عليهم الحجج أو الأخبار.

وقيل : خفي عليهم الجواب فلم يدروا بماذا يجيبون إذ لم يكن عندهم جواب { فَهُمْ لا يَتَسَآءَلُونَ } [القصص : 66] لا يسأل بعضهم بعضاً عن العذر والحجة رجاء أن يكون عنده عذر وحجة لأنهم يتساوون في العجز عن الجواب { فَأَمَّا مَن تَابَ } [القصص : 67] من الشرك وءامن بربه وبما جاء

من عنده { وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ } [القصص : 67] أي فعسى أن يفلح عند الله.

و " عسى " من الكرام تحقيق ، وفيه بشارة للمسلمين على الإسلام وترغيب للكافرين على الإيمان.

ونزل جواباً لقول الوليد بن المغيرة : { لَوْلا نُزِّلَ هَاذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف : 31].

يعني نفسه أو أبا مسعود.

جزء : 3 رقم الصفحة : 351

{ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ } وفيه دلالة خلق الأفعال ، ويوقف على { يَشَآءُ وَيَخْتَارُ } [القصص : 68] أي وربك يخلق ما يشاء وربك يختار ما يشاء { مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ } [القصص : 68]

351

(195/3)

أي ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً ما وله الخيرة عليهم.

ولم يدخل العاطف في ما كان لهم الخيرة لأنه بيان لقوله ويختار إذ المعنى أن الخيرة لله وهو أعلم بوجوه الحكمة في أفعاله فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه.

ومن وصل على معنى ويختار الذي لهم فيه الخيرة فقد أبعد بل " ما " لنفي اختيار الخلق تقريراً لاختيار الحق ، ومن قال : ومعناه ويختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح فهو مائل إلى الاعتزال.

والخيرة من التخير يستعمل بمعنى المصدر وهو التخير وبمعنى المتخير كقولهم " محمد خيرة الله من خلقه " { سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [القصص : 68] أي الله بريء من إشراكهم وهو منزه عن أن يكون لأحد عليه اختيار

جزء : 3 رقم الصفحة : 351

{ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ } [القصص : 69] تضمر { صُدُورُهُمْ } من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلّم وحسده { وَمَا يُعْلِنُونَ } [البقرة : 77] من مطاعنهم فيه وقولهم هلا اختير عليه غيره في النبوة { وَهُوَ اللَّهُ } [الأنعام : 3] وهو المستأثر بالإلهية المختص بها { لا إِلَاهَ إِلا هُوَ } [البقرة : 255] تقرير لذلك كقولك " القبلة الكعبة لا قبلة إلا هي " .

{ لَهُ الْحَمْدُ فِى الاولَى } [القصص : 70] الدنيا { وَالاخِرَةِ } هو قولهم { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ } [فاطر : 34] { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ } [الزمر : 74] { وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الزمر : 75].

والتحميد ثمة على وجه اللذة لا الكلفة { وَلَهُ الْحُكْمُ } [القصص : 70] القضاء بين عباده { وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ } [البقرة : 245] بالبعث والنشور.

وبفتح التاء وكسر الجيم : يعقوب.

{ قُلْ أَرَءَيْتُمْ } [يونس : 50] أريتم محذوف الهمزة : علي { قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ } [القصص : 71] هو مفعول ثان لـ جعل أي دائماً من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم في الأشهر الحرم " ثلاثة سرد وواحد فرد " والميم مزيدة ووزنه فعمل { إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـاهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ } [القصص : 71] والمعنى أخبروني من يقدر على هذا

352

جزء : 3 رقم الصفحة : 352

{ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـاهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [القصص : 72] ولم يقل بنهار تتصرفون فيه كما قال { بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ } [القصص : 72] بل ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده ، والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثم قرن بالضياء أفلا تسمعون لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل أفلا تبصرون لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه { وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ } [القصص : 73] أي لتسكنوا بالليل ولتبتغوا من فضل الله في النهار فيكون من باب اللف والنشر { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [البقرة : 185] الله على نعمه.

وقال الزجاج : يجوز أن يكون معناه لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من فضل الله فيهما ، ويكون المعنى جعل لكم الزمان ليلاً ونهاراً لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله فيه.

{ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ } [القصص : 62] كرر التوبيخ لاتخاذ الشركاء ليؤذن أن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده { وَنَزَعْنَا } وأخرجنا { مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا } [النحل : 84] يعني نبيهم لأن الأنبياء للأمم شهداء عليهم يشهدون بما كانوا عليه { فَقُلْنَا } للأمم { هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ } [البقرة : 111] فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسل { فَعَلِمُوا } حينئذ { أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ } [القصص : 75] التوحيد { وَضَلَّ عَنْهُم } [فصلت : 48] وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع { مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [آل عمران : 24] من ألوهية غير الله والشفاعة لهم.

353

جزء : 3 رقم الصفحة : 353

{ إِنَّ قَارُونَ } [القصص : 76] لا ينصرف للعجمة والتعريف ولو كان فاعولاً من قرنت الشيء لانصرف { كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى } [القصص : 76] كان إسرائيلياً ابن عم لموسى فهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن قاهث ، وكان يسمى المنور لحسن صورته ، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامري { فَبَغَى عَلَيْهِمْ } [القصص : 76] من البغي وهو الظلم.

قيل : ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم ، أو من البغي الكبر تكبر عليهم بكثرة ماله وولده ، أو زاد عليهم في الثياب شبراً { وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ } [القصص : 76] " ما " بمعنى الذي في موضع نصب بـ اتينا و " إن " واسمها وخبرها صلة الذي ولهذا كسرت " إن " .

والمفاتح جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به أو مفتح بالفتح وهو الخزانة والأصوب أنها المقاليد { إِنَّ قَارُونَ } [القصص : 76] لتثقل العصبة فالباء للتعدية يقال : ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله ، والعصبة الجماعة الكثيرة وكانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلاً لكل خزانة مفتاح ولا يزيد المفتاح على أصبع وكانت من جلود { أُوْلِى الْقُوَّةِ } [القصص : 76] الشدة { إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ } [القصص : 76] أي المؤمنون وقيل : القائل موسى عليه السلام ومحل إذ نصب بـ تنوء { لا تَفْرَحْ } [القصص : 76] لا تبطر بكثرة المال كقوله { وَلا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَاكُمْ } [الحديد : 23] ولا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن ، وأما من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه يتركها عن قريب فلا يفرح بها { إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } [القصص : 76] البطرين بالمال { وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَاكَ اللَّهُ } [القصص : 77] من الغنى والثروة { الدَّارُ الاخِرَةُ } [البقرة : 94] بأن تتصدق على الفقراء وتصل الرحم وتصرف إلى أبواب الخير { وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا } [القصص : 77] وهو أن تأخذ ما يكفيك ويصلحك.

وقيل : معناه واطلب بدنياك آخرتك فإن ذلك حظ المؤمن منها { وَأَحْسِن } إلى عباد الله { كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ } [القصص : 77] أو أحسن بشكرك وطاعتك لخالق الأنام كما أحسن إليك بالإنعام { وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الارْضِ } [القصص : 77] بالظلم والبغي { إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } [القصص : 77].

{ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ } [القصص : 78] أي المال { عَلَى عِلْمٍ عِندِى } [القصص : 78] أي على استحقاق لما فيّ من العلم الذي فضلت به الناس وهو علم التوراة أو علم الكيمياء ، وكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً ، أو العلم بوجوه المكاسب من التجارة والزراعة.

و عندي صفة لـ علم قال سهل : ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح ، والسعيد من صرف بصره عن أفعاله وأقواله وفتح له سبيل رؤية منة الله تعالى عليه في جميع الأفعال والأقوال ، والشقي من زين في عينه أفعاله وأقواله وأحواله ولم يفتح له سبيل رؤية منة الله فافتخر بها وادعاها لنفسه ، فشؤمه يهلكه يوماً كما خسف بقارون لما ادّعى لنفسه فضلاً { أَوَلَمْ يَعْلَمْ } [الشعراء : 197-5] قارون { أَنَّ

اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً } [القصص : 78] هو إثبات لعلمه بأن الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأه في التوراة كأنه قيل : أو لم يعلم في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته ، أو نفي لعلمه بذلك لأنه لما قال أوتيته على علم عندي قيل : أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعى.

ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين { وَأَكْثَرُ جَمْعًا } [القصص : 78] للمال أو أكثر جماعة وعدداً { وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ } [القصص : 78] لعلمه تعالى بهم بل يدخلون النار بغير حساب ، أو يعترفون بها بغير سؤال ، أو يعرفون بسيماهم فلا يسألون ، أو لا يسألون لتعلم من جهتهم بل يسألون سؤال توبيخ ، أو لا يسأل عن ذنوب الماضين المجرمون من هذه الأمة.

جزء : 3 رقم الصفحة : 355

(197/3)

{ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ } [القصص : 79] في الحمرة والصفرة.

وقيل : خرج يوم السبت على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة الاف على زيه.

وقيل : عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعن يمينه ثلثمائة غلام وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحليّ والديباج.

و { فِى زِينَتِهِ } [القصص : 79] حال من فاعل خرج أي متزيناً { قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَواةَ الدُّنْيَا } [القصص : 79] قيل : كانوا مسلمين وإنما تمنوا على سبيل الرغبة

355

في اليسار كعادة البشر.

وقيل : كانوا كفاراً { يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَارُونُ } [القصص : 79] قالوه غبطة والغابط هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه كهذه الآية ، والحاسد هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه وهو كقوله تعالى ؛ { وَلا تَتَمَنَّوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ } [النساء : 32].

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلّم : هل تضر الغبطة؟ قال : لا إلا كما يضر العضاه الخبط { إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } [القصص : 79] الحظ الجد وهو البخت والدولة

جزء : 3 رقم الصفحة : 355

{ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } [الروم : 56] بالثواب والعقاب وفناء الدنيا وبقاء العقبى لغابطي قارون {

وَيْلَكُمْ } أصل ويلك الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرضى ، وفي " التبيان في إعراب القرآن " هو مفعول فعل محذوف أي ألزمكم الله ويلكم { ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَآ } [القصص : 80] أي لا يلقن هذه الكلمة وهي ثواب الله خير { إِلا الصَّابِرُونَ } [القصص : 80] على الطاعات وعن الشهوات وزينة الدنيا وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير.

{ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الارْضَ } [القصص : 81] كان قارون يؤذي موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة ، فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاسكثره فشحت به نفسه فجمع بني إسرائيل وقال : إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا : أنت كبيرنا فمر بما شئت قال : نبرطل فلانة البغي حتى ترميه بنفسها فترفضه بنو إسرائيل ، فجعل لها ألف دينار أوطستاً من ذهب أو حكمها ، فلما كان يوم عيد قام موسى فقال : يا بني إسرائيل من سرق قطعناه ومن افترى جلدناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه.

فقال قارون : وإن كنت أنت؟ قال : وإن كنت أنا.

قال : فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة ، فأحضرت فناشدها بالذي فلق البحر وأنزل

التوراة أن تصدق فقالت : جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي فخر موسى ساجداً يبكي وقال : يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي ، فأوحى الله إليه أن مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك.

فقال : يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون ، فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل.

فاعتزلوا جميعاً غير رجلين ثم قال : يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ، ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ، ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق ، وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى ويناشدونه بالله والرحم وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه ثم قال : خذيهم فانطبقت عليهم فقال الله تعالى : استغاث بك مراراً فلم ترحمه فوعزتي لو استرحمني مرة لرحمته ، فقال بعض بني إسرائيل : إنما أهلكه ليرث ماله فدعا الله حتى خسف بداره وكنوزه { فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ } [القصص : 81] جماعة { يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ } [الكهف : 43] يمنعونه من عذاب الله { وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ } [القصص : 81] من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله.

يقال : نصره من عدوه فانتصره أي منعه منه فامتنع.

جزء : 3 رقم الصفحة : 356

{ وَأَصْبَحَ } وصار { الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ } [القصص : 82] منزلته من الدنيا { بِالامْسِ } ظرف لـ تمنوا ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك ولكن الوقت القريب استعارة { يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ } [القصص : 82] و ي " منفصلة عن " كأن " عند البصريين.

قال سيبويه : " وي " كلمة تنبه على الخطأ وتندم يستعملها النادم بإظهار ندامته يعني أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم ، وقولهم يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون وتندموا { لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [النساء : 39-90] بصرف ما كنا نتمناه بالأمس { لَخَسَفَ بِنَا } [القصص : 82] لخسف وبفتحتين : حفص ويعقوب وسهل ، وفيه ضمير الله تعالى { وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } [القصص : 82] أي تندموا ثم قالوا : كأنه لا يفلح الكافرون { تِلْكَ الدَّارُ الاخِرَةُ } [القصص : 83] تلك تعظيم لها وتفخيم لشأنها يعني تلك التي

357

سمعت بذكرها وبلغك وصفها ، وقوله { نَجْعَلُهَا } خبر تلك والدار نعتها { لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الارْضِ } [القصص : 83] بغياً : ابن جبير ، وظلماً : الضحاك أو كبراً { وَلا فَسَادًا } [القصص : 83] عملاً بالمعاصي أو قتل النفس أو دعاء إلى عبادة غير الله.

ولم يعلق الموعد بترك العلو والفساد ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما كما قال { وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا } [هود : 113] فعلق الوعيد بالركون.

وعن علي رضي الله عنه : إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها.

وعن الفضيل : إنه قرأها ثم قال : ذهبت الأماني ههنا.

وعن عمر بن عبد العزيز : إنه كان يرددها حتى قبض.

وقال بعضهم : حقيقته التنفير عن متابعة فرعون وقارون متشبثاً بقوله { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِى الارْضِ } [القصص : 4] { وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الارْضِ } [القصص : 77] { وَالْعَاقِبَةُ } المحمودة { لِلْمُتَّقِينَ } .

جزء : 3 رقم الصفحة : 357

{ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا } [النمل : 89] مر في " النمل " { وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ } [القصص : 84] معناه فلا يجزون فوضع الذين عملوا السيئات موضع الضمير لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً ، فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين { إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأعراف : 147] إلا مثل ما كانوا يعملون ومن فضله العظيم أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها ويجزي الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة { إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ } [القصص : 85] أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه { لَرَآدُّكَ } بعد الموت { إِلَى مَعَادٍ } [القصص : 85] أيّ معاد وإلى معاد ليس لغيرك من البشر فلذا نكره ، أو المراد به مكة.

والمراد رده إليها يوم الفتح لأنها كانت في ذلك اليوم معاداً له شأن ومرجعاً له اعتداد لغلبة رسول الله

وقهره لأهلها ولظهور عن الإسلام وأهله وذلك الشرك وحزبه.
والسورة مكية ولكن هذه الآية نزلت بالجحفة لا بمكة ولا بالمدينة حين اشتاق إلى مولده ومولد ابائه.
ولما وعد رسوله الرد إلى معاده قال
358
{ قُلْ } للمشركين { رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَى } [القصص : 85] يعني نفسه وما له من الثواب في معاده { وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ } [القصص : 85] يعني المشركين وما يستحقونه من العذاب في معادهم من في محل نصب بفعل مضمر أي يعلم
جزء : 3 رقم الصفحة : 358

(199/3)

{ وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَى } [القصص : 86] يوحي { إِلَيْكَ الْكِتَابُ } [القصص : 86] القرآن { إِلا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ } [الإسراء : 87] هو محمول على المعنى أي وما ألقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ، أو " إلا " بمعنى " لكن " للاستدراك أي ولكن لرحمة من ربك ألقي إليك الكتاب { فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ } [القصص : 86] معيناً لهم على دينهم { وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ } [القصص : 87] هو على الجمع أي ألا يمنعنك هؤلاء عن العمل بآيات الله أي القرآن { بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ } [القصص : 87] الآيات أي بعد وقت إنزاله وإذ يضاف إليه أسماء الزمان كقولك " حينئذ " و " يومئذ " { وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ } [الحج : 67] إلى توحيده وعبادته { وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ } قال ابن عباس رضي الله عنهما : الخطاب في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلّم والمراد أهل دينه ، ولأن العصمة لا تمنع النهي ، والوقف على آخر لازم لأنه لو وصل لصار { لا إِلَـٰهَ إِلا هُوَ } [البقرة : 255] صفة لـ الهاً آخر وفيه من الفساد ما فيه { كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ } [القصص : 88] أي إلا إياه فالوجه يعبر به عن الذات.
وقال مجاهد : يعني علم العلماء إذا أريد به وجه الله { لَهُ الْحُكْمُ } [القصص : 88] القضاء في خلقه { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [البقرة : 245] ترجعون بفتح التاء وكسر الجيم : يعقوب.
359
سورة العنكبوت
مكية وهي تسع وستون آية
{ الام * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ } [البقرة : 1 ، 2] الحسبان قوة أحد النقيضين على الآخر كالظن بخلاف الشك فهو الوقوف بينهما ، والعلم فهو القطع على أحدهما ،

ولا يصح تعليقهما بمعاني المفردات ولكن بمضامين الجمل.
فلو قلت " حسبت زيداً وظننت الفرس " لم يكن شيئاً حتى تقول " حسبت زيداً عالماً وظننت الفرس جواداً " لأن قولك " زيد عالم والفرس جواد " كلام دال على مضمون ، فإذا أردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتاً عندك على وجه الظن لا اليقين أدخلت على شطري الجملة فعل الحسبان حتى يتم لك غرضك والكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان هنا أن يتركوا أن يقولوا امنا وهم لا يفتنون وذلك أن تقديره : أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا؟ فالترك أول مفعولي حسب ولقولهم آمنا هو الخبر ، وأما غير مفتونين فتتمة الترك لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصيير كقول عنترة.
فتركته جزر السباع ينشنه
ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول " تركهم غير مفتونين " لقولهم " امناً " على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام وهو استفهام توبيخ.
والفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم.
وروي أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم قد جزعوا من أذى المشركين ، أو في عمار بن يا سر وكان يعذب في الله.

(200/3)

{ وَلَقَدْ فَتَنَّا } [العنكبوت : 3] اختبرنا وهو موصول بـ أحسب أو بـ لا يفتنون { الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } [فاطر : 25] بأنواع الفتن فمنهم من يوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، ومنهم من يمشط بأمشاط الحديد ما يصرفه ذلك عن دينه { فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ } [العنكبوت : 3] بالامتحان { الَّذِينَ صَدَقُوا } [البقرة : 177] في الإيمان { وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } [العنكبوت : 3] فيه. ومعنى علمه تعالى وهو عالم بذلك فيما لم يزل أن يعلمه موجوداً عند وجوده كما علمه قبل وجوده أنه يوجد ، والمعنى وليتميزن الصادق منهم من الكاذب.
قال ابن عطاء : يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء ، فمن شكر في أيام الرخاء وصبر في أيام البلاء فهو من الصادقين ، ومن بطر في أيام الرخاء وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ } [العنكبوت : 4] أي الشرك والمعاصي { أَن يَسْبِقُونَا } [العنكبوت : 4] أي يفوتونا يعني أن الجزاء يلحقهم لا محالة ، واشتماله صلة " أن " على مسند

ومسند إليه سد مسد مفعولين كقوله { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ } [البقرة : 214] ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر و " أم " منقطعة ، ومعنى الإضراب فيها أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأول لأن ذلك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه وهذا يظن أنه لا يجازى بمساويه.

وقالوا : الأول في المؤمنين وهذا في الكافرين { سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ } [الأنعام : 136] " ما " في موضع رفع على معنى ساء الحكم حكمهم ، أو نصب على معنى ساء حكماً يحكمون ، والمخصوص بالذم محذوف أي بئس حكماً يحكمونه حكمهم { مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ اللَّهِ } أي يأمل ثوابه أو يخاف حسابه فالرجاء يحتملها { فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ } [العنكبوت : 5] المضروب للثواب والعقاب { لاتٍ } لا محالة فليبادر العمل

الصالح الذي يصدق رجاءه ويحقق أمله { وَهُوَ السَّمِيعُ } [الشورى : 11] لما يقوله عباده { الْعَلِيمُ } بما يفعلونه فلا يفوته شيء ما.

وقال الزجاج : و " من " للشرط ويرتفع بالابتداء وجواب الشرط فإن أجل الله لات كقولك " إن كان زيد في الدار فقد صدق الوعد "

{ وَمَن جَاهَدَ } [العنكبوت : 6] نفسه بالصبر على طاعة الله أو الشيطان بدفع وساوسه أو الكفار { فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ } [العنكبوت : 6] لأن منفعة ذلك ترجع إليها { إِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } [العنكبوت : 6] وعن طاعتهم ومجاهدتهم ، وإنما أمر ونهى رحمة لعباده { وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّاَتِهِمْ } [العنكبوت : 7] أي الشرك والمعاصي بالإيمان والتوبة { وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ } [العنكبوت : 7] أي أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام.

{ وَوَصَّيْنَا الانسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا } [العنكبوت : 8] وصى حكمه حكم أمر في معناه وتصرفه.

يقال : وصيت زيداً بأن يفعل خيراً كما تقول : أمرته بأن يفعل.

ومنه قوله { وَوَصَّى بِهَآ إِبْرَاهِ مُ بَنِيهِ } [البقرة : 132] أي وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها ، وقولك : وصيت زيداً بعمرو معناه وصيتة بتعهد عمرو ومراعاته ونحو ذلك.

وكذلك معنى قوله ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ووصيناه بإيتاء والديه حسناً أو بإيلاء والديه حسناً أي فعلاً ذا حسن ، أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه كقوله { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا } [البقرة : 83] ويجوز أن يجعل حسناً من باب قولك " زيداً " بإضمار " اضرب " إذا رأيته متهيئاً للضرب فتنصبه بإضمار أولهما ، أو افعل بهما لأن التوصية بهما دالة عليه وما بعده مطابق له كأنه قال : قلنا أولهما معروفاً ولا تطعهما في الشرك إذا حملاك عليه ، وعلى هذا التفسير إن وقف على بوالديه وابتدىء حسناً حسن الوقف ، وعلى التفسير الأول لا بد من إضمار القول معناه وقلنا { وَإِن جَاهَدَاكَ } [لقمان : 15] أيها الإنسان { لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [العنكبوت : 8] أي لا علم

لك بإلهيته والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كأنه قال : لتشرك
362

(201/3)

بي شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً { فَلا تُطِعْهُمَآ } [لقمان : 15] في ذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق { إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ } [آل عمران : 55] مرجع من آمن منكم ومن أشرك { فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [العنكبوت : 8] فأجازيكم حق جزائكم ، وفي ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك وحث على الثبات والاستقامة في الدين.

روي أن سعد بن أبي وقاص لما أسلم نذرت أمه أن لا تأكل ولا تشرب حتى يرتد فشكا إلى النبي صلى الله عليه وسلّم فنزلت هذه الآية ، والتي في " لقمان " والتي في " الأحقاف "

جزء : 3 رقم الصفحة : 362

{ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ } [البقرة : 82] هو مبتدأ والخبر { لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّـالِحِينَ } [العنكبوت : 9] في جملتهم.

والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين وهو متمني الأنبياء عليهم السلام قال سليمان عليه السلام { وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّـالِحِينَ } [النمل : 19] وقال يوسف عليه السلام { تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّـالِحِينَ } [يوسف : 101] أو في مدخل الصالحين وهو الجنة.

ونزلت في المنافقين { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى اللَّهِ } [العنكبوت : 10] أي إذا مسه أذى من الكفار { جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ } [العنكبوت : 10] أي جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله تعالى { وَلَـاـاِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ } [العنكبوت : 10] أي وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا : إنا كنا معكم أي متابعين لكم في دينكم ثابتين عليه بثباتكم فأعطونا نصيبنا من الغنم { أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَالَمِينَ } [العنكبوت : 10] أي هو أعلم بما في صدور العالمين من العالمين بما في صدورهم ومن ذلك ما في صدور هؤلاء من النفاق وما في صدور المؤمنين من الإخلاص ، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين بقوله
363

جزء : 3 رقم الصفحة : 363

{ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَـافِقِينَ } [العنكبوت : 11] أي حالهما ظاهرة عند من يملك الجزاء عليهما { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـايَاكُمْ } [العنكبوت : 12] أمروهم باتباع سبيلهم وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم ، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر وأرادوا ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن نحمل

خطاياكم.
والمعنى تعليق الحمل بالاتباع أي إن تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم ، وهذا قول صناديد قريش كانوا يقولون لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم ، فإن كان ذلك فإنا نتحمل عنكم الإثم { وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [العنكبوت : 12] لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف.
جزء : 3 رقم الصفحة : 364

(202/3)

{ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ } [العنكبوت : 13] أي أثقال أنفسهم يعني أوزارهم بسبب كفرهم { وَأَثْقَالا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ } [العنكبوت : 13] أي أثقالاً أخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها وهي أثقال الذين كانوا سبباً في ضلالهم وهو كما قال { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ } [النحل : 25] { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ } [العنكبوت : 13] يختلقون من الأكاذيب والأباطيل.
{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا } [العنكبوت : 14] كان عمره ألفاً وخمسين سنة ؛ بعث على رأس أربعين ولبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين.
وعن وهب أنه عاش ألفاً وأربعمائة سنة فقال له ملك الموت : يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا؟ قال : كدار لها بابان دخلت وخرجت.
ولم يقل تسعمائة وخمسين سنة لأنه لو قيل كذلك لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهم زائل هنا فكأنه قيل : تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد إلا أن ذلك أخصر وأعذب لفظاً وأملأ بالفائدة ، ولأن القصة سيقت
364
لذكر لما ابتلي به نوح عليه السلام من أمته وما كابده من طول المصابرة تسلية لنبينا عليه السلام فكان ذكر الألف أفخم وأوصل إلى الغرض.
وجيء بالمميز أولاً بالسنة ثم بالعام ، لأن تكرار لفظ واحد في كلام واحد حقيق بالاجتناب في البلاغة { فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ } [العنكبوت : 14] هو ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما { وَهُمْ ظَالِمُونَ } [النحل : 113] أنفسهم بالكفر
جزء : 3 رقم الصفحة : 364
{ فَأَنجَيْنَاهُ } أي نوحاً { وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ } [العنكبوت : 15] وكانوا ثمانية وسبعين نفساً نصفهم

ذكور ونصفهم إناث منهم أولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم { وَجَعَلْنَاهَآ } أي السفينة أو الحادثة أو القصة { ءَايَةَ } عبرة وعظة { لِّلْعَالَمِينَ } يتعظون بها.

{ وَإِبْرَاهِيمَ } نصب بإضمار اذكر وأبدل عنه { إِذْ قَالَ } [البقرة : 258] بدل اشتمال لأن الأحيان تشتمل على ما فيها ، أو معطوف على نوح أي وأرسلنا إبراهيم ، أو ظرف لـ أرسلنا يعني أرسلناه حين بلغ من السن ، أو العلم مبلغاً صلح فيه لأن يعظ قومه ويأمرهم بالعبادة والتقوى.

وقرأ إبراهيم النخعي وأبو حنيفة رضي الله عنهما : وإبراهيم بالرفع على معنى " ومن المرسلين إبراهيم " { لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ } [العنكبوت : 16] من الكفر { إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة : 184] إن كان لكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا } [العنكبوت : 17] أصناماً { وَتَخْلُقُونَ } وتكذبون أو تصنعون.

وقرأ أبو حنيفة والسلمي رضي الله عنهما وتخلّقون من خلق بمعنى التكثير

365

في خلق { إِفْكًا } وقرىء أفكا وهو مصدر نحو كذب ولعب.

والإفك مخفف منه كالكذب واللعب من أصلهما واختلافهم الإفك تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله { إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا } [العنكبوت : 17] لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق { فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ } [العنكبوت : 17] كله فإنه هو الرازق وحده لا يرزق غيره { وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [العنكبوت : 17] فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه ، وبفتح التاء وكسر الجيم : يعقوب.

{ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلَـاغُ الْمُبِينُ } [العنكبوت : 18] أي وإن تكذبوني فلا تضروني بتكذيبكم فإن الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم وما ضروهم وإنما ضروا أنفسهم حيث حل بهم العذاب بسبب تكذيبهم ، وأما الرسول فقد تم أمره حيث بلغ البلاغ المبين الذي زال معه الشك وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته ، أو وإن كنت مكذباً فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة حيث كذبوا وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب.

وهذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله فما كان جواب قومه محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم عليه السلام لقومه ، والمراد بالأمم قبله قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم.

وأن تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلّم وشأن قريش بين أول قصة إبراهيم وآخرها.

فإن قلت : فالجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه فلا تقول " مكة وزيد قائم خير بلاد الله " .

قلت : نعم وبيانه أن إيراد قصة إبراهيم عليه السلام ليس إلا إرادة للتنفيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وأن تكون مسلاة له بأن أباه إبراهيم عليه السلام كان مبتلى بنحو ما ابتلى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان ، فاعترض بقوله وإن تكذبوا على معنى إنكم يا معشر قريش إن تكذبوا محمداً فقد كذب إبراهيم قومه وكل أمة نبيها لأن قوله فقد كذب أمم من قبلكم لا بد من تناوله لأمة إبراهيم وهو كما ترى اعتراض متصل ، ثم سائر الآيات بعدها من توابعها لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله وهدم الشرك وتوهين قواعده وصفة قدرة الله تعالى وسلطانه ووضوح حجته وبرهانه.

366

جزء : 3 رقم الصفحة : 366

{ أَوَلَمْ يَرَوْا } وبالتاء : كوفي غير حفص { كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ } [العنكبوت : 19] أي قد رأوا ذلك وعلموه.

وقوله { ثُمَّ يُعِيدُهُا } [العنكبوت : 19] ليس بمعطوف على يبدىء وليست الرؤية واقعة عليه وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت كما وقع النظر في قوله { كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الاخِرَةَ } على البدء دون الإنشاء بل هو معطوف على جملة قوله أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق { إِنَّ ذَالِكَ } [الحج : 70] أي الإعادة { عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [الحج : 70] سهل { قُلِ } يا محمد وإن كان من كلام إبراهيم فتقديره وأوحينا إليه أن قل { سِيرُوا فِى الارْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ } [العنكبوت : 20] على كثرتهم واختلاف أحوالهم لتعرفوا عجائب فطرة الله بالمشاهدة ، وبدأ وأبدأ بمعنى { ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الاخِرَةَ } [العنكبوت : 20] أي البعث.

وبالمد حيث كان : مكي وأبو عمرو.

وهذا دليل على أنهما نشأتان وأن كل واحدة منهما إنشاء أي ابتداء واختراع وإخراج من العدم إلى الوجود ، غير أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله والأولى ليست كذلك ، والقياس أن يقال " كيف بدأ الله الخلق ثم ينشىء النشأة الآخرة " لأن الكلام معهم وقع في الإعادة ، فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء ، فإذا لم يعجزه الإبداء وجب أن لا يعجزه الإعادة فكأنه قال : ثم ذلك الذي أنشأ النشأة الأولى ينشيء النشأة الآخرة ، فللتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة : 20] قادر { يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ } [العنكبوت : 21] بالخذلان { وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ } [العنكبوت : 21] بالهداية أو بالحرص والقناعة ، أو بسوء الخلق وحسنه ، أو بالإعراض عن الله وبالإقبال عليه ، أو بمتابعة البدع وبملازمة السنة { وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } [العنكبوت : 21] تردون وترجعون { وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ } [الأنعام : 134] ربكم أي لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه { فِى الارْضِ } [السجدة : 10] الفسيحة { وَلا فِى السَّمَآءِ } [آل عمران : 5] التي هي أفسح منها وأبسط لو كنتم فيها

{ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ } [البقرة : 107] يتولى أموركم { وَلا نَصِيرٍ } [البقرة : 107] ولا ناصر يمنعكم من عذابي.
جزء : 3 رقم الصفحة : 367

(204/3)

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِـَايَاتِ اللَّهِ } [الزمر : 63] بدلائله على وحدانيته وكتبه ومعجزاته { وَلِقَآ ءِهِ أُوْلَئك يَاءِسُوا مِن رَّحْمَتِى } [العنكبوت : 23] جنتي { وَأُولَـائِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ } قوم إبراهيم حين دعاهم إلى الإيمان { إِلا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ } [العنكبوت : 24] قال بعضهم لبعض أو قاله واحد منهم وكان الباقون راضين فكانوا جميعاً في حكم القائلين فاتفقوا على تحريقه { فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ } [العنكبوت : 24] حين قذفوه فيها { إِنَّ فِى ذَالِكَ } [السجدة : 26] فيما فعلوا به وفعلنا { لايَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأنعام : 99] روي أنه لم ينتفع في ذلك اليوم بالنار يعني يوم ألقي إبراهيم في النار وذلك لذهاب حرها.
{ وَقَالَ } إبراهيم لقومه { إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الْحَيَواةِ الدُّنْيَا } حمزة وحفص ، مودةً بينكم مدني وشامي وحماد ويحي وخلف مودة بينكم مكي وبصري وعلي ، مودةٌ بينكم الشمني والبرجمي ، النصب على وجهين على التعليل أي لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وأن يكون مفعولاً ثانياً كقوله { اتَّخَذَ إِلَـاهَهُ هَوَاهُ } [الفرقان : 43] و " ما " كافة أي اتخذتم الأوثان سبب المودة بينكم على تقدير حذف المضاف ، أو اتخذتموها مودة بينكم أي مودة بينكم كقوله : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } [البقرة : 165] وفي الرفع وجهان : أن

كون خبراً لـ إن و " ما " موصولة ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هي مودة بينكم ، والمعنى أن الأوثان مودة بينكم أي مودودة أو سبب مودة.
ومن أضاف المودة جعل بينكم اسماً لا ظرفاً كقوله { شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ } [المائدة : 106] ومن نوّن مودة ونصب بينكم فعلى الظرف { ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ } [العنكبوت : 25] تتبرأ الأصنام من عابديها { وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا } [العنكبوت : 25] أي يوم القيامة يقوم بينكم التلاعن فيلعن الأتباع القادة.
{ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ } [العنكبوت : 25] أي مأوى العابد والمعبود والتابع والمتبوع { وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ } [العنكبوت : 25] ثمة.

جزء : 3 رقم الصفحة : 368
{ فَاٰمَنَ لَهُ } [العنكبوت : 26] لإبراهيم عليه السلام { لُوطٌ } هو ابن أخي إبراهيم وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه { وَقَالَ } إبراهيم { إِنِّى مُهَاجِرٌ } [العنكبوت : 26] من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى حران ثم منها إلى فلسطين وهي من برية الشام ، ومن ثم قالوا : لكل نبي هجرة ولإبراهيم هجرتان.
وكان معه في هجرته لوط وسارة وقد تزوجها إبراهيم { إِلَى رَبِّى } [فصلت : 50] إلى حيث أمرني ربي بالهجرة إليه { إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ } [العنكبوت : 26] الذي يمنعني من أعدائي { الْحَكِيمُ } الذي لا يأمرني إلا بما هو خير { وَوَهَبْنَا لَهُا إِسْحَاقَ } [الأنعام : 84] ولداً { وَيَعْقُوبَ } ولد ولد ولم يذكر إسماعيل لشهرته { وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ } [العنكبوت : 27] أي في ذرية إبراهيم فإنه شجرة الأنبياء { وَالْكِتَابَ } والمراد به الجنس يعني التوراة والإنجيل والزبور والفرقان { وَءَاتَيْنَاهُ } أي إبراهيم { أَجْرَهُ } الثناء الحسن والصلاة عليه إلى آخر الدهر ومحبة أهل الملل له ، أو هو بقاء ضيافته عند قبره وليس ذلك لغيره { فِى الدُّنْيَا } [يونس : 70] فيه دليل على أنه تعالى قد يعطي الأجر في الدنيا { وَإِنَّهُ فِى الاخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [البقرة : 130] أي من أهل الجنة : عن الحسن { وَلُوطًا } أي واذكر لوطاً { إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ } [العنكبوت : 28] الفعلة البالغة في القبح وهي اللواط { مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ } [الأعراف : 80]
369
جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك الفعلة كأن قائلاً قال : لم كانت فاحشة؟ فقيل : لأن أحداً قبلهم لم يقدم عليها ، قالوا : لم ينزل ذكر على ذكر قبل قوم لوط
جزء : 3 رقم الصفحة : 369

(205/3)

{ أَاِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ } [العنكبوت : 29] بالقتل وأخذ المال كما هو عمل قطاع الطريق ، وقيل : اعتراضهم السابلة بالفاحشة { وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ } [العنكبوت : 29] مجلسكم ولا يقال للمجلس نادٍ إلا ما دام فيه أهله { الْمُنكَرَ } أي المضارطة والمجامعة والسباب والفحش في المزاح والحذف بالحصى ومضغ العلك والفرقعة والسواك بين الناس { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [العنكبوت : 29] فيما تعدنا من نزول العذاب.
إنكم أئنكم شامي وحفص وهو الموجود في الإمام ، وكل واحدة بهمزتين كوفي غير حفص آينكم آينكم بهمزة ممدودة بعدها ياء مكسورة : أبو عمرو أينكم أينكم بهمزة مقصورة بعدها ياء مكسورة : مكي ونافع غير قالون وسهل ويعقوب غير زيد { قَالَ رَبِّ انصُرْنِى } [المؤمنون : 26] بإنزال

العذاب { عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ } [العنكبوت : 30] كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش.
{ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى } [العنكبوت : 31] بالبشارة لإبراهيم بالولد والنافلة يعني إسحق ويعقوب { قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَاذِهِ الْقَرْيَةِ } إضافة مهلكوا لم تفد تعريفاً لأنها بمعنى الاستقبال.
والقرية سدوم التي قبل فيها أجور من قاضي سدوم وهذه القرية تشعر بأنها قريبة من موضع إبراهيم عليه السلام.
قالوا : إنها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم عليه السلام.
{ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ } [العنكبوت : 31] أي الظلم قد استمر منهم في الأيام السالفة وهم عليه مصرون وظلمهم كفرهم وأنواع معاصيهم
370
جزء : 3 رقم الصفحة : 370
{ قَالَ } إبراهيم { إِنَّ فِيهَا لُوطًا } [العنكبوت : 32] أي أتهلكونهم وفيهم من هو بريء من الظلم وهو لوط { قَالُوا } أي الملائكة { نَحْنُ أَعْلَمُ } [الإسراء : 47] منك { بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ } [العنكبوت : 32] لننجينه يعقوب وكوفي غير عاصم { وَأَهْلَهُا إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } [الأعراف : 83] الباقين في العذاب.
ثم أخبر عن مسير الملائكة إلى لوط بعد مفارقتهم إبراهيم بقوله { وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِى ءَ بِهِمْ } [العنكبوت : 33] ساءه مجيئهم و " أن " صلة أكدت وجود الفعلين مرتباً أحدهما على الآخر كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان كأنه قيل : كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومهم أن يتناولوهم بالفجور { سِى ءَ بِهِمْ } [هود : 77] مدني وشامي وعلي { وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا } [هود : 77] وضاق بشأنهم وبتدبير أمرهم ذرعه أي طاقته ، وقد جعلوا ضيق الذرع والذراع عبارة عن فقد الطاقة كما قالوا " رحب الذراع " إذا كان مطيقاً ، والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير الذراع فضرب ذلك مثلاً في العجز والقدرة وهو نصب على التمييز { وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ } [العنكبوت : 33] وبالتخفيف : مكي وكوفي غير حفص { وَأَهْلَكَ } الكاف في محل الجر ونصب أهلك بفعل محذوف أي وننجي أهلك { إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنزِلُونَ } منزلّون شامي { عَلَى أَهْلِ هَاذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا } [العنكبوت : 34] عذاباً { مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [البقرة : 59] بفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله { وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ } [العنكبوت : 35] من القرية { بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ } [العنكبوت : 35] هي آثار منازلهم الخربة.
وقيل : الماء الأسود على وجه الأرض { لِّقَوْمٍ } يتعلق بتركنا أو ببينة { يَعْقِلُونَ } .
371
جزء : 3 رقم الصفحة : 371
{ وَإِلَى مَدْيَنَ } [العنكبوت : 36] وأرسلنا إلى مدين { أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ

الاخِرَ } وافعلوا ما ترجون به الثواب في العاقبة أو خافوه { وَلا تَعْثَوْا فِى الارْضِ مُفْسِدِينَ } [البقرة : 60] قاصدين الفساد.

جزء : 3 رقم الصفحة : 372

(206/3)

{ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ } [العنكبوت : 37] الزلزلة الشديدة أو صيحة جبريل عليه السلام لأن القلوب رجفت بها { فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ } [الأعراف : 78] في بلدهم وأرضهم { جَاثِمِينَ } باركين على الركب ميتين { وَعَادًا } منصوب بإضمار " أهلكنا " لأن قوله فأخذتهم الرجفة يدل عليه لأنه في معنى الإهلاك { وَثَمُودَا } حمزة وحفص وسهل ويعقوب { وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم } [العنكبوت : 38] ذلك يعني ما وصفه من إهلاكهم { مِّن مَّسَاكِنِهِمْ } [العنكبوت : 38] من جهة مساكنهم إذا نظرتم إليها عند مروركم بها ، وكان أهل مكة يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها { وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } [النمل : 24] من الكفر والمعاصي { فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ } [النمل : 24] السبيل الذي أمروا بسلوكه هو الإيمان بالله ورسله { وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ } [العنكبوت : 38] عقلاء متمكنين من النظر وتمييز الحق من الباطل ولكنهم لم يفعلوا { وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ } [العنكبوت : 39] أي وأهلكناهم { وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَى بِالْبَيّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الارْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ } [العنكبوت : 39] فائتين أدركهم أمر الله فلم يفوتوه { فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنابِهِ } [العنكبوت : 40] فيه رد على من يجوز العقوبة بغير ذنب { فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا } [العنكبوت : 40] هي ريح عاصف فيها حصباء وهي لقوم لوط { وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ } [العنكبوت : 40] هي لمدين وثمود { وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الارْضَ } [العنكبوت : 40] يعني قارون

372

{ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا } [العنكبوت : 40] يعني قوم نوح وفرعون { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ } [العنكبوت : 40] ليعاقبهم بغير ذنب { وَلَاكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [البقرة : 57] بالكفر والطغيان.

جزء : 3 رقم الصفحة : 372

{ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ } [العنكبوت : 41] أي آلهة يعني مثل من أشرك بالله الأوثان في الضعف وسوء الاختيار { كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا } [العنكبوت : 41] أي كمثل العنكبوت فيما تتخذه لنفسها من بيت فإن ذلك بيت لا يدفع عنها الحر والبرد ولا يقي ما تقي البيوت ، فكذلك الأوثان لا تنفعهم في الدنيا والآخرة ، جعل حاتم اتخذت حالاً { وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ } [العنكبوت : 41] لا بيت أوهن من بيتها.

عن عليّ رضي الله عنه : طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه يورث الفقر { لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

} [البقرة : 102] أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن.

وقيل : معنى الآية مثل الشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت تتخذ بيتاً بالإضافة إلى رجل يبنى بيتاً بآجر وجص أو ينحته من صخر ، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت ، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون.

وقال الزجاج : في جماعة تقدير الآية : مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء لو كانوا يعلمون كمثل العنكبوت { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ } [العنكبوت : 42] بالياء : بصري وعاصم ، وبالتاء : غيرهما غير الأعشى والبرجمي.

و " ما " بمعنى " الذي " وهو مفعول يعلم ومفعول يدعون مضمر أي يدعونه يعني يعبدونه { مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ } [النحل : 35] " من " في من شيء للتبيين { وَهُوَ الْعَزِيزُ } [إبراهيم : 4] الغالب الذي لا شريك له { الْحَكِيمُ } في ترك المعاجلة بالعقوبة ، وفيه تجهيل لهم حيث عبدوا جماداً لا علم له ولا قدرة وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء الحكيم

373

الذي لا يفعل كل شيء إلا بحكمة وتدبير

جزء : 3 رقم الصفحة : 373

(207/3)

{ وَتِلْكَ الامْثَالُ } [الحشر : 21] الأمثال نعت والخبر { نَضْرِبُهَا } نبينها { لِلنَّاسِ } كان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون : إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك فلذلك قال { وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلا الْعَالِمُونَ } [العنكبوت : 43] به وبأسمائه وصفاته أي لا يعقل صحتها وحسنها ولا يفهم فائدتها إلا هم ، لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المستورة حتى تبرزها وتصورها للأفهام كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد.

وعن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه تلا هذه الآية فقال " العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه " ودلت الآية على فضل العلم على العقل.

جزء : 3 رقم الصفحة : 374

{ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ بِالْحَقّ } [العنكبوت : 44] أي محقاً يعني لم يخلقهما باطلاً بل لحكمة وهي أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم ودلائل على عظم قدرته ، ألا ترى إلى قوله { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ } [الحجر : 77] وخصهم بالذكر لانتفاعهم بها { اتْلُ مَآ أُوْحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ } [العنكبوت : 45] تقرباً إلى الله تعالى بقراءة كلامه ولتقف على ما أمر به ونهى عنه { اتْلُ

مَآ } [العنكبوت : 45] أي دم على إقامة الصلاة { اتْلُ مَآ أُوْحِىَ إِلَيْكَ مِنَ } [العنكبوت : 45] الفعلة القبيحة كالزنا مثلاً { وَالْمُنْكَرِ } هو ما ينكره الشرع والعقل.

قيل : من كان مراعياً للصلاة جره ذلك إلى أن ينتهي عن السيئات يوماً ما فقد روي أنه قيل يوماً لرسول الله صلى الله عليه وسلّم : إن فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل.

فقال : " إن صلاته لتردعه " .

روي أن فتى من الأنصار كان يصلي معه الصلوات ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه فوصف له فقال " إن صلاته ستنهاه " فلم يلبث أن

374

تاب.

وقال ابن عوف : إن الصلاة تنهى إذا كنت فيها فأنت في معروف وطاعة وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر.

وعن الحسن : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهي وبال عليه { وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ } [العنكبوت : 45] أي والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات ، وإنما قال (ولذكر الله) ليستقل بالتعليل كأنه قال : والصلاة أكبر لأنها ذكر الله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته.

وقال ابن عطاء : ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له الآن ، لأن ذكره بلا علة وذكركم مشوب بالعلل والأماني ، ولأن ذكره لا يفنى وذكركم لا يبقى.

وقال سلمان : ذكر الله أكبر من كل شيء وأفضل فقد قال عليه السلام " ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير من إعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم " قالوا وما ذاك يا رسول الله قال " ذكر الله " " (1) وسئل أي الأعمال أفضل قال " أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله " .

أو ذكر الله أكبر من أن تحويه أفهامكم وعقولكم ، أو ذكر الله أكبر من تلقى معه معصية ، أو ذكر الله أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من غيره : { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } [العنكبوت : 45] من الخير والطاعة فيثيبكم أحسن الثواب.

جزء : 3 رقم الصفحة : 374

(208/3)

{ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ } [العنكبوت : 46] بالخصلة التي هي أحسن للثواب وهي مقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم كما قال : { ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ } [المؤمنون : 96]

{ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ } [البقرة : 150] فأفرطوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق فاستعملوا معهم الغلظة.

وقيل : إلا الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، أو إلا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا يد الله مغلولة ، أو معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذمة المؤدين للجزية إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ومنعوا الجزية فمجادلتهم بالسيف.

والآية تدل على جواز المناظرة مع الكفرة في الدين ، وعلى جواز تعلم علم الكلام الذي به تتحقق المجادلة ، وقوله { وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [العنكبوت : 46] من جنس المجادلة بالأحسن.

375

وقال عليه السلام " ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان باطلاً لم تصدقوهم وإن كان حقاً لم تكذبوهم "

جزء : 3 رقم الصفحة : 375

{ وَكَذَالِكَ } ومثل ذلك الإنزال { أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ } [الزمر : 2] أي أنزلناه مصدقاً لسائر الكتب السماوية ، أو كما أنزلنا الكتب إلى من قبلك أنزلنا إليك الكتاب { فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } [العنكبوت : 47] هم عبد الله بن سلام ومن معه { وَمِنْ هؤلاء } [العنكبوت : 47] أي من أهل مكة { مَن يُؤْمِنُ } [النمل : 81] أو أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم من أهل الكتاب ومن هؤلاء الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم { وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَاتِنَآ } [العنكبوت : 49] مع ظهورها وزوال الشبهة عنها { إِلا الْكَافِرُونَ } [العنكبوت : 47] إلا المتوغلون في الكفر المصممون عليه ككعب بن الأشرف وأضرابه { وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ } من قبل القرآن { مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ } [العنكبوت : 48] خص اليمين لأن الكتابة غالباً تكون باليمين أي ما كنت قرأت كتاباً من الكتب ولا كنت كاتباً { إِذًا } أي لو كان شيء من ذلك أي من التلاوة ومن الخط { ارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ } [العنكبوت : 48] من أهل الكتاب وقالوا : الذي نجد نعته في كتبنا أمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به ، أو لارتاب مشركو مكة وقالوا : لعله تعلمه أو كتبه بيده.

وسماهم مبطلين لإنكارهم نبوته.

وعن مجاهد والشعبي : ما مات النبي صلى الله عليه وسلّم حتى كتب وقرأ { بَلْ هُوَ } [العنكبوت : 49] أي القرآن { بَيِّنَـاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا } [العنكبوت : 49] أي في صدور العلماء به وحفاظه وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز وكونه محفوظاً في الصدور بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزات ولا كانت تقرأ إلا

376

من المصاحف { وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَاتِنَآ } [العنكبوت : 49] الواضحة { إِلا الظَّالِمُونَ } [العنكبوت : 49]

أي المتوغلون في الظلم.
جزء : 3 رقم الصفحة : 376

(209/3)

{ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الايَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ } آية بغير ألف : مكي وكوفي غير حفص.
أرادوا هلا أنزل عليه آيات مثل الناقة والعصا ومائدة عيسى عليهم السلام ونحو ذلك { قُلْ إِنَّمَا الايَاتُ عِندَ اللَّهِ } [الأنعام : 109] ينزل أيتها شاء ولست أملك شيئاً منها { وَإِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ } [العنكبوت : 50] كلفت الإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات وليس لي أن أقول أنزل على آية كذا دون آية كذا مع علمي أن المراد من الآيات ثبوت الدلالة والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ } [العنكبوت : 51] أي أولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان ، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول كما تزول كل آية بعد كونها ، أو تكون في مكان دون مكان { إِنَّ فِى ذَالِكَ } [السجدة : 26] أي في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر { لَرَحْمَةً } لنعمة عظيمة { وَذِكْرَى } وتذكرة { لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأنعام : 99] دون المتعنتين { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا } [العنكبوت : 52] أي شاهداً بصدق ما أدعيه من الرسالة وأنزل القرآن علي وبتكذيبكم { يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [العنكبوت : 52] فهو مطلع على أمري وأمركم وعالم بحقي وباطلكم { وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ } [العنكبوت : 52] باليهودية أو بالشرك إو بإبليس { وَكَفَرُوا بِاللَّهِ } [العنكبوت : 52] وآياته { أُولئك هُمُ الْخَاسِرُونَ } [البقرة : 27] المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف كقوله { وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [سبأ : 24] وروي أن كعب ابن الأشرف وأصحابه قالوا : يا محمد من يشهد لك بأنك رسول الله فنزلت
377
جزء : 3 رقم الصفحة : 377
{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } [الحج : 47] بقولهم { فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ } الآية.
{ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى } [العنكبوت : 53] وهو يوم القيامة أو يوم بدر أو وقت فنائهم باجالهم ، والمعنى ولولا أجل قد سماه الله وبينه في اللوح لعذبهم والحكمة تقتضي تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى { لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ } [العنكبوت : 53] عاجلاً { وَلَيَأْتِيَنَّهُم } العذاب عاجلاً أو ليأتينهم العذاب في الأجل المسمى { بَغْتَةً } فجأة { وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [الأعراف : 95] بوقت مجيئه.

{ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُ بِالْكَافِرِينَ } [العنكبوت : 54] أي ستحيط بهم { يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ } [العنكبوت : 55] لقوله تعالى : { مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ } [الزمر : 16].

ولا وقف على بالكافرين لأن يوم ظرف إحاطة النار بهم { وَيَقُولُ } بالياء : كوفي ونافع ، وقوله { ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [العنكبوت : 55] أي جزاء أعمالكم.

{ يَاعِبَادِىَ } وبسكون الياء : بصري وكوفي غير عاصم { الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ } وبفتح الياء : شامي يعني أن المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلباً وأصبح ديناً وأكثر عبادة ، والبقاع تتفاوت في ذلك تفاوتاً كثيراً.

وقالوا : لم نجد أعون على قهر النفس وأجمع للقلب وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من الفتن وأربط للأمر الديني من مكة حرسها الله تعالى.

وعن سهل : إذا ظهرت المعاصي والبدع في أرض فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلّم " من فر بدينه من أرض إلى

(210/3)

أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة " { فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ } [العنكبوت : 56] وبالياء : يعقوب.

وتقديره فإياي اعبدوا فاعبدوني.

وجيء بالفاء في فاعبدون لأنه جواب شرط محذوف لأن المعنى إن أرضي واسعة فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها في غيرها ، ثم حذف الشرط وعوض عن حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص ، ثم شجع المهاجر بقوله

{ كُلُّ نَفْسٍ ذَآ ئِقَةُ الْمَوْتِ } [العنكبوت : 57] أي واجدة مرارته وكربه كما يجد ، الذائق طعم المذوق لأنها إذا تيقنت بالموت سهل عليها مفارق وطنها { ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [العنكبوت : 57] بعد الموت للثواب والعقاب يرجعون يحيى ترجعون يعقوب.

{ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا } [العنكبوت : 58] لننزلنهم من الجنة علالي.

لنثوينهم كوفي غير عاصم من الثواء وهو النزول للإقامة ، وثوى غير متعد فإذا تعدى بزيادة الهمزة

لم يجاوز مفعولاً واحداً.
والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف ، أما إجراؤه مجرى لننزلنهم أو لنؤينهم ، أو حذف الجار وإيصال الفعل ، أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم { تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } [العنكبوت : 58] ويوقف على العاملين على أن { الَّذِينَ صَبَرُوا } [النحل : 96] خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين صبروا على مفارقة الأوطان وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصي ، والوصل أجود ليكون { الَّذِينَ } نعتا لـ العاملين { وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [الانفال : 2] ولم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله ، ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم من أسلم من مكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فنزلت { وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ } [العنكبوت : 60] أي وكم من دابة وكائن بالمد والهمز : مكي والدابة كل نفس دبت على وجه الأرض عقلت أم لم تعقل { لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا } [العنكبوت : 60] لا تطيق أن
379
تحمله لضعفها عن حمله { اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ } [العنكبوت : 60] أي لا يرزق تلك الدّواب الضعاف إلا الله ، ولا يرزقكم أيضاً أيها الأقوياء إلا هو ، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها لأنه لو لم يقدركم ولم يقدر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل.
وعن الحسن : لا تحمل رزقها لا تدخره إنما تصبح فيرزقها الله.
وقيل : لا يدخر شيء من الحيوان قوتاً إلا ابن آدم والفأرة والنملة { وَهُوَ السَّمِيعُ } [الشورى : 11] لقولكم نخشى الفقر والعيلة { الْعَلِيمُ } بما في ضمائركم.
جزء : 3 رقم الصفحة : 379
{ وَلَـاِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ } [العنكبوت : 61] أي ولئن سألت هؤلاء المشركين من خلق السماوات والأرض على كبرهما وسعتهما ، ومن الذي سخر الشمس والقمر { لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } [العنكبوت : 61] فكيف يصرفون عن توحيد الله مع إقرارهم بهذا كله.
{ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُا } [العنكبوت : 62] أي لمن يشاء فوضع الضمير موضع من يشاء لأن من يشاء مبهم غير معين فكان الضمير مبهماً مثله.
قدر الرزق وقتره بمعنى إذا ضيقه { إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ } [البقرة : 231] يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم.
في الحديث " إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك " { وَلَـاِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الارْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } [العنكبوت : 63] أي هم مقرون بذلك { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ } [العنكبوت : 63] على إنزاله الماء لإحياء الأرض أو على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به ثم نفعه ذلك في توحيد الله ونفى الشركاء عنه ولم يكن إقراراً عاطلاً كإقرار المشركين { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ

} [العنكبوت : 63] لا يتدبرون بما
380
فيهم من العقول فيما نريهم من الآيات ونقيم عليهم من الدلالات ، أو لا يعقلون ما تريد بقولك الحمد لله

(211/3)

جزء : 3 رقم الصفحة : 380

{ وَمَا هَاذِهِ الْحَيَواةُ الدُّنْيَآ إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ } [العنكبوت : 64] أي وما هي لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون ، وفيه ازدراء بالدنيا وتصغير لأمرها وكيف لا يصغرها وهي لاتزن عنده جناح بعوضة واللهو ما يتلذذ به الإنسان فيلهيه ساعة ثم ينقضي { وَإِنَّ الدَّارَ الاخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ } [العنكبوت : 64] أي الحياة أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة لا موت فيها فكأنها في ذاتها حياة.

والحيوان مصدر حي وقياسه حييان فقلبت الياء الثانية واواً ولم يقل " لهي الحياة " لما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب ، والحياة حركة والموت سكون ، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ، ويوقف على الحيوان لأن التقدير { لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [البقرة : 102] حقيقة الدارين لما اختاروا اللهو الفاني على الحيوان الباقي ، ولو وصل لصار وصف الحيوان معلقاً بشرط علمهم ذلك وليس كذلك.

{ فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ } [العنكبوت : 65] هو متصل بمحذوف دل عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم معناه : هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد فإذا ركبوا في الفلك { دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } [يونس : 22] كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون معه إلاهاً آخر { فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ } [العنكبوت : 65] وأمنوا { إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت : 65] عادوا إلى حال الشرك { لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ } [النحل : 55] من النعمة.

قيل : هي لام كي وكذا في { وَلِيَتَمَتَّعُوا } فيمن قرأها بالكسر أي لكي يكفروا وكي يتمتعوا ، والمعنى يعودون إلى شركهم ليكونوا بالعود إلى شركهم كافرين بنعمة النجاة قاصدين التمتيع بها والتلذذ لا غير على خلاف عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم ، ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة لا إلى التلذذ والتمتع ، وعلى هذا لا وقف على يشركون.

ومن جعله لام الأمر متثبتاً بقراءة ابن كثير وحمزة وعلي
381

وليتمتعوا بسكون اللام على وجه التهديد كقوله : { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف : 29] وتحقيقه في أصول الفقه يقف عليه { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [الحجر : 3] سوء تدبيرهم عند تدميرهم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 381

{ أَوَلَمْ يَرَوْا } [الإسراء : 99] أي أهل مكة { أَنَّا جَعَلْنَا } [العنكبوت : 67] بلدهم { حَرَمًا } ممنوعاً مصوناً { مِنْ } يأمن داخله { وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ } [العنكبوت : 67] يستلبون قتلاً وسبياً { أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ } [النحل : 72] أي أبالشيطان والأصنام { وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ } [العنكبوت : 67] أي بمحمد عليه السلام والإسلام { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } [الأنعام : 21] بأن جعل له شريكاً { أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ } [العنكبوت : 68] بنبوة محمد عليه السلام والكتاب { لَمَّا جَآءَهُا } [العنكبوت : 68] أي لم يتلعثموا في تكذيبه حين سمعوه { أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ } [العنكبوت : 68] هذا تقرير لثوائهم في جهنم لأن همزة الإنكار إذا أدخلت على النفي صار إيجاباً يعني ألا يثوون فيها وقد افتروا مثل هذا التكذيب على الله وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب؟ أو ألم يصح عندهم أن في جهنم مثوى للكافرين حين اجترؤوا مثل هذه الجراءة؟ وذكر المثوى في مقابلة لنبوئنهم يؤيد قراءة الثاني { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا } [العنكبوت : 69] أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول كل ما تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين { فِينَا } في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصاً { لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } [العنكبوت : 69] سبلنا أبو عمرو أي لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً.

وعن الداراني : والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا فقد قيل : من عمل بما علم وفق لما لا يعلم.

وقيل : إن الذي نرى من جهلنا بما لا

382

(212/3)

نعلم إنما هو لتقصيرنا فيما نعلم.

وعن فضيل : والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به.

وعن سهل : والذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة.

وعن ابن عطاء : جاهدوا في رضانا لنهدينهم الوصول إلى محل الرضوان.

وعن ابن عباس : جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا.

وعن الجنيد : جاهدوا في التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص ، أو جاهدوا في خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا ، أو جاهدوا في طلبنا تحرياً لرضانا لنهدينهم سبل الوصول إلينا.

{ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [العنكبوت : 69] بالنصرة والمعونة في الدنيا وبالثواب والمغفرة في

العقبى.
383
سورة الروم
(مكية وهي ستون أو تسع وخمسون آية والاختلاف في بضع سنين)
{ الام * غُلِبَتِ الرُّومُ } أي غلبت فارس الروم { فِى أَدْنَى الارْضِ } [الروم : 3] أي في أقرب أرض العرب لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم ، والمعنى غلبوا في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام ، أو أراد أرضهم على إنابة اللام مناب المضاف إليه أي في أدنى أرضهم إلى عدوهم { وَهُمْ } أي الروم { مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ } [الروم : 3] أي غلبة فارس إياهم.
وقرىء بسكون اللام فالغلب والغلب مصدران وقد أضيف المصدر إلى المفعول { سَيَغْلِبُونَ } فارس ، ولا وقف عليه لتعلق { فِى بِضْعِ سِنِينَ } [الروم : 4] به ، وهو ما بين الثلاث إلى العشرة.
قيل : احتربت فارس والروم بين أذرعات وبصرى فغلبت فارس الروم والملك بفارس يومئذ كسرى ابرويز فبلغ الخبر مكة فشق على رسول الله صلى الله عليه وسلّم والمؤمنين لأن فارس
384
مجوس لا كتاب لهم والروم أهل كتاب ، وفرح المشركون وشمتوا وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن فارس أميون وقد ظهر إخواننا على أخوانكم ولنظهرن نحن عليكم فنزلت.
فقال لهم أبو بكر : والله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين ، فقال له أبيّ بن خلف : كذبت فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما وجعل الأجل ثلاث سنين ، فأخبر أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال عليه السلام " زد في الخطر وأبعد في الأجل " فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين.
ومات أبيّ من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلّم وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية أو يوم بدر فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبيّ فقال عليه السلام : " تصدق به " .
وهذه آية بينة على صحة نبوته وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب وكان ذلك قبل تحريم القمار.
عن قتادة ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد أن العقود الفاسدة كعقد الربا وغيره جائزة في دار الحرب بين المسلمين وقد احتجا على صحة ذلك بهذه القصة.
{ لِلَّهِ الامْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ } [الروم : 4] أي من قبل كل شيء ومن بعد كل شيء أو حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل : من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ، ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين يعني أن كونهم مغلوبين أولاً وغالبين آخراً ليس إلا بأمر الله وقضائه { وَتِلْكَ الايَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ } [آل عمران : 140] { وَيَوْمَاإِذٍ } ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعد الله من غلبتهم { يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ } [الروم : 4]

بنصر الله } وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة.
وقيل : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم ، والباء يتصل بـ يفرح فيوقف على الله على " المؤمنين " { يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ } [الروم : 5] الغالب على أعدائه { الرَّحِيمُ } العاطف على أوليائه { وَعْدَ اللَّهِ } [النور : 55] مصدر مؤكد لأن قوله وهم من بعد غلبهم سيغلبون وعد من الله
385
للمؤمنين ، فقوله وعد الله بمنزلة وعد الله المؤمنين وعداً { لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ } [الروم : 6] بنصر الروم على فارس { وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [الأعراف : 187] ذلك
جزء : 3 رقم الصفحة : 385

(213/3)

{ يَعْلَمُونَ } بدل من لا يعلمون وفيه بيان أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز عن تحصيل الدنيا.
وقوله { ظَـاهِرًا مِّنَ الْحَيَواةِ الدُّنْيَا } [الروم : 7] يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً ، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها ، وباطنها أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها إليها بالطاعة وبالأعمال الصالحة.
وتنكير الظاهر يفيد أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها { وَهُمْ عَنِ الاخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } [الروم : 7] هم الثانية مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر هم الأولى ، وفيه بيان أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها.
{ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنفُسِهِم } [الروم : 8] يحتمل أن يكون ظرفاً كأنه قيل : أولم يثبتوا التفكير في أنفسهم أي في قلوبهم الفارغة من الفكر والتفكر لا يكون إلا في القلوب ، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقوله " اعتقده في قلبك " ، وأن يكون صلة للتفكر نحو تفكير في الأمر وأجال نفيه فكره ، ومعناه على هذا : أولم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم بأحوالها منهم بأحوال ما عداها ، فيتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحكمة الدالة على التدبير دون الإهمال ، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى وقت تجازى فيه على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جارٍ على الحكمة في التدبير ، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت؟ { مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ } [الروم : 8] متعلق بالقول المحذوف معناه : أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول؟ وقيل : معناه فيعلموا لأن في الكلام دليلاً عليه { إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى } [الأحقاف : 3] أي ما خلقها باطلاً وعبثاً بغير حكمة

بالغة ولا لتبقى خالدة ، إنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة وبتقدير أجلٍ مسمى لا بد لها من أن تنتهي إليه وهو قيام الساعة ووقت
386
الحساب والثواب والعقاب ، ألا ترى إلى قوله : { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ } [المؤمنون : 115] كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثاً { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ } [الروم : 8] بالبعث والجزاء { لَكَافِرُونَ } لجاحدون.

وقال الزجاج : أي لكافرون بلقاء ربهم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 386

{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الارْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } [الروم : 9] هو تقرير لسيرهم في البلاد ونظرهم إلى اثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية.

ثم وصف حالهم فقال { كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الارْضَ } [الروم : 9] وحرثوها { وَعَمَرُوهَآ } أي المدمرون { أَكْثَرَ } صفة مصدر محذوف.

و " ما " مصدرية في { مِمَّا عَمَرُوهَا } [الروم : 9] أي من عمارة أهل مكة { وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ } [الروم : 9] وتقف عليها لحق الحذف أي فلم يؤمنوا فأهلكوا { فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ } [التوبة : 70] فما كان تدميره إياهم ظلماً لهم { وَلَاكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [البقرة : 57] ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما أوجب تدميرهم { ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ } [الروم : 10] بالنصب : شامي وكوفي { الَّذِينَ } تأنيث الأسوأ وهو الأقبح كما أن الحسنى تأنيث الأحسن ، ومحلها رفع على أنها اسم " كان " عند من نصب { ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ } [الروم : 10] على الخبر ونصب عند من رفعها ، والمعنى أنهم عوقبوا في الدنيا بالدمار ثم كانت عاقبتهم السوأ ، إلا أنه وضع المظهر وهو الذين أساؤوا موضع المضمر أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة وهي النار التي أعدت للكافرين { أَن كَذَّبُوا } [الروم : 10] لأن كذبوا أو بأن وهو يدل على أن معنى أساؤوا كفروا { ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ } [الروم : 10] يعني ثم كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم
387
جزء : 3 رقم الصفحة : 387

(214/3)

{ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ } [يونس : 34] ينشئهم { ثُمَّ يُعِيدُهُ } [العنكبوت : 19] يحييهم بعد الموت { ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [البقرة : 28] وبالياء : أبو عمرو وسهل.

{ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ } [الروم : 12] ييأس ويتحير.

يقال : ناظرته فأبلس إذا لم ينبس ويئس من أن يحتج { الْمُجْرِمُونَ } المشركون { وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآ ئِهِمْ } [الروم : 13] من الذين عبدوهم من دون الله.
وكتب { شُفَعَاؤا } في المصحف بواو قبل الألف كما كتب علماء بني إسرائيل وكذلك كتبت السوأى بالألف قبل الياء إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها { وَكَانُوا بِشُرَكَآ ئِهِمْ كَافِرِينَ } [الروم : 13] أي يكفرون بآلهتهم ويجحدونها أو وكانوا في الدنيا كافرين بسببهم.
{ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئاذٍ يَتَفَرَّقُونَ } [الروم : 14] الضمير في يتفرقون للمسلمين والكافرين لدلالة ما بعده عليه حيث قال { فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ } [الروم : 15] أي بستان وهي الجنة ، والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه { يُحْبَرُونَ } يسرون.
يقال : حبره إذا سره سروراً تهلل له وجهه وظهر فيه أثره ، ثم اختلف فيه لاحتمال وجوه المسار فقيل يكرمون ، وقيل يحلون ، وقيل هو السماء في الجنة { وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَآىِ الاخِرَةِ } [الروم : 16] أي البعث { فَأُوالَائكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ } [الروم : 16] مقيمون لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم كقوله : { وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا } [المائدة : 37].
لما ذكر الوعد والوعيد أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد وينجي من الوعيد فقال { فَسُبْحَانَ اللَّهِ } [الروم : 17] والمراد بالتسبيح ظاهره الذي هو تنزيه الله من السوء

والثناء عليه بالخير في هذه الأوقات لما يتجدد فيها من نعمة الله الظاهرة أو الصلاة ، فقيل لابن عباس : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ فقال : نعم وتلا هذه الآية.
وهو نصب على المصدر والمعنى نزهوه عما لا يليق به أوصلوا لله { حِينَ تُمْسُونَ } [الروم : 17] صلاة المغرب والعشاء { وَحِينَ تُصْبِحُونَ } [الروم : 17] صلاة الفجر
جزء : 3 رقم الصفحة : 388
{ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [الروم : 18] اعتراض ومعناه أن على المميزين كلهم من أهل السماوات والأرض أن يحمدوه ، وفي السماوات حال من الحمد { وَعَشِيًّا } صلاة العصر وهو معطوف على حين تمسون ، وقوله عشياً متصل بقوله حين تمسون { وَحِينَ تُظْهِرُونَ } [الروم : 18] صلاة الظهر أظهر أي دخل في وقت الظهيرة ، والقول الأكثر أن الصلوات الخمس فرضت بمكة { يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ } [الأنعام : 95] الطائر من البيضة أو الإنسان من النطفة أو المؤمن من الكافر { وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ } [يونس : 31] أي البيضة من الطائر أو النطفة من الإنسان أو الكافر من المؤمن ، والميت بالتخفيف فيهما : مكي وشامي وأبو عمرو وأبو بكر وحماد ، وبالتشديد : غيرهم { وَفِى الارْضِ } بالنبات { بَعْدَ مَوْتِهَآ } [الروم : 50] يبسها { وَكَذَالِكَ تُخْرَجُونَ } [الروم : 19] تخرجون حمزة وعلي وخلف ، أي ومثل ذلك الإخراج تخرجون من قبوركم.
والكاف في محل النصب بـ تخرجون ، والمعنى أن الإبداء والإعادة يتساويان في قدرة من هو قادر على إخراج الميت من الحي وعكسه.

روى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال " من قرأ فسبحان الله حين تمسون إلى الثلاث ، وأخر سورة والصافات دبر كل صلاة كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء وقطر الأمطار وورق الأشجار وتراب الأرض ، فإذا مات أجري له بكل حرف عشر حسنات في قبره " قال عليه السلام " من قرأ حين يصبح فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون إلى قوله وكذلك تخرجون أدرك ما فاته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته " .

ومن آياته ومن علامات ربوبيته وقدرته { أَنْ خَلَقَكُم } [الروم : 20] أي أباكم

389

{ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ } [الروم : 20] أي آدم وذريته { تَنتَشِرُونَ } تنصرفون فيما فيه معاشكم ، وإذا للمفاجأة وتقديره : ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض.

جزء : 3 رقم الصفحة : 389

(215/3)

{ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا } [الروم : 21] أي حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال ، أو من شكل أنفسكم وجنسها لا من جنس آخر وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الإلف والسكون وما بين الجنسين المختلفين من التنافر.

يقال : سكن إليه إذا مال إليه { وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً } [الروم : 21] أي جعل بينكم التواد والتراحم بسبب الزواج.

وعن الحسن : المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد.

وقيل : المودة للشابة والرحمة للعجوز.

وقيل : المودة والرحمة من الله والفرك من الشيطان أي بغض المرأة زوجها وبغض الزوج المرأة { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاياَتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الرعد : 3] فيعلمون أن قوام الدنيا بوجود التناسل { وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ } [الروم : 22] أي اللغات أو أجناس النطق وأشكاله { وَأَلْوَانِكُمْ } كالسواد والبياض وغيرهما ، ولاختلاف ذلك وقع التعارف وإلا فلو تشاكلت واتفقت لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت المصالح ، وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله متفاوتون.

{ إِنَّ فِى ذَالِكَ لاياَتٍ لِّلْعَالِمِينَ } [الروم : 22] للعالمين جمع " عالم " ، وبكسر اللام : حفص عالم ويشهد للكسر قوله تعالى { وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلا الْعَالِمُونَ } [العنكبوت : 43] { وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِ } [الروم : 23] هذا من باب اللف ، وترتيبه ومن آياته منامكم وابتغاؤكم

من فضله بالليل والنهار إلا أنه فصل بين القرينين الأولين بالقرينين الآخرين ، أو المراد منامكم في الزمانين وابتغاؤكم فيهما ،

390

والجمهور على الأول لتكرره في القرآن وأسد المعاني ما دل عليه القرآن { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاياَتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [يونس : 67] أي يسمعون سماع تدبر باذان واعية.

جزء : 3 رقم الصفحة : 390

{ وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ } [الروم : 24] في يريكم وجهان : إضمار أن كما في حرف ابن مسعود رضي الله عنه وإنزال الفعل منزلة المصدر وبهما فسر المثل " تسمع بالمعيدي خير من أن تراه " أي أن تسمع أو سماعك { خَوْفًا } من الصاعقة أو من الإخلاف { وَطَمَعًا } في الغيث أو خوفاً للمسافر وطمعاً للحاضر ، وهما منصوبان على المفعول له على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أي إرادة خوف وإرادة طمع ، أو على الحال أي خائفين وطامعين { وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ } [الروم : 24] وبالتخفيف : مكي وبصري ماءً مطراً { وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِ } [الروم : 24] يتفكرون بعقولهم { وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن تَقُومَ } [الروم : 25] تثبت بلا عمد { السَّمَآءُ وَالارْضُ بِأَمْرِهِ } [الروم : 25] أي بإقامته وتدبيره وحكمته { ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ } [الروم : 25] للبعث { دَعْوَةً مِّنَ الارْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ } [الروم : 25] من قبوركم هذا كقوله يريكم في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى كأنه قال : ومن آياته قيام السماوات والأرض واستمساكها بغير عمد ، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة يا أهل القبور أخرجوا ، والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف.

وإنما عطف هذا على قيام السماوات والأرض بـ " ثم " بياناً لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله وهو أن يقول : يا أهل القبور قوموا فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر كما قال { ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ } [الزمر : 68] و " إذا " الأولى للشرط والثانية للمفاجأة وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط ومن الأرض متعلق بالفعل لا بالمصدر.

وقولك " دعوته من مكان كذا " يجوز أن يكون مكانك ويجوز أن يكون مكان صاحبك

391

جزء : 3 رقم الصفحة : 391

{ وَلَهُ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ } [الروم : 26] منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه أو مقرون بالعبودية.

{ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ } [الروم : 27] أي ينشئهم { ثُمَّ يُعِيدُهُ } [العنكبوت : 19] للبعث { وَهُوَ } أي البعث { أَهْوَنُ } أيسر { عَلَيْهِ } عندكم لأن الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء فلم أنكرتم الإعادة ، وأخرت الصلة في قوله وهو أهون عليه وقدمت في قوله : و { هُوَ عَلَىَّ هَيّنٌ } [مريم : 9].
لقصد الاختصاص هناك ، وأما هنا فلا معنى للاختصاص.
وقال أبو عبيدة والزجاج وغيرهما الأهون بمعنى الهين فيوصف به الله عز وجل وكان ذلك على الله يسيراً كما قالوا : الله أكبر أي كبير ، والإعادة في نفسها عظيمة ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء ، أو هو أهون على الخلق من الإنشاء لأن قيامهم بصيحة واحدة أسهل من كونهم نطفاً ثم علقاً ثم مضغ إلى تكميل خلقهم { وَلَهُ الْمَثَلُ الاعْلَى فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [الروم : 27] أي الوصف الأعلى الذي ليس لغيره وقد عرف به ووصف في السماوات والأرض على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل ، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات ويدل عليه قوله { وَهُوَ الْعَزِيزُ } [إبراهيم : 4] أي القاهر لكل مقدور { الْحَكِيمُ } الذي يجري كل فعل على قضايا حكمته وعلمه.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما : المثل الأعلى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى : 11] .
جزء : 3 رقم الصفحة : 392
وعن مجاهد : هو قول لا إله إلا الله.
ومعناه وله الوصف الأرفع الذي هو الوصف بالوحدانية ويعضده قوله { ضَرَبَ لَكُم مَّثَلا مِّنْ أَنفُسِكُمْ } [الروم : 28] فهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن جعل له
392
شريكاً من خلقه.
و " من " للابتداء كأنه قال : أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم { هَل لَّكُم } [الروم : 28] معاشر الأحرار { مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم } [الروم : 28] عبيدكم و " من " للتبعيض { مِّن شُرَكَآءَ } [الروم : 28] " من " مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي ومعناه : هل ترضون لأنفسكم وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد أن يشارككم بعضهم { فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ } [الروم : 28] من الأموال وغيرها { فَأَنتُمْ } معاشر الأحرار والعبيد { فِيهِ } في ذلك الرزق { سَوَآءٌ } من غير تفصلة بين حر وعبد يحكم مماليككم في أموالكم كحكمكم { تَخَافُونَهُمْ } حال من ضمير الفاعل في سواء أي متساوون خائفاً بعضكم بعضاً مشاركته في المال ، والمعنى : تخافون معاشرة السادة عبيدكم فيها فلا تمضون فيها حكماً دون إذنهم خوفاً من لائمة تلحقكم من جهتهم { كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ } [الروم : 28] يعني كما يخاف بعض الأحرار بعضاً فيما هو مشترك بينهم ، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء؟ { كَذَالِكَ } موضع الكاف نصب أي مثل هذا التفصيل { نُفَصّلُ الايَاتِ } [يونس : 24] نبينها لأن

التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها { لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [البقرة : 164] يتدبرون في ضرب الأمثال فلما لم ينزجروا أضرب عنهم فقال

جزء : 3 رقم الصفحة : 392

{ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا } [الروم : 29] أنفسهم بما أشركوا كما قال الله تعالى : { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13].

{ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ } [الروم : 29] أي اتبعوا أهواءهم جاهلين { فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ } [الروم : 29] أي أضله الله تعالى { وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ } [آل عمران : 22] من العذاب.

{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ } [الروم : 30] فقوم وجهك له وعد له غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً ، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه واهتمامه بأسبابه ، فإن من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه وسدد إليه نظره وقوم له وجهه { حَنِيفًا } حال عن

393

(217/3)

المأمور أو من الدين { فَأَقِمْ وَجْهَكَ } [الروم : 30] أي الزموا فطرة الله والفطرة الخلقة ، ألا ترى إلى قوله { لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } [الروم : 30] فالمعنى أنه خلقهم قابلين للتوحيد والإسلام غير نائين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوباً للعقل مساوقاً للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر ، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الجن والإنس ومنه قوله عليه السلام " كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بي غيري " وقوله عليه السلام " كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه " (2) وقال الزجاج : معناه أن الله تعالى فطر الخلق على الإيمان به على ما جاء في الحديث " إن الله عز وجل آخرج من صلب آدم كالذر وأشهدهم على أنفسهم بأنه خالقهم " فقال وإذ أخذ ربك إلى قوله { قَالُوا بَلَى } [الأعراف : 172] وكل مولود هو من تلك الذرية التي شهدت بأن الله تعالى خالقها.

فمعنى فطرة الله دين الله { الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } [الروم : 30] أي خلق { لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } [الروم : 30] أي ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة أو تغير.

وقال الزجاج : معناه لا تبديل لدين الله ويدل عليه ما بعده وهو قوله { ذَالِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } [التوبة : 36] أي المستقيم { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [الأعراف : 187] حقيقة ذلك.

جزء : 3 رقم الصفحة : 393

{ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ } [الروم : 33] راجعين إليه وهو حال من الضمير في " الزموا " ، وقوله واتقوه وأقيموا ولا تكونوا معطوف على هذا المضمر ، أو من قوله فأقم وجهك لأن الأمر له عليه السلام أمر لأمته

فكأنه قال : فأقيموا وجوهكم منيبين إليه ، أو التقدير كونوا منيبين دليله قوله ولا تكونوا { وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَواةَ } [الروم : 31] أي أدوها في أوقاتها { وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الروم : 31] ممن يشرك به غيره في العبادة { مِنَ الَّذِينَ } [النساء : 51] بدل من المشركين بإعادة الجار { فَرَّقُوا دِينَهُمْ } [الروم : 32] جعلوه أدياناً

394

مختلفة لاختلاف أهوائهم فارقوا حمزة وعلي وهي قراءة علي رضي الله عنه أي تركوا دين الإسلام { وَكَانُوا شِيَعًا } [الروم : 32] فرقاً كل واحدة تشايع إمامها الذي أضلها { كُلُّ حِزْب } [المؤمنون : 53] منهم { بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [المؤمنون : 53] فرح بمذهبه مسرور يحسب باطله حقاً.

جزء : 3 رقم الصفحة : 394

{ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ } [الروم : 33] شدة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك { دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً } [الروم : 33] أي خلاصاً من الشدة { إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } [الروم : 33] في العبادة { لِيَكْفُرُوا } هذه لام كي.

وقيل : لام الأمر للوعيد { لِيَكْفُرُوا بِمَآ } [النحل : 55] من النعم { فَتَمَتَّعُوا } بكفركم قليلاً أمر وعيد { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [الأعراف : 123] وبال تمتعكم { أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا } [الروم : 35] حجة { فَهُوَ يَتَكَلَّمُ } [الروم : 35] وتكلمه مجاز كما تقول " كتابه ناطق بكذا " وهذا مما نطق به القرآن ، ومعناه الشهادة كأنه قال : فهو يشهد بشركهم وبصحته { بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } [الروم : 35] " ما " مصدرية أي بكونهم بالله يشركون ، أو موصولة ويرجع الضمير إليها أي فهو يتكلم بالأمر الذي بسببه يشركون ، أو معنى الآية أم أنزلنا عليهم ذا سلطان أي ملكاً معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون { وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً } [الروم : 36] أي نعمة من مطر أوسعة أوصحة { فَرِحُوا بِهَا } [الروم : 36] بطروا بسببها { وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ } [الروم : 36] أي بلاء من جدب أو ضيق أو مرض { بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } [الروم : 36] بسبب شؤم معاصيهم { إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } [الروم : 36] من الرحمة و إذا المفاجأة جواب الشرط نابت عن الفاء لتاخيهما في التعقيب.

395

(218/3)

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَالِكَ لاياَتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الروم : 37] أنكر عليهم بأنهم قد علموا بأنه القابض الباسط فما لهم يقنطون من رحمته ، وما لهم لا يرجعون إليه تائبين عن المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها حتى يعيد إليهم رحمته ولما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك فقال

جزء : 3 رقم الصفحة : 395
{ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى } [الإسراء : 26] أعط قريبك { حَقَّهُ } من البر والصلة { وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ } [الانفال : 41] نصيبهما من الصدقة المسماة لهما ، وفيه دليل وجوب النفقة للمحارم كما هو مذهبنا { ذَالِكَ } أي إيتاء حقوقهم { خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ } [الروم : 38] أي ذاته أي يقصدون بمعروفهم أياه خالصاً { وَأُوالَـائكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [البقرة : 5].
{ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِى أَمْوَالِ النَّاسِ } [الروم : 39] يريد وما أعطيتم أكلة الربا من رباً ليربوا في أموالهم { فَلا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ } [الروم : 39] فلا يزكوا عند الله ولا يبارك فيه.
وقيل : هو من الربا الحلال أي وما تعطونه من الهدية لتأخذوا أكثر منها فلا يربوا عند الله لأنكم لم تريدوا بذلك وجه الله { وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَواةٍ } [الروم : 39] صدقة { تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ } [الروم : 39] تبتغون به وجهه خالصاً لا تطلبون به مكافأة ولا رياء ولا سمعة { فَأُوالَـائكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } [الروم : 39] ذوو الإضعاف من الحسنات ونظير المضعف المقوى والموسر لذي القوة واليسار.
أتيتم من ربا بلامد : مكي أي وما غشيتموه من إعطاء ربا مدني أي لتزيدوا في أموالهم.
وقوله فأولئك هم المضعفون التفات حسن لأنه يفيد التعميم كأنه قيل : من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين.
والمعنى المضعفون به لأنه لا بد له من ضمير يرجع إلى " ما " الموصولة.
وقال الزجاج : في قوله فأولئك هم المضعفون أي فأهلها هم المضعفون أي هم الذي يضاعف لهم الثواب يعطون بالحسنة عشر أمثالها.
ثم أشار إلى عجز آلهتهم فقال
396
جزء : 3 رقم الصفحة : 396

(219/3)

{ الْمُضْعِفُونَ * اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ } [الروم : 40] مبتدأ وخبر { ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ } [الروم : 40] أي هو المختص بالخلق والرزق والإماتة والإحياء { هَلْ مِن شُرَكَآ ئِكُم } [يونس : 34] أي أصنامكم التي زعمتم أنهم شركاء لله { مَّن يَفْعَلُ مِن ذَالِكُم } [الروم : 40] أي من الخلق والرزق والإماتة والإحياء { مِّن شَىْءٍ } [الذاريات : 42] أي شيئاً من تلك الأفعال فلم يجيبوا عجزاً فقال استبعاداً { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [يونس : 18] و " من " الأولى والثانية والثالثة كل واحدة منهن مستقلة بتأكيد لتعجيز شركائهم وتجهيل عبدتهم { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [الروم : 41] نحو القحط وقلة الأمطار والريع في الزراعات والربح في التجارات ووقوع الموتان في الناس والدواب

وكثرة الحرق والغرق ومحق البركات من كل شيء { بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ } [الروم : 41] بسبب معاصيهم وشركهم كقوله : { وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } [الشورى : 30] { لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا } [الروم : 41] أي ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة ، وبالنون عن قنبل { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [آل عمران : 72] عما هم عليه من المعاصي.

ثم أكد تسبيب المعاصي لغضب الله ونكاله بقوله { قُلْ سِيرُوا فِى الارْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ } [الروم : 42] حيث أمرهم بأن يسيروا فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاقهم سوء العاقبة بمعصايهم { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ } [الروم : 43] البليغ الاستقامة الذي لا يتأتى فيه عوج { مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ } [الروم : 43] هو مصدر بمعنى الرد { مِنَ اللَّهِ } [الجن : 22] يتعلق بيأتي والمعنى من قبل أن يأتي من الله يوم لا يرده أحد كقوله تعالى : { فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا } أو

بمرد على معنى لا يرده هو بعد أن يجيء به ولا رد له من جهته { يَوْمَاإِذٍ يَصَّدَّعُونَ } [الروم : 43] يتصدعون أي يتفرقون.

ثم أشار إلى غناه عنهم.

{ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ } [الروم : 44] أي وبال كفره { وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلانفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ } [الروم : 44] أي يسوون لأنفسهم ما يسويه لنفسه الذي يمهد لنفسه فراشه ويوطئه لئلا يصيبه في مضجعه ما ينغص عليه مرقده من نتوء وغيره ، والمعنى أنه يمهد لهم الجنة بسبب أعمالهم فأضيف إليهم.

وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على أن ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر ، ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تجاوزه.

ليجزى متعلق بـ يمهدون تعليل له وتكرير { الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [البقرة : 25] وترك الضمير إلى الصريح لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن { مِّن فَضْلِهِ } [النساء : 32] أي عطائه.

وقوله { إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ } [الروم : 45] تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس { وَمِنْ ءَايَاتِهِ } [الروم : 25] أي ومن آيات قدرته { أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ } [الروم : 46] هي الجنوب والشمال والصبا وهي رياح الرحمة ، وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله عليه السلام " اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً " وقد عدد الفوائد في إرسالها فقال { مُبَشِّرَاتٍ } أي أرسلها للبشارة بالغيث { وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ } [الروم : 46] ولإذاقة الرحمة وهي نزول المطر وحصول الخصب الذي يتبعه والروح الذي مع هبوب الريح وزكاء الأرض وغير ذلك.

وليذيقكم معطوف على مبشرات على المعنى كأنه قيل : ليبشركم وليذيقكم { وَلِتَجْرِىَ الْفُلْكُ } [الروم : 46] في البحر عند هبوبها { بِأَمْرِهِ } أي بتدبيره أو بتكوينه كقوله { إِنَّمَآ أَمْرُهُا إِذَآ أَرَادَ شيئا } [يس : 82] الآية.

{ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ } [النحل : 14] يريد تجارة البحر { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [البقرة : 185] ولتشكروا نعمة الله فيها.

398

جزء : 3 رقم الصفحة : 398

(220/3)

{ بِالْبَيِّنَاتِ } أي فآمن بهم قوم وكفر بهم قوم ، ويدل على هذا الإضمار قوله { فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا } [الروم : 47] أي كفروا بالإهلاك في الدنيا { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } [الروم : 47] أي وكان نصر المؤمنين حقاً علينا بإنجائهم مع الرسل.

وقد يوقف على حقاً ومعناه وكان الانتقام منهم حقاً ثم يبدأ علينا نصر المؤمنين والأول أصح { اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ } [الروم : 48] الريح مكي { فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ } [الروم : 48] أي السحاب { فِى السَّمَآءِ } [آل عمران : 5] أي في سمت السماء وشقها كقوله { وَفَرْعُهَا فِى السَّمَآءِ } [إبراهيم : 24] { كَيْفَ يَشَآءُ } [آل عمران : 6] من ناحية الشمال أو الجنوب أو الدبور أو الصبا { وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا } [الروم : 48] قطعاً جمع كسفة أي يجعله منبسطاً يأخذ وجه السماء مرة ويجعله قطعاً متفرقة غير منبسطة مرة.

كسفا يزيد وابن ذكوان { فَتَرَى الْوَدْقَ } [النور : 43] المطر { يُخْرِجُ } في التارتين جميعاً { مِنْ خِلَالِهِ } [الروم : 48] وسطه { فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ } [الروم : 48] بالودق { مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ } [الروم : 48] يريد إصابة بلادهم وأراضيهم { إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [الروم : 48] يفرحون.

جزء : 3 رقم الصفحة : 399

{ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم } [الروم : 49] المطر { مِّن قَبْلِهِ } [الإسراء : 107] كرر للتأكيد كقوله : { فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا } [الحشر : 17] ومعنى التوكيد فيها الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول فاستحكم بأسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك { لَمُبْلِسِينَ } ايسين { فَانظُرْ إِلَى ءَاثَارِ } [الروم : 50] شامي وكوفي غير أبي بكر.

وغيرهم { أَثَرِ } { رَحْمَتِ اللَّهِ } [الزمر : 53] أي المطر { كَيْفَ يُحْىِ الارْضَ } بالنبات وأنواع الثمار { بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَالِكَ } [الروم : 50]

399

أي الله { فَانظُرْ إِلَى } [الروم : 50] يعني أن ذلك القادر الذي يحيي الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم ، فهذا استدلال بإحياء الموات على إحياء الأموات { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [المائدة : 120] أي وهو على كل شيء من المقدورات قادر وهذا من جملة المقدورات بدليل

الإنشاء.
جزء : 3 رقم الصفحة : 399

(221/3)

{ وَلَـاٰإِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا } [الروم : 51] أي الدبور { فَرَأَوْهُ } أي أثر رحمه الله لأن رحمة الله هي الغيث وأثرها النبات.
ومن قرأ بالجمع رجع الضمير إلى معناه لأن معنى اثار الرحمة النبات واسم النبات يقع على القليل والكثير لأنه مصدر سمي به ما ينبت { مُصْفَرًّا } بعد اخضراره.
وقال مصفرا لأن تلك صفرة حادثة.
وقيل : فرأوا السحاب مصفراً لأن السحاب الأصفر لا يمطر.
واللام في لئن موطئه للقسم دخلت على حرف الشرط ، وسد مسد جوابي القسم والشرط { لَّظَلُّوا } ومعناه ليظلن { مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ } [الروم : 51] أي من بعد اصفراره أو من بعد الاستبشار ، ذمهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم المطر قنطوا من رحمته وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين ، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر استبشروا ، فإذا أرسل ريحاً فضرب زروعهم بالصفار ضجوا وكفروا بنعمة الله فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة ، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله فقنطوا ، وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها ففرحوا ، وأن يصبروا على بلائه فكفروا.
{ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى } [الروم : 52] أي موتى القلوب أو هؤلاء في حكم الموتى فلا تطمع أن يقبلوا منك { وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ } [النمل : 80] ولا يسمع الصم مكي { إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } [النمل : 80] فإن قلت : الأصم لا يسمع مقبلاً أو مدبراً ، فما فائدة هذا التخصيص؟ قلت : هو إذا كان مقبلاً يفهم بالرمز بالإشارة فإذا ولى لا يسمع ولا يفهم بالإشارة { وَمَآ أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ } [الروم : 53] أي عمى القلوب ، وما أنت تهدى العمي حمزة { عَن ضَلَـالَتِهِمْ } [النمل : 81] أي لا يمكنك أن تهدي الأعمى إلى طريق قد ضل عنه بإشارة منك له إليه { إِن تُسْمِعُ } [النمل : 81] ما تسمع { وَمَآ أَنتَ بِهَادِى الْعُمْيِ عَن ضَلَـالَتِهِمْ } [النمل : 81] منقادون لأوامر الله تعالى.
400
جزء : 3 رقم الصفحة : 400
{ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ } [الروم : 54] من النطف كقوله { مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ } [السجدة : 8] { ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً } [الروم : 54] يعني حال الشباب وبلوغ الأشد { ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً } [الروم : 54] يعني حال الشيخوخة والهرم { يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ } [آل عمران : 47] من ضعف وقوة وشباب وشيبة { وَهُوَ الْعَلِيمُ } [التحريم : 2] بأحوالهم { الْقَدِيرُ } على تغييرهم وهذا

الترديد في الأحوال أبين دليل على الصانع العليم القدير.
فتح الضاد في الكل : عاصم وحمزة ، وضم غيرهما وهو اختيار حفص ، وهما لغتان والضم أقوى في القراءة لما روي عن ابن عمر قال : قرأتها على رسول الله صلى الله عليه وسلّم من ضعف فأقرأني من ضُعفٍ.
{ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ } [غافر : 46] أي القيامة سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ، أو لأنها تقع بغتة كما تقول في ساعة لمن تستعجله وجرت علماً لها كالنجم للثريا { يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ } [الروم : 55] يحلف الكافرون ، ولا وقف عليه لأن { مَا لَبِثُوا } [الروم : 55] في القبور أو في الدنيا { غَيْرَ سَاعَةٍ } [الروم : 55] جواب القسم استقلوا مدة لبثهم في القبور أو في الدنيا لهول يوم القيامة وطول مقامهم في شدائدها أو ينسون أو يكذبون { كَذَالِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ } [الروم : 55] أي مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق إلى الكذب في الدنيا ويقولون ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.
جزء : 3 رقم الصفحة : 401
{ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالايمَانَ } [الروم : 56] هم الأنبياء والملائكة والمؤمنون { لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَابِ اللَّهِ } [الروم : 56] في علم الله المثبت في اللوح أو في حكم الله وقضائه { إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ } [الروم : 56] ردوا ما قالوه وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة ، ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم { فَهَاذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَاكِنَّكُمْ كُنتُمْ } [الروم : 56] في الدنيا { لا تَعْلَمُونَ } [البقرة : 30] أنه حق لتفريطكم في طلب الحق واتباعه.
والفاء لجواب شرط يدل عليه الكلام تقديره : إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث الذي أنكرتموه
401

(222/3)

جزء : 3 رقم الصفحة : 401
{ فَيَوْمَاإِذٍ لا يَنفَعُ } [الروم : 57] بالياء : كوفي { الَّذِينَ ظَلَمُوا } [البقرة : 165] كفروا { مَعْذِرَتُهُمْ } عذرهم { وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } أي لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة من قولك " استعتبني فلان فأعتبته " أي استرضاني فأرضيته { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَاذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَائِن جِئْتَهُم بِاَايَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلا مُبْطِلُونَ } [الروم : 58] أي ولقد وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم ، ولكنهم لقسوة قلوبهم إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا جئتنا بزور باطل { كَذَالِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ } [الروم : 59] أي مثل

ذلك الطبع وهو الختم يطبع الله على قلوب الجهلة الذين علم الله منهم اختيار الضلال حتى يسموا المحقين مبطلين وهم أعرق خلق الله في تلك الصفة { فَاصْبِرْ } على أذاهم أو عداوتهم { إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ } [غافر : 77] بنصرتك على أعدائك وإظهار دين الإسلام على كل دين { حَقٌّ } لا بد من إنجازه والوفاء به { وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ } [الروم : 60] أي لا يحملنك هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة على الخفة والعجلة في الدعاء عليهم بالعذاب ، أو لا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقولون ويفعلون فإنهم ضلال شاكون لا يستبدع منهم ذلك ولا يستخفنك بسكون النون عن يعقوب.
402

سورة لقمان

مكية وهي ثلاث أو أربع وثلاثون آية

{ الام * تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ } ذي الحكمة أو وصف بصفة الله عز وجل على الإسناد المجازي { هُدًى وَرَحْمَةً } [الأعراف : 52] حالان من الآيات والعامل معنى الإشارة في تلك حمزة بالرفع على أن تلك مبتدأ و آيات الكتاب خبره و هدى خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف أي هو أو هي هدى ورحمة { لِّلْمُحْسِنِينَ } للذين يعملون الحسنات المذكورة في قوله { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَواةَ وَيُؤْتُونَ الزكاة وَهُم بِالاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } ونظيره قول أوس :

الألمعيّ الذي يظن بك الظ

ن كأن قد رأى وقد سمعا

403

أو للذين يعملون جميع ما يحسن.

ثم خص منهم القائمين بهذه الثلاثة لفضلها

جزء : 3 رقم الصفحة : 403

{ أُوْلئك عَلَى هُدًى } [البقرة : 5] مبتدأ وخبر { مِّن رَّبِّهِمُ } [محمد : 3] صفة لـ هدى { وَأُوالَائكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [البقرة : 5] عطف عليه { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ } [لقمان : 6] نزلت في النضر بن الحرث وكان يشتري أخبار الأكاسرة من فارس ويقول : إن محمداً يقص طرفاً من قصة عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث الأكاسرة فيميلون إلى حديثه ويتركون استماع القرآن.

واللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعني ولهو الحديث نحو السمر بالأساطير التي لا أصل لها والغناء وكان ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما يحلفان أنه الغناء.

وقيل : الغناء مفسدة للقلب منفدة للمال مسخطة للرب.

وعن النبي صلى الله عليه وسلّم " ما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين : أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت " والاشتراء من الشراء كما روي عن النضر ، أو من قوله اشتروا الكفر بالإيمان أي استبدلوه منه واختاروه عليه أي يختارون حديث الباطل على حديث الحق.

وإضافة اللهو إلى الحديث للتبيين بمعنى " من " ، لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره فبيّن بالحديث والمراد بالحديث الحديث المنكر كما جاء في الحديث " الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش " أو للتبعيض كأنه قيل : ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو منه.

(223/3)

{ لِّيُضِلَّ } أي ليصد الناس عن الدخول في الإسلام واستماع القرآن ، ليضل مكي وأبو عمرو أي ليثبت على ضلاله الذي كان عليه ويزيد فيه { عَن سَبِيلِ اللَّهِ } [محمد : 1] عن دين الإسلام والقرآن { بِغَيْرِ عِلْمٍ } [النحل : 25] أي جهلاً منه بما عليه من الوزر به { وَيَتَّخِذَهَا } أي السبيل بالنصب كوفي غير أبي بكر عطفاً على ليضل ومن رفع عطفه على يشتري { هُزُوًا } بسكون الزاي والهمزة : حمزة ، وبضم الزاي بلا
404
همز : حفص ، وغيرهم بضم الزاي والهمزة { أولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } [لقمان : 6] أي يهينهم و " من " لإبهامه يقع على الواحد والجمع أي النضر وأمثاله
جزء : 3 رقم الصفحة : 404
{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا } [لقمان : 7] أعرض عن تدبرها متكبراً رافعاً نفسه عن الإصغاء إلى القرآن { كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا } [الجاثية : 8] يشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو حال من مستكبرا والأصل كأنه والضمير ضمير الشأن { كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا } [لقمان : 7] ثقلاً وهو حال من لم يسمعها أذنيه : نافع { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ } ولا وقف عليه لأن { خَالِدِينَ فِيهَآ } [الجن : 23] حال من الضمير في لهم { وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا } [يونس : 4] مصدران مؤكدان الأول مؤكد لنفسه والثاني مؤكد لغيره إذ لهم جنات النعيم في معنى وعدهم الله جنات النعيم ، فأكد معنى الوعد بالوعد ، و حقاً يدل على معنى الثبات فأكد به معنى الوعد ومؤكدهما لهم جنات النعيم { وَهُوَ الْعَزِيزُ } [إبراهيم : 4] الذي لا يغلبه شيء فيهين أعداءه بالعذاب المهين { الْحَكِيمُ } بما يفعل فيثيب أولياءه بالنعيم المقيم.
جزء : 3 رقم الصفحة : 405
{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ } [لقمان : 10] جمع عماد { تَرَوْنَهَا } الضمير للسماوات وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله بغير عمد كما تقول لصاحبك " أنا بلا سيف ولا رمح تراني " ، ولا محل لها من الأعراب لأنها مستأنفة أو في محل الجرصفة لـ عمد أي بغير عمد مرئية يعني أنه

عمدها بعمد لا ترى وهي إمساكها بقدرته { وَأَلْقَى فِى الارْضِ رَوَاسِىَ } جبالاً ثوابت { أَن تَمِيدَ بِكُمْ } [النحل : 15] لئلا تضطرب بكم { وَبَثَّ } ونشر { فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنابَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ } [لقمان : 10] صنف { كَرِيمٍ } حسن { هَاذَا } إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته { خَلَقَ اللَّهُ } [يونس : 5] أي مخلوقه

405

{ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ } [لقمان : 11] يعني الهتهم بكّتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله ، فأروني ما خلقته الهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة { بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [لقمان : 11] أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورط في ضلال ليس بعده ضلال.

جزء : 3 رقم الصفحة : 405

(224/3)

{ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ } [لقمان : 12] وهو لقمان ابن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته.

وقيل : كان من أولاد ازر وعاش ألف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام ، فلما بعث قطع الفتوى فقيل له فقال : ألا أكتفي إذا كفيت؟ وقيل : كان خياطاً.

وقيل نجاراً وقيل راعياً وقيل ، كان قاضياً في بني إسرائيل.

وقال عكرمة والشعبي : كان نبياً.

والجمهور على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً.

وقيل : خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة وهي الإصابة في القول والعمل.

وقيل : تتلمذ لألف وتتلمذ له ألف نبي.

و " أن " في { أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ } [لقمان : 12] مفسرة والمعنى أي اشكر الله لأن إيتاء الحكمة في معنى القول ، وقد نبه الله تعالى على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له حيث فسر إيتاء الحكمة بالحث على الشكر.

وقيل : لا يكون الرجل حكيماً حتى يكون حكيماً في قوله وفعله ومعاشرته وصحبته ، وقال السري السقطي : الشكر أن لا تعصي الله بنعمه.

وقال الجنيد : أن لا ترى معه شريكاً في نعمه.

وقيل : هو الإقرار بالعجز عن الشكر.

والحاصل أن شكر القلب المعرفة ، وشكر اللسان الحمد ، وشكر الأركان الطاعة ، ورؤية العجز في الكل دليل قبول الكل.

{ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ } [لقمان : 12] لأن منفعته تعود إليه فهو يريد المزيد { وَمَن كَفَرَ } [النور : 55] النعمة { فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ } [لقمان : 12] غير محتاج إلى الشكر { حَمِيدٌ } حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد { وَإِذْ } أي واذكر إذ { قَالَ لُقْمَانُ ابْنِهِ } [لقمان : 13] أنعم أواشكم { وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَىَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13–31] بالإسكان مكي يا بني حفص بفتحه في كل القرآن

406

{ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا وهي منه ومن لا نعمة له أصلاً.

جزء : 3 رقم الصفحة : 406

{ وَوَصَّيْنَا الانسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ } [لقمان : 14] أي حملته تهن وهناً على وهن أي تضعف ضعفاً فوق ضعف أي يتزايد ضعفها ويتضاعف لأن الحمل كلما ازداد أو عظم ازدادت ثقلاً وضعفاً { وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ } [لقمان : 14] أي فطامه عن الرضاع لتمام عامين { أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ } [لقمان : 14] هو تفسير لـ وصينا أي وصيناه بشكرنا وبشكر والديه.

وقوله حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين اعتراض بين المفسر والمفسر لأنه لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق في حمله وفصاله هذه المدة الطويلة تذكير " بحقها العظيم مفرداً " .

وعن ابن عيينة : من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله ، ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكرهما { إِلَىَّ الْمَصِيرُ } [لقمان : 14] أي مصيرك إليّ وحسابك عليّ.

{ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [لقمان : 15] أراد بنفي العلم به نفيه أي لا تشرك بي ما ليس بشيء يريد الأصنام { فَلا تُطِعْهُمَآ } [لقمان : 15] في الشرك { وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا } [لقمان : 15] صفة مصدر محذوف أي صحاباً معروفاً حسناً بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة { وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ } [لقمان : 15] أي سبيل المؤمنين في دينك ولا تتبع سبيلهما فيه وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما في الدنيا.

وقال ابن عطاء : صاحب من ترى عليه أنوار خدمتي.

{ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ } [آل عمران : 55] أي مرجعك ومرجعهما { فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [العنكبوت : 8] فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما.

وقد اعترض بهاتين الآيتين على سبيل الاستطراد تأكيداً لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك يعني إنا وصيناه بوالديه وأمرناه أن لا يطيعهما في الشرك وإن جهداً كل الجهد لقبحه.

407

جزء : 3 رقم الصفحة : 407

{ يَابُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ } [لقمان : 16] بالرفع : مدني ، والضمير للقصة وأنت

المثقال لإضافته إلى الحبة كما قال :
كما شرقت صدر القناة من الدم

(225/3)

و " كان " تامة والباقون بالنصب والضمير للهنة من الإساءة والإحسان أي إن كانت مثلاً في الصغر كحبة خردل { فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَاوَاتِ أَوْ فِى الارْضِ } [لقمان : 16] أي فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة ، أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي والأكثر على أنها التي عليها الأرض وهي السجين يكتب فيها أعمال الفجار وليست من الأرض { يَأْتِ بِهَا اللَّهُ } يوم القيامة فيحاسب بها عاملها { إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ } [الحج : 63] بتوصل علمه إلى كل خفي { خَبِيرٌ } عالم بكنهه أو لطيف باستخراجها خبير بمستقرها { يَابُنَىَّ أَقِمِ الصَّلَواةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَآ أَصَابَكَ } [لقمان : 17] في ذات الله تعالى إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، أو على ما أصابك من المحن فإنها تورث المنح { إِنَّ ذَالِكَ } [الحج : 70] الذي وصيتك به { مِنْ عَزْمِ الامُورِ } [آل عمران : 186] أي مما عزمه الله من الأمور أي قطعه قطع إيجاب وإلزام أي أمر به أمراً حتماً ، وهو من تسمية المفعول بالمصدر وأصله من معزومات الأمور أي مقطوعاتها ومفروضاتها ، وهذا دليل على أن هذه الطاعات كانت مأموراً بها في سائر الأمم.

{ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ } [لقمان : 18] أي ولا تعرض عنهم تكبراً.

تصاعر أبو عمرو ونافع وحمزة وعلي ، وهو بمعنى تصعّر ، والصعر داء يصيب البعير يلوي منه عنقه والمعنى : أقبل على الناس بوجهك تواضعاً ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعله

المتكبرون { وَلا تَمْشِ فِى الارْضِ مَرَحًا } [الإسراء : 37] أي تمرح مرحاً ، أو أوقع المصدر موقع الحال أي مرحاً ، أو ولا تمش لأجل المرح والأشر { إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ } [لقمان : 18] متكبر { فَخُورٌ } من يعدد مناقبة تطاولا

{ وَاقْصِدْ } القصد التوسط بين العلو والتقصير { فِى مَشْيِكَ } [لقمان : 19] أي اعدل فيه حتى يكون مشياً بين مشيين لا تدب دبيب المتماوتين ولا تثب وثوب الشطار.

قال عليه السلام " سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن " وأما قول عائشة في عمر رضي الله عنه : كان إذا مشى أسرع ، فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه : كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى ولكن مشياً بين ذلك.

وقيل : معناه وانظر موضع قدميك متواضعاً { وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ } [لقمان : 19] وانقص منه أي اخفض صوتك { إِنَّ أَنكَرَ الاصْوَاتِ } [لقمان : 19] أي أوحشها { لَصَوْتُ الْحَمِيرِ } [لقمان : 19] لأن أوله زفير وآخره شهيق كصوت أهل النار.

وعن الثوري : صياح كل شيء تسبيح إلا الحمار فإنه يصيح لرؤية الشيطان ولذلك سماه الله منكراً.

وفي تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق تنبيه على أن أرفع الصوت في غاية الكراهة يؤيده ما روي أنه عليه السلام كان يعجبه أن يكون الرجل خفيض الصوت ويكره أن يكون مجهور الصوت.

وإنما وحد صوت الحمير ولم يجمع لأنه لم يرد أن يذكر صوت كل واحد من احاد هذا الجنس حتى يجمع ، بل المراد أن كل جنس من الحيوان له صوت ، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس فوجب توحيده.

{ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَاوَاتِ } [لقمان : 20] يعني الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك { وَمَا فِى الارْضِ } [الشورى : 53] يعني البحار والأنهار والمعادن والدواب وغير

409

ذلك { وَأَسْبَغَ } وأتم { عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ } [لقمان : 20] مدني وأبو عمرو وسهل وحفص.

نعمة غيرهم والنعمة كل نفع قصد به الإحسان { ظَاهِرَةً } بالمشاهدة { وَبَاطِنَةً } ما لا يعلم إلا بدليل ثم قيل : الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة ، والباطنة القلب والعقل والفهم وما أشبه ذلك.

ويروى في دعاء موسى عليه السلام : إلهي دلني على أخفى نعمتك على عبادك فقال : أخفى نعمتي عليهم النفس.

وقيل : تخفيف الشرائع وتضعيف الذرائع والخلق ونيل العطايا وصرف البلايا وقبول الخلق ورضا الرب.

وقال ابن عباس : الظاهرة ما سوّى من خلقك والباطنة ما ستر من عيوبك.

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ } [الحج : 8] نزلت في النضر بن الحرث وقد مر في " الحج "

(226/3)

جزء : 3 رقم الصفحة : 409

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ } [البقرة : 170] معناه أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم أي في حال دعاء الشيطان

إياهم إلى العذاب.
{ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ } [لقمان : 22] عدّي هنا بـ " إلى " ، وفي { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ } [البقرة : 112] باللام فمعناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله أي خالصاً له ، ومعناه مع " إلى " أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه والمراد التوكل عليه والتفويض إليه { وَهُوَ مُحْسِنٌ } [لقمان : 22] فيما يعمل { فَقَدِ اسْتَمْسَكَ } [البقرة : 256] تمسك وتعلق { بِالْعُرْوَةِ } هي ما يعلق به الشيء { الْوُثْقَى } تأنيث الأوثق مثل حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه { وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الامُورِ } [لقمان : 22] أي هي صائرة إليه فيجازي عليها { وَمَن كَفَرَ } [النور : 55] ولم يسلم وجهه لله { فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُا } [لقمان : 23] من حزن ، يحزنك نافع من أحزن أي لا يهمنك كفر من كفر { إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا } [لقمان : 23]
410
فنعاقبهم على أعمالهم { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [آل عمران : 119] إن الله يعلم ما في صدور عباده فيفعل بهم على حسبه
جزء : 3 رقم الصفحة : 410
{ نُمَتِّعُهُمْ } زماناً { قَلِيلا } بدنياهم { ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ } [لقمان : 24] نلجئهم { إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ } [لقمان : 24] شديد شبه إلزامهم التعذيب وإرهاقهم إياه باضطرار المضطر إلى الشيء ، والغلظ مستعار من الأجرام الغليظة والمراد ، الشدة والثقل على المعذب.
{ وَلَـاِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ } [لقمان : 25] إلزام لهم على إقرارهم بأن الذي خلق السماوات والأرض هو الله وحده ، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر وأن لا يعبد معه غيره.
ثم قال { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [النحل : 75] أن ذلك يلزمهم وإذا نبهوا عليه لم يتنبهوا { لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِىُّ } [لقمان : 26] عن حمد الحامدين { الْحَمِيدِ } المستحق للحمد وإن لم يحمدوه.
قال المشركون : إن هذا أي الوحي كلام سينفذ فأعلم الله أن كلامه لا ينفذ بقوله { وَلَوْ أَنَّمَا فِى الارْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ } [لقمان : 27] والبحر بالنصب أبو عمرو ويعقوب عطفاً على اسم " أن " وهو " ما " ، والرفع على محل " أن " ومعمولها أي ولو ثبت كون الأشجار أقلاماً وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحر ، أو على الابتداء والواو للحال على معنى : ولو أن الأشجار أقلام في حال كون البحر ممدوداً وقرىء يمدّه وكان مقتضى الكلام أن يقال : ولو أن الشجر أقلام والبحر مداد ، لكن أغنى عن ذكر المداد قوله يمده لأنه من قولك " مد الدواة وأمدها " جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة وجعل الأبحر السبعة مملوءة مداداً فهي تصب فيه مدادها

(227/3)

أبداً صباً لا ينقطع.

والمعنى : ولو أن أشجار الأرض أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله لما نفدت كلماته وتفدت الأقلام والمداد كقوله : { قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى } [الكهف : 109].

فإن قلت : زعمت أن قوله والبحر يمده حال في أحد وجهي الرفع وليس فيه ضمير راجع إلى ذي الحال.

قلت : هو كقولك " جئت والجيش مصطف " وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف.

وإنما ذكر شجرة على التوحيد لأنه أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا وقد بريت أقلاماً ، وأوثر الكلمات وهي جمع قلة على الكلم وهي جمع كثرة لأن معناه أن كلمات لا تفي بكتبتهالبحار فكيف بكلمه { أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ } [البقرة : 209] لا يعجزه شيء { حَكِيمٌ } لا يخرج من علمه وحكمته شيء فلا تنفد كلماته وحكمه

جزء : 3 رقم الصفحة : 411

{ مَّا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ } [لقمان : 28] إلا كخلق نفس واحدة وبعث نفس واحدة فحذف للعلم به أي سواء في قدرته القليل والكثير فلا يشغله شأن عن شأن { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعُ } [الحج : 75] لقول المشركين إنه لا بعث { بَصِيرٌ } بأعمالهم فيجازيهم.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ } [لقمان : 29] يدخل ظلمة الليل في ضوء النهاء إذا أقبل الليل { وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ } [لقمان : 29] لمنافع العباد { كُلٌّ } أي كل واحد من الشمس والقمر { يَجْرِى } في فلكه ويقطعه { إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } [نوح : 4] إلى يوم القيامة أو إلى وقت معلوم الشمس إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر { وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [لقمان : 29] وبالياء : عياش.

دل أيضاً بتعاقب الليل والنهار وزيادتهما ونقصانهما وجرى النيرين في فلكيهما على تقدير وحساب وبإحاطته بجميع أعمال الخلق على عظم قدرته وكمال حكمته { ذَالِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ } [الحج : 62] بالياء : عراقي غير أبي بكر

412

{ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ } [لقمان : 30] أي ذلك الوصف الذي وصف به من

عجائب قدرته وحكمته التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون ، فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت الإلهية وأن من دونه باطل الإلهية وأنه هو العلي الشأن الكبير السلطان.

جزء : 3 رقم الصفحة : 412

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ } [لقمان : 31] وقريء { الْفُلْكُ } وكل فعل يجوز فيه فعل كما يجوز في كل فعل فعل { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى } [لقمان : 31] بإحسانه ورحمته أو بالريح لأن الريح من نعم الله { لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَاتِهِ } [لقمان : 31] عجائب قدرته في البحر إذا ركبتموها { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاياَتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ } [إبراهيم : 5] على بلائه { شَكُورٍ } لنعمائه ، وهما صفتا المؤمن فالإيمان نصفان : نصفه شكر ونصفه صبر فكأنه قال : إن في ذلك لآيات لكل مؤمن.

{ وَإِذَا غَشِيَهُم } [لقمان : 32] أي الكفار { مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ } [لقمان : 32] الموج يرتفع فيعود مثل الظلل والظلة كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما { دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ } [لقمان : 32] أي باقٍ على الإيمان والإخلاص الذي كان منه ولم يعد إلى الكفر ، أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر يعني أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط والمقتصد قليل نادر { وَمَا يَجْحَدُ بِاَيَاتِنَآ } [العنكبوت : 49] أي بحقيقتها { إلا كُلُّ خَتَّارٍ } [لقمان : 32] غدار والختر أقبح الغدر { كَفُورٌ } لربه { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ } [

جزء : 3 رقم الصفحة : 413

لقمان : 33] لا يقضي عنه شيئاً والمعنى لا يجزيء فيه فحذف { وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شيئا } [لقمان : 33] وارد

413

(228/3)

على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه لأن الجملة الاسمية اكد من الجملة الفعلية وقد انضم إلى ذلك قوله هو وقوله مولود والسبب في ذلك أن الخطاب للمؤمنين وعليتهم قبض اباؤهم على الكفر فأريد حسم أطماعهم أن ينفعوا اباءهم بالشفاعة في الآخرة.

ومعنى التأكيد لفظ المولود أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته فضلاً أن يشفع لأجداده إذ الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك كذا في الكشاف { إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ } [غافر : 77] بالبعث والحساب والجزاء { حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَواةُ الدُّنْيَا } [لقمان : 33] بزينتها فإن نعمتها دانية ولذتها فانية { وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ } [لقمان : 33]

الشيطان أو الدنيا أو الأمل.
جزء : 3 رقم الصفحة : 413
{ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ } [لقمان : 34] أي وقت قيامها { وَيُنَزِّلُ } بالتشديد : شامي ومدني وعاصم ، وهو عطف على ما يقتضيه الظرف من الفعل تقديره : إن الله يثبت عنده علم الساعة وينزل { الْغَيْثَ } في إبّانه من غير تقديم ولا تأخير { وَيَعْلَمُ مَا فِى الارْحَامِ } أذكر أم أنثى وتام أم ناقص { وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ } [لقمان : 34] برة أو فاجرة { مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا } [لقمان : 34] من خير أو شر وربما كانت عازمة على خير فعملت شراً وعازمة على شر فعملت خيراً { وَمَا تَدْرِى نَفْسُ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ } [لقمان : 34] أي أين تموت؟ وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت لا أبرحها فترمي بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها.
روي أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه فقال الرجل : من هذا؟ فقال له : ملك الموت.
قال : كأنه يريدني وسأل سليمان عليه السلام أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل ثم قال ملك الموت لسليمان : كان دوام نظري إليه تعجباً منه لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك.
وجعل العلم لله والدارية للعبيد لما في الدارية من معنى الختل والحيلة ،
414
والمعنى أنها لا تعرف وإن أعملت حيلها ما يختص بها ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته ، فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتها كان معرفة ماعدتهما أبعد وأما المنجم الذي يخبر بوقت الغيث والموت فإنه يقول بالقياس والنظر في الطالع وما يدرك بالدليل لا يكون غيباً على أنه مجرد الظن والظن غير العلم.
وعن النبي صلى الله عليه وسلّم " مفاتح الغيب خمس " وتلا هذه الآية.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما : من ادّعى علم هذه الخمسة فقد كذب.
ورأى المنصور في منامة صورة ملك الموت وسأله عن مدة عمره فأشار بأصابعه الخمس فعبرها المعبرون بخمس سنوات وبخمسة أشهر وبخمسة أيام فقال أبو حنيفة رضي الله عنه : هو إشارة إلى هذه الآية ، فإن هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا الله { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ } [آل عمران : 119] بالغيوب { خَبِيرٌ } بما كان ويكون.
وعن الزهريّ رضي الله تعالى عنه : أكثروا قراءة سورة لقمان فإن فيها أعاجيب.
415
سورة السجدة
مكية وهي ثلاثون آية مدني وكوفي ، وتسع وعشرون آية بصري

{ الام } على أنها اسم السورة مبتدأ وخبره { تَنزِيلُ الْكِتَابِ } [
جزء : 3 رقم الصفحة : 416

(229/3)

السجدة : 2] وإن جعلتها تعديداً للحروف ارتفع { تَنزِيلُ } بأنه خبر مبتدأ محذوف أو هو مبتدأ خبره { لا رَيْبَ فِيهِ } [الأنعام : 12] أو يرتفع بالابتداء وخبره { مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف : 61] و { لا رَيْبَ فِيهِ } [الأنعام : 12] اعتراض لا محل له ، والضمير في { فِيهِ } راجع إلى مضمون الجملة كأنه قيل : لا ريب في ذلك أي في كونه منزلاً من رب العالمين لأنه معجز للبشر ومثله أبعد شيء من الريب.

ثم أضرب عن ذلك إلى قوله { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ } [السجدة : 3] أي اختلقه محمد لأن " أم " هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة معناه بل أيقولون افتراه إنكاراً لقولهم وتعجيباً منهم لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه { بَلْ هُوَ الْحَقُّ } [السجدة : 3] ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق { مِن رَّبِّكَ } [الأحزاب : 2] ولم يفتره محمد صلى الله عليه وسلّم كما قالوا تعنتاً وجهلاً { لِتُنذِرَ قَوْمًا } [القصص : 46] أي العرب { مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ } [القصص : 46] " ما " للنفي والجملة ضفة لـ { قَوْمًا } { لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } [الأنبياء : 31] على الترجي من رسول الله صلى الله عليه وسلّم كما كان لعله يتذكر على الترجي من موسى وهارون.

416

{ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [السجدة : 4] استولى عليه بإحداثه { مَا لَكُم مِّن دُونِهِ } [السجدة : 4] من دون الله { مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ } [السجدة : 4] أي إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً أي ناصراً ينصركم ولا شفيعاً يشفع لكم { أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ } [الأنعام : 80] تتعظون بمواعظ الله { يُدَبِّرُ الامْرَ } [يونس : 31] أي أمر الدنيا { مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الارْضِ } [السجدة : 5] إلى أن تقوم الساعة { ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ } [السجدة : 5] ذلك الأمر كله أي يصير إليه ليحكم فيه { فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُا أَلْفَ سَنَةٍ } [السجدة : 5] وهو يوم القيامة { مِّمَّا تَعُدُّونَ } [الحج : 47] من أيام الدنيا ولا تمسّك للمشبهة بقوله { إِلَيْهِ } في إثبات الجهة لأن معناه إلى حيث يرضاه أو أمره كما لا تشبث لهم بقوله : { إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى } [الصافات : 99] (الصافات : 99).

{ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى } [العنكبوت : 26] (العنكبوت : 62).

{ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ } [النساء : 100](النساء : 001).

جزء : 3 رقم الصفحة : 416

{ ذَالِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } [السجدة : 6] أي الموصوف بما مر عالم ما غاب عن الخلق وما شاهدوه { الْعَزِيزُ } الغالب أمره { الرَّحِيمُ } البالغ لطفه وتيسيره.

وقيل : لا وقف عليه لأن { الَّذِى } صفته { أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ } [السجدة : 7] أي حسنه لأن كل شيء مرتب على ما اقتضته الحكمة { خَلَقَهُ } كوفي ونافع وسهل على الوصف أي كل شيء خلقه فقد أحسن { خَلَقَهُ } غيرهم على البدل أي أحسن خلق كل شيء { وَبَدَأَ خَلْقَ الانسَانِ } [السجدة : 7] آدم { مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ } ذريته { مِن سُلَالَةٍ } [المؤمنون : 12] من نطفة { مِّن مَّآءٍ } [الطارق : 6] أي مني وهو بدل من { سُلَالَةٍ } { مَّهِينٍ } ضعيف حقير

417

{ ثُمَّ سَوَّاهُ } [السجدة : 9] قومه كقوله { فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } [التين : 4] (التين : 4) { وَنَفَخَ } أدخل { فِيهِ مِن رُّوحِهِ } [السجدة : 9] الإضافة للاختصاص كأنه قال : ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبعلمه { وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالابْصَارَ وَالافْـِٔدَةَ } [النحل : 78] لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا { قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ } [الأعراف : 10] أي تشكرون قليلاً.

جزء : 3 رقم الصفحة : 416

(230/3)

{ وَقَالُوا } القائل أبيّ بن خلف ولرضاهم بقوله أسند إليهم { أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الارْضِ } أي صرنا تراباً وذهبنا مختلطين بتراب الأرض لا نتميز منه كما يضل الماء في اللبن ، أو غبنا في الأرض بالدفن فيها.

وقرأ عليٌّ { ضَلَلْنَا } بكسر اللام يقال : ضل يضل وضل يضل.

وانتصب الظرف في { ضَلَلْنَا فِى } [السجدة : 10] بما يدل عليه { أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيد } وهو نبعث { بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ } [السجدة : 10] جاحدون.

لما ذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه إلى ما هو أبلغ وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة لا بالبعث وحده { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } [السجدة : 11] أي يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بقبض أرواحكم ثم ترجعون إلى ربكم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء وهذا معنى لقاء الله.

والتوفي استيفاء النفس وهي الروح أي يقبض أرواحكم أجمعين من قولك " توفيت حقي من فلان " إذا أخذته وافياً كاملاً من غير نقصان.

وعن مجاهد : حويت لملك الموت الأرض وجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء.

وقيل : ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه ثم يأمر أعوانه بقبضها والله تعالى هو الآمر لذلك كله وهو

الخالق لأفعال المخلوقات.

وهذا وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله { تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا } [الأنعام : 61] (الأنعام : 16) وقوله { اللَّهُ يَتَوَفَّى الانفُسَ حِينَ مَوْتِهَا } [الزمر : 42] (الزمر : 24).

418

{ وَلَوْ تَرَى } [الأنعام : 93] الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلّم أو لكل أحد و " لو " امتناعية والجواب محذوف أي لرأيت أمراً عظيماً { إِذِ الْمُجْرِمُونَ } [السجدة : 12] هم الذين قالوا { أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الارْضِ } و " لو " و " إذ " للمضي وإنما جاز ذلك لأن المترقب من الله بمنزلة الموجود ولا يقدر لترى ما يتناوله كأنه قيل : ولو تكون منك الرؤية و " إذ " ظرف له { نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ } من الذل والحياء والندم { عِندَ رَبِّهِمْ } [

جزء : 3 رقم الصفحة : 416

فاطر : 39] عند حساب ربهم ويوقف عليه لحق الحذف إذ التقدير وقولون { رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا } [السجدة : 12] صدق وعدك وعيدك { وَسَمِعْنَا } منك تصديق رسلنا أو كنا عمياً وصماً فأبصرنا وسمعنا { فَارْجِعْنَا } إلى الدنيا { نَعْمَلْ صَالِحًا } [السجدة : 12] أي الإيمان والطاعة { إِنَّا مُوقِنُونَ } [السجدة : 12] بالبعث والحساب الآن { وَلَوْ شِئْنَا لاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا } [السجدة : 13] في الدنيا أي لو شئنا أعطينا كل نفس ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختيار ذلك لاهتدوا لكن لم نعطهم ذلك اللطف لما علمنا منهم اختيار الكفر وإيثاره ، وهو حجة على المعتزلة فإن عندهم شاء الله أن يعطي كل نفس ما به اهتدت وقد أعطاها لكنها لم تهتد ، وهم أوّلوا الآية بمشيئة الجبر وهو تأويل فاسد لما عرف في تبصر الأدلة.

{ وَلَاكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنّى لامْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [السجدة : 13] ولكن وجب القول مني بما علمت أنه يكون منهم ما يستوجبون به جهنم وهو ما علم منهم أنهم يختارون الرد والتكذيب.

وفي تخصيص الإنس والجن إشارة إلى أنه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به جهنم.

{ فَذُوقُوا } العذاب { بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ } [السجدة : 14] بما تركتم من عمل لقاء { يَوْمِكُمْ هَاذَآ } [السجدة : 14] وهو الإيمان به { إِنَّا نَسِينَاكُمْ } [السجدة : 14] تركناكم في العذاب كالمنسي { وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ } أي العذاب الدائم الذي لا انقطاع له { بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [المائدة : 105] من الكفر والمعاصي.

419

{ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا } [السجدة : 15] أي وعظوا بها { خَرُّوا سُجَّدًا } [مريم : 58] سجدوا لله تواضعاً وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام { وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } [السجدة : 15] ونزهوا لله عما لا يليق به وأثنوا عليه حامدين له { وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ } [النحل : 49] عن الإيمان والسجود له { تَتَجَافَى } ترتفع وتتنحى { جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } [السجدة : 16] عن الفرض ومضاجع النوم.

قال سهل : وهب لقوم هبة وهو أن أذن لهم في مناجاته وجعلهم من أهل وسيلته ثم مدحهم عليه فقال { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } [السجدة : 16] { يَدْعُونَ } داعين { رَبَّهُمْ } عابدين له { خَوْفًا وَطَمَعًا } [الأعراف : 56] مفعول له أي لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته وهم المتهجدون.

وعن النبي صلى الله عليه وسلّم في تفسيرها قيام العبد من الليل.

وعن ابن عطاء : أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة وطلبت بساط القربة يعني صلاة الليل.

وعن أنس : كان أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الأخيرة فنزلت فيهم.

وقيل : هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها.

{ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ } في طاعة الله تعالى { يُنفِقُونَ * فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم } [السجدة : 17] " ما " بمعنى " الذي " { أُخْفِىَ } على حكاية النفس : حمزة ويعقوب { مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ } [السجدة : 17] أي لا يعلم أحد ما أعد لهؤلاء من الكرامة { جَزَآءَ } مصدر أي جوزوا جزاء { بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأنعام : 108] عن الحسن رضي الله عنه : أخفى القوم أعمالاً فأخفى الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

وفيه دليل على أن المراد الصلاة في جوف الليل ليكون الجزاء وفاقاً.

ثم بين أن من كان في نور الطاعة والإيمان لا يستوي مع من هو في ظلمة الكفر والعصيان بقوله :

{ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا } [السجدة : 18] أي كافراً وهما محمولان على لفظ من وقوله { لا يَسْتَوُنَ } [السجدة : 18] على المعنى بدليل قوله { أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى } [السجدة : 19] هي نوع من الجنان تأوي إليها أرواح الشهداء.

وقيل : هي عن يمين العرش { نُزُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [السجدة : 19] عطاء بأعمالهم والنزل عطاء النازل ثم صار عاماً { وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ } [السجدة : 20] أي ملجؤهم ومنزلهم { كُلَّمَآ أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ } [السجدة : 20] أي تقول لهم خزنة النار { ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ } [السجدة : 20] وهذا دليل على أن المراد بالفاسق الكافر إذ التكذيب يقابل الإيمان.

جزء : 3 رقم الصفحة : 421
{ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الادْنَى } [السجدة : 21] أي عذاب الدنيا من الأسر وما محنوا به من السنة سبع سنين { دُونَ الْعَذَابِ الاكْبَرِ } [السجدة : 21] أي عذاب الآخرة أي نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة.
وعن الداراني : العذاب الأدنى الخذلان والعذاب الأكبر الخلود في النيران.
وقيل : العذاب الأدنى عذاب القبر { لَعَلَّهُمْ } لعل المعذبين بالعذاب الأدنى { يَرْجِعُونَ } يتوبون عن الكفر { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ } [الكهف : 57] وعظ { وَمَنْ أَظْلَمُ } [السجدة : 22] أي بالقرآن { ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ } [السجدة : 22] أي فتولى عنها ولم يتدبر فيها.
و " ثم " للاستبعاد أي أن الإعراض عن مثل هذه الآيات في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها ، مستبعد في العقل كما تقول لصاحبك " وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها " استبعاداً لتركه الانتهاز { إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ } [السجدة : 22] ولم يقل " منه " لأنه إذا جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم فقد دل على إصابة الأظلم
421

(232/3)

النصيب الأوفر من الانتقام ، ولو قال بالضمير لم يفد هذه الفائدة.
{ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } [هود : 110] التوراة { فَلا تَكُن فِى مِرْيَةٍ } [السجدة : 23] شك { مِّن لِّقَآءِ } [فصلت : 54] من لقاء موسى الكتاب أو من لقائك موسى ليلة المعراج أو يوم القيامة أو من لقاء موسى ربه في الآخرة كذا عن النبي صلى الله عليه وسلّم { وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَاءِيلَ } [السجدة : 23] وجعلنا الكتاب المنزل على موسى لقومه هدى { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَاِمَّةً } [السجدة : 24] بهمزتين : كوفي وشامي { يَهْدُونَ } بذلك الناس ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه { بِأَمْرِنَا } إياهم بذلك { لَمَّا صَبَرُوا } [السجدة : 24] حين صبروا على الحق بطاعة الله أو عن المعاصي { لَمَّا صَبَرُوا } [السجدة : 24] حمزة وعلي أي لصبرهم عن الدنيا ، وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس { وَكَانُوا بِاَيَاتِنَا } [فصلت : 15] التوراة { يُوقِنُونَ } يعلمون علماً لا يخالجه شك { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ } [السجدة : 25] يقضي { بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [الحج : 17] بين الأنبياء وأممهم أو بين المؤمنين والمشركين { فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [البقرة : 113] فيظهر المحق من المبطل.
جزء : 3 رقم الصفحة : 421

{ أَوَ لَمْ } [الشعراء : 197] الواو للعطف على معطوف عليه منوي من جنس المعطوف أي أو لم يدع { يَهْدِ } يبين والفاعل الله بدليل قراءة زيد عن يعقوب { عَرَّفَهَا لَهُمْ } [محمد : 6] لأهل مكة { كَمْ } لا يجوز أن يكون " كم " فاعل { يَهْدِى } لأن " كم " للاستفهام فلا يعمل فيه ما قبله ومحله نصب بقوله { أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ } [السجدة : 26] كعاد وثمود وقوم لوط { يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ } [طه : 128] أي أهل مكة يمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ } [السجدة : 26] المواعظ فيتعظون

422

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَآءَ } نجري المطر والأنهار { إِلَى الارْضِ الْجُرُزِ } [السجدة : 27] أي الأرض التي جرز نباتها أي قطع إما لعدم الماء أو لأنه رعي ، ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جرز بدليل قوله { فَنُخْرِجُ بِهِ } [السجدة : 27] بالماء { زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ } [السجدة : 27] من الزرع { أَنْعَامُهُمْ } من عصفه { وَأَنفُسُهُمْ } من حبه { أَفَلا يُبْصِرُونَ } [السجدة : 27] بأعينهم فيستدلوا به على قدرته على إحياء الموتى { وَيَقُولُونَ مَتَى هَاذَا الْفَتْحُ } [السجدة : 28] النصر أو الفصل بالحكومة من قوله { رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا } [الأعراف : 89] (الأعراف : 98) وكان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين أو بفتح بيننا وبينهم فإذا سمع المشركون ذلك قالوا : متى هذا الفتح أي في أي وقت يكون { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة : 23] في أنه كائن.

{ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ } [السجدة : 29] أي يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم أو يوم نصرهم عليهم أو يوم بدر أو يوم فتح مكة { لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ } [السجدة : 29] وهذا الكلام لم ينطبق جواباً على سؤالهم ظاهراً ولكن لما كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء أجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم : لا تستعجلوا به ولا تستهزئوا فكأني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم فلا ينفعكم الإيمان ، أو استنظرتم في إدراك العذاب فلم تنظروا ، ومن فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر فهو يريد المقتولين منهم فإنهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل كما لم ينفع فرعون إيمانه عند الغرق { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ } [السجدة : 30] النصرة وهلاكهم { إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ } [السجدة : 30] الغلبة عليكم وهلاككم ، وكان عليه السلام لا ينام حتى يقرأ " ألم تنزيل السجدة " ، و " تبارك

423

الذي بيده الملك " .

وقال " من قرأ الم تنزيل في بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام " وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سورة الم تنزيل هي المانعة تمنع من عذاب القبر.

424

سورة الأحزاب

مدنية وهي ثلاث وسبعون آية

قال أبيّ بن كعب لزرّ رضي الله عنهما : كم تعدون سورة الأحزاب؟ قال : ثلاثاً وسبعين.

قال : فوالذي يحلف به أبيّ إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ولقد قرأنا منها آية الرجم " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم " .

أراد أبيّ أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن.

وأما ما يحكى أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة رضي الله عنها فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

{ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ } وبالهمز : نافع أي يا أيها المخبر عنا المأمون على أسرارنا المبلغ خطابنا إلى أحبابنا.

وإنما لم يقل " يا محمد " كما قال يا ادم

426

{ وَعَلَّمَ ءَادَمَ } { حَدِيثُ مُوسَى } تشريفاً له وتنويهاً بفضله ، وتصريحه باسمه في قوله { مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ } [الفتح : 29] (الفتح : 92) ونحوه لتعليم الناس بأنه رسول الله { اتَّقِ اللَّهَ } [البقرة : 206] اثبت على تقوى الله ودم عليه وازدد منه فهو باب لا يدرك مداه { وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } [

جزء : 3 رقم الصفحة : 426

الأحزاب : 1] ولا تساعدهم على شيء واحترس منهم فإنهم أعداء الله والمؤمنين.

وروي أن أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا المدينة بعد قتال أحد فنزلوا على عبد الله بن أبيّ وأعطاهم النبي الأمان على أن يكلموه فقالوا : ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تنفع وتشفع ، ووازرهم المنافقون على ذلك فهمّ المسلمون بقتلهم فنزلت.

أي اتق الله في نقض العهد ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا } [النساء : 11] بخبث أعمالهم { حَكِيمًا } في تأخير الأمر بقتالهم.

{ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ } [الأحزاب : 2] في الثبات على التقوى وترك طاعة الكافرين والمنافقين { إِنَّ اللَّهَ } [التوبة : 111] الذي يوحي إليك { كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } [النساء : 94] أي لم يزل عالماً بأعمالهم وأعمالكم.

وقيل : إنما جمع لأن المراد بقوله { أَتَّبِعُ } هو وأصحابه ، وبالياء : أبو عمر وأي بما يعمل الكافرون والمنافقون من كيدهم لكم ومكرهم بكم { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [الانفال : 61] أسند أمرك إليه

وكله إلى تدبيره { وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا } [النساء : 81] حافظاً موكولاً إليه كل أمر ، وقال الزجاج : لفظه وإن كان لفظ الخبر فالمعنى اكتف بالله وكيلاً.
جزء : 3 رقم الصفحة : 426

(234/3)

{ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّـاِى تُظَـاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ } أي ما جمع الله قلبين في جوف ، ولا زوجية وأمومة في امرأة ، ولا بنوة ودعوة في رجل.
والمعنى أنه تعالى كما لم يجعل لإنسان قلبين لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر فعلاً من أفعال القلوب فأحدهما فضلة غير محتاج إليه ، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك فذلك يؤدي إلى اتصاف الجملة بكونه مريداً كارهاً عالماً ظاناً موقناً شاكاً في حالة واحدة.
لم يحكم أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أما لرجل زوجاً له ، لأن الأم مخدومة والمرأة خادمة وبينهما منافاة ، وأن يكون الرجل الواحد دعياً لرجل وابناً له لأن النبوة أصالة في النسب والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لا غير ، ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل.
وهذا مثل ضربه الله تعالى في زيد بن حارثة وهو رجل من كلب سبي صغيراً فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة ، فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهبته له فطلبه أبوه وعمه فخير فاختار رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأعتقه وتبناه وكانوا يقولون " زيد بن محمد " ، فلما تزوج النبي صلى الله عليه وسلّم زينب وكانت تحت زيد قال المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عنه فأنزل الله هذه الآية ، وقيل : كان المنافقون يقولون : لمحمد قلبان قلب معكم وقلب مع أصحابه.
وقيل : كان أبو معمر أحفظ العرب فقيل له " ذو القلبين " فأكذب الله قولهم وضربه مثلاً في الظهار والتبني.
والتنكير في { رَجُلٌ } وإدخال " من " الاستغراقية على { قَلْبَيْنِ } وذكر الجوف للتأكيد.
بياء بعد الهمزة حيث كان : كوفي وشامي ، نافع ويعقوب وسهل وهي جمع.
{ أَزْوَاجَكَ الَّاتِى ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ } عاصم من ظاهر إذا قال لامرأته " أنت علي كظهر أمي " { تُظْهِرُونَ } علي وحمزة وخلف.
{ تُظْهِرُونَ } شامي من ظاهر بمعنى تظاهر.
غيرهم { تُظْهِرُونَ } من اظّهّر بمعنى تظهر.
وعدي بـ " من " لتضمنه معنى البعد لأنه كان طلاقاً في الجاهلية ونظيره " آلى من امرأته " لما ضمن معنى التباعد عدي بـ " من " وإلا فآلى في أصله الذي هو معنى حلف وأقسم ليس هذا

بحكمه.
427
جزء : 3 رقم الصفحة : 426
والدعي فعيل بمعنى مفعول وهو الذي يدعي ولداً ، وجمع على أفعلاء شاذاً لأن بابه ما كان منه بمعنى فاعل كتقي وأتقياء وشقي وأشقياء ولا يكون ذلك في نحو " رمي " و " سميّ " للتشبيه اللفظي.
{ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ } [الأحزاب : 4] أي أن قولكم للزوجة هي أم وللدعي هو ابن قول تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له إذ الابن يكون بالولادة وكذا الأم { وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ } [الأحزاب : 4] أي ما حق ظاهره وباطنه { وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ } [الأحزاب : 4] أي سبيل الحق.
ثم قال ما هو الحق وهدى إلى ما هو سبيل الحق وهو قوله { ادْعُوهُمْ لابَآ ئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ } [الأحزاب : 5] أعدل { عِندَ اللَّهِ } [الحجرات : 13] وبين أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين في القسط والعدل.
وقيل : كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه ولد الرجل ضمه إلى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه.
وكان ينسب إليه فيقال فلان بن فلان.
ثم انظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث وصل الجملة الطلبية ثم فصل الخبرية عنها ووصل بينها ، ثم فصل الاسمية عنها ووصل بينها ثم فصل بالطلبية { فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا ءَابَآءَهُمْ } [الأحزاب : 5] فإن لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم إليهم { فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ } [الأحزاب : 5] أي فهم إخوانكم في الدين وأولياؤكم في الدين فقولوا هذا أخي وهذا مولاي ويا أخي ويا مولاي ، يريد الأخوة في الدين والولاية فيه.

(235/3)

{ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِ } [الأحزاب : 5] أي لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهي { وَلَـاكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } [الأحزاب : 5] ولكن الإثم عليكم فيما تعمدتموه بعد النهي.
أولا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم يا بني على سبيل الخطأ وسبق اللسان ، ولكن إذا قلتموه متعمدين ، و " ما " في موضع الجر عطف على " ما " الأولى ، ويجوز أن يراد العفو عن الخطأ دون العمد على سبيل العموم ثم تناول
428
لعمومه خطأ التبني وعمده.

وإذا وجد التبني فإن كان المتبني مجهول النسب وأصغر سناً منه ثبت نسبه منه وعتق إن كان عبداً له ، وإن كان أكبر سناً منه لم يثبت النسب وعتق عند أبي حنيفة رضي الله عنه ، وأما المعروف النسب فلا يثبت نسبه بالتبني وعتق إن كان عبداً { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا } [النساء : 96] لا يؤاخذكم بالخطأ ويقبل التوبة من المتعمد.

جزء : 3 رقم الصفحة : 426

{ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ } [الأحزاب : 6] أي أحق بهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا ، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها ، فعليهم أن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه ، أو هو أولى بهم أي أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم كقوله { بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ } (التوبة : 821) وفي قراءة ابن مسعود { النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُا أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُوا الارْحَامِ } وقال مجاهد : كل نبي أبو أمته ولذلك صار المؤمنون إخوة لأن النبي صلى الله عليه وسلّم أبوهم في الدين { وَأَزْوَاجُهُا أُمَّهَاتُهُمْ } [الأحزاب : 6] في تحريم نكاحهن ووجوب تعظيمهن وهن فيما وراء ذلك كالإرث ونحوه كالأجنبيات ولهذا لم يتعد التحريم إلى بناتهن { وَأُوْلُوا الارْحَامِ } [الانفال : 75] وذوو القرابات { بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ } [الأحزاب : 6] في التوارث وكان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة لا بالقرابة ثم نسخ ذلك وجعل التوارث بحق القرابة { فِي كِتَابِ اللَّهِ } [الانفال : 75] في حكمه وقضائه أو في اللوح المحفوظ أو فيما فرض الله { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ } [الأحزاب : 6] يجوز أن يكون بياناً لأولي الأرحام أي الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب ، وأن يكون لابتداء الغاية أي أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين أي الأنصار بحق الولاية في الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة { إِلا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَآ ائِكُم مَّعْرُوفًا } [الأحزاب : 6] الاستثناء من خلاف الجنس أي لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً جائز وهو أن توصوا لمن أحببتم من هؤلاء بشيء فيكون ذلك بالوصية لا بالميراث.

وعدي { تَفْعَلُوا } بـ " إلى " لأنه في معنى تسدوا والمراد بالأولياء المؤمنون والمهاجرون للولاية في الدين { كَانَ ذَالِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُورًا } [الإسراء : 58] أي التوارث بالأرحام كان مسطوراً في اللوح.

429

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيّنَ مِيثَاقَهُمْ } [

جزء : 3 رقم الصفحة : 426

(236/3)

الأحزاب : 7] واذكر حين أخذنا من النبيين ميثاقهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم { وَمِنكَ } خصوصاً.

وقدم رسول الله على نوح ومن بعده لأن هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء لأنهم أولو العزم وأصحاب الشرائع ، فلما كان محمد صلى الله عليه وسلّم أفضل هؤلاء قدم عليهم ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه { وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا } [الأحزاب : 7] وثيقاً.
وأعاد ذكر الميثاق لانضمام الوصف إليه وإنما فعلنا ذلك { لِّيَسْـَٔلَ } الله { مِنَ الصَّـادِقِينَ } [الأعراف : 70] أي الأنبياء { عَن صِدْقِهِمْ } [الأحزاب : 8] عما قالوه لقومهم أو ليسأل المصدقين للأنبياء عن تصديقهم لأن من قال للصادق صدقت كان صادقاً في قوله ، أو ليسأل الأنبياء ما الذي أجابتهم أممهم وهو كقوله { يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ } [المائدة : 109] (المائدة : 901) { وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ } [الأحزاب : 8] بالرسل { عَذَابًا أَلِيمًا } [النساء : 18] وهو عطف على { أَخَذْنَآ } لأن المعنى أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين وأعد للكافرين عذاباً أليماً ، أو على ما دل عليه { بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [الأحزاب : 8] كأنه قال : فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين.
جزء : 3 رقم الصفحة : 426
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } أي ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق وكان بعد حرب أحد بسنة { إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ } [
جزء : 3 رقم الصفحة : 430
الأحزاب : 9] أي الأحزاب وهم : قريش وغطفان وقريظة والنضير { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا } [فصلت : 16] أي الصبا.
قال عليه السلام " نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور " { وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا } [الأحزاب : 9]
430
وهم الملائكة وكانوا ألفاً بعث الله عليهم صبا باردة في ليلة شاتية فأخصرتهم وأسفت التراب في وجوههم ، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها في بعض وقذف في قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم فانهزموا من غير قتال.
وحين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلّم بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمان ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم ، وأمر بالذراري والنسوان فرفعوا في الآطام واشتد الخوف ، وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف من الأحابيش وبني كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان ، وخرج غطفان في ألف ومن تابعهم من أهل نجد وقائدهم عيينة بن حصن ، وعامر بن الطفيل في هوازن وضامّتهم اليهود من قريظة والنضير ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة حتى أنزل الله النصر { وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ } [الأحزاب : 9] أي بعملكم أيها المؤمنون من التحصن بالخندق والثبات على معاونة النبي صلى الله عليه وسلّم { بَصِيرًا } وبالياء ، أبو عمرو أي بما يعمل الكفار من

البغي والسعي في إطفاء نور الله.
{ إِذْ جَآءُوكُم } [الأحزاب : 10] بدل من { إِذْ جَآءَتْكُمْ } [الأحزاب : 9] { مِّن فَوْقِكُمْ } [الأنعام : 65] أي من أعلى الوادي من

(237/3)

قبل المشرق بنو غطفان { وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ } [الأحزاب : 10] من أسفل الوادي من قبل المغرب قريش { وَإِذْ زَاغَتِ الابْصَارُ } [الأحزاب : 10] مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة ، أو عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع { وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ } [الأحزاب : 10] الحنجرة رأس الغلصمة وهي منتهى الحلقوم ، والحلقوم مدخل الطعام والشراب.
قالوا : إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة.
وقيل : هو مثل في اضطراب القلوب وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة.
روي أن المسلمين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلّم.
هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر قال : " نعم قولوا اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا " .
{ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا } [الأحزاب : 10] خطاب للذين آمنوا ومنهم الثبت القلوب والأقدام والضعاف القلوب الذين هم على حرف والمنافقون ، فظن الأولون بالله أنه يبتليهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال ، وأما الآخرون فظنوا بالله ما حكى عنهم.
قرأ أبو عمرو وحمزة بغير ألف في الوصل والوقف وهو القياس ، وبالألف فيهما : مدني وشامي وأبو بكر إجراء للوصل مجرى الوقف ، وبالألف في الوقف : مكي وعلي وحفص ، ومثله { وَأَطَعْنَا الرَّسُولا } [الأحزاب : 66] و { السَّبِيلا } زادوها في الفاصلة كما زادها في القافية.
من قال :
جزء : 3 رقم الصفحة : 430
أقلي اللوم عاذل والعتابا وهن كلهن في الإمام بالألف { هُنَالِكَ ابْتُلِىَ الْمُؤْمِنُونَ } [الأحزاب : 11] امتحنوا بالصبر على الإيمان { وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا } [الأحزاب : 11] وحركوا بالخوف تحريكاً بليغاً.
{ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ } [الأحزاب : 12] عطف على الأول { وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ } [الانفال : 49] قيل : هو وصف المنافقين بالواو كقوله :
إلى الملك القرم وابن الهمام
وليث الكتيبة في المزدحم

وقيل : هم قوم لا بصيرة لهم في الدين كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم { مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُا إلا غُرُورًا } [الأحزاب : 12] روي أن معتّب بن قشير حين رأى الأحزاب قال : يعدنا محمد فتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً ما هذا إلا وعد غرور { وَإِذْ قَالَت طَّآ ئِفَةٌ مِّنْهُمْ } [الأحزاب : 13] من المنافقين وهم عبد الله بن أبي وأصحابه { يَا أَهْلَ يَثْرِبَ } [الأحزاب : 13] هم أهل المدينة { لا مُقَامَ لَكُمْ } [الأحزاب : 13] وبضم الميم : حفص أي لا قرار لكم ههنا ولا مكان تقومون فيه أو تقيمون { فَارْجِعُوا } عن الإيمان إلى الكفر أو من عسكر رسول الله إلى المدينة { وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِىَّ } أي بنو حارثة { يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ } [الأحزاب : 13] أي ذات عورة { وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إلا فِرَارًا } [الأحزاب : 13] العورة الخلل والعورة ذات العورة وهي قراءة ابن عباس.

يقال : عور المكان عوراً إذا بدا منه خلل يخاف منه العدو والسارق ، ويجوز أن يكون عورة تخفيف عورة اعتذروا أن بيوتهم عرضة للعدو والسارق لأنها غير محصنة فاستأذنوه ليحصنوها ثم يرجعوا إليه فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك وإنما يريدون الفرار من القتال { وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم } [الأحزاب : 14] المدينة أو بيوتهم من قولك " دخلت على فلا داره " { مِّنْ أَقْطَارِهَا } [

جزء : 3 رقم الصفحة : 430

الأحزاب : 14] من جوانبها أي ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التي يفرون خوفاً منها مدينتهم أو بيوتهم من نواحيها كلها وانثالت على أهاليهم وأولاهم ناهبين سابين { ثُمَّ سُاِلُوا } [الأحزاب : 14] عند ذلك القزع { الْفِتْنَةِ } أي الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين { لاتَوْهَا } لأعطوها.

{ لاتَوْهَا } بلا مد : حجازي أي لجاءوها وفعلوها

433

(238/3)

{ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ } [الأحزاب : 14] بإجابتها { إلا يَسِيرًا } [الأحزاب : 14] ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف ، أو ما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيراً فإن الله يهلكهم ، والمعنى أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم ليفروا عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلّم والمؤمنين وعن مصافة الأحزاب الذين ملئوهم هولاً ورعباً ، وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر ، وقيل لهم كونوا على المسلمين لسارعوا إليه وما تعللوا بشيء وما ذلك إلا لمقتهم الإسلام وحبهم الكفر.

{ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ } [الأحزاب : 15] أي بنو حارثة من قبل الخندق أو من قبل نظرهم إلى الإحزاب { لا يُوَلُّونَ الادْبَارَ } [الأحزاب : 15] منهزمين { وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْاُولا } [الأحزاب :

15] مطلوباً مقتضى حتى يوفى به.
{ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلا قَلِيلا } [الأحزاب : 16] أي إن كان حضر أجلكم لم ينفعكم الفرار ، وإن لم يحضر وفررتم لم تمتعوا في الدنيا إلا قليلاً وهو مدة أعماركم وذلك قليل.
وعن بعض المروانية أنه مر بحائط مائل فأسرع فتليت له هذه الآية فقال : ذلك القليل نطلب.
{ قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ } [الأحزاب : 17] أي مما أراد الله إنزاله بكم { إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُواءًا } [الأحزاب : 17] في أنفسكم من قتل أو غيره { أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً } [الأحزاب : 17] أي إطالة عمر في عافية وسلامة أي من يمنع الله من أن يرحمكم إن أراد بكم رحمة لما في العصمة من معنى المنع { وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا } [النساء : 173] ناصراً { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ } [الأحزاب : 18] أي من يعوق عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلّم أي يمنع وهم المنافقون { وَالْقَآ ئِلِينَ لاخْوَانِهِمْ } [الأحزاب : 18] في الظاهر من المسلمين
جزء : 3 رقم الصفحة : 430
{ هَلُمَّ إِلَيْنَا } [الأحزاب : 18] أي
434
قربوا أنفسكم إلينا ودعوا محمداً وهي لغة أهل الحجاز فإنهم يسوون فيه بين الواحد والجماعة ، وأما تميم فيقولون " هلم يا رجل " و " هلموا يا رجال " وهو صوت سمي به فعل متعد نحو " أحضر وقرّب " { وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ } [الأحزاب : 18] أي الحرب { إِلا قَلِيلا } [النساء : 46] إلا إتياناً قليلاً أي يحضرون ساعة رياء ويقفون قليلاً مقدار ما يرى شهودهم ثم ينصرفون { أَشِحَّةً } جمع شحيح وهو البخيل نصب على الحال من الضمير في { يَأْتُونَ } أي يأتون الحرب بخلاء { عَلَيْكُمْ } بالظفر والغنيمة { فَإِذَا جَآءَ الْخَوْفُ } [الأحزاب : 19] من قبل العدو أو منه عليه السلام { رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ } [الأحزاب : 19] في تلك الحالة { تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ } [الأحزاب : 19] يميناً وشمالاً { كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ } [الأحزاب : 19] كما ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوفاً ولواذاً بك.
{ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ } [الأحزاب : 19] زال ذلك الخوف وأمنوا وحيزت الغنائم { سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ } [الأحزاب : 19] خاطبوكم مخاطبة شديدة وآذوكم بالكلام.
خطيب مسلق فصيح ورجل مسلاق مبالغ في الكلام أي يقولون : وفّروا قسمتنا فإنا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم { أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ } [الأحزاب : 19] أي خاطبوكم أشحة على المال والغنيمة و { أَشِحَّةً } حال من فاعل { سَلَقُوكُم } { أولَـائِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا } [الأحزاب : 19] في الحقيقة بل بالألسنة { فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ } [الأحزاب : 19] أبطل بإضمارهم الكفر ما أظهروه من الأعمال { وَكَانَ ذَالِكَ } [النساء : 30] إحباط أعمالهم { عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا } [النساء : 30] هيناً.
جزء : 3 رقم الصفحة : 430

{ يَحْسَبُونَ الاحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا } [الأحزاب : 20] أي لجبنهم يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا ولم ينصرفوا مع أنهم قد انصرفوا { وَإِن يَأْتِ الاحْزَابُ } [الأحزاب : 20] كرة ثانية { يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى الاعْرَابِ } [

جزء : 3 رقم الصفحة : 435

(239/3)

الأحزاب : 20] البادون جمع البادي أي يتمنى المنافقون لجبنهم أنهم خارجون من المدينة إلى البادية حاصلون بين الأعراب ليأمنوا على أنفسهم ويعتزلوا مما فيه الخوف من القتال { يُسْـَٔلُونَ } كل قادم منهم من جانب المدينة { عَنْ أَنابَآ ِكُمْ } [الأحزاب : 20]

435

عن أخباركم وعما جرى عليكم { وَلَوْ كَانُوا فِيكُم } [الأحزاب : 20] ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال { مَّا قَاتَلُوا إلا قَلِيلا } [الأحزاب : 20] رياء وسمعة.

{ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [الأحزاب : 21] بالضم حيث كان : عاصم أي قدوة وهو المؤتسى به أي المقتدى به كما تقول " في البيضة عشرون مناً حديداً " أي هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد.

أو فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها حيث قاتل بنفسه { لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الاخِرَ } أي يخاف الله ويخاف اليوم الآخر أو يأمل ثواب الله ونعيم اليوم الآخر.

قالوا { لِمَنْ } بدل من { لَكُمْ } وفيه ضعف لأنه لا يجوز البدل من ضمير المخاطب.

وقيل : { لِمَنْ } يتعلق بـ { حَسَنَةٌ } أي أسوة حسنة كائنة لمن كان { وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } [الأحزاب : 21] أي في الخوف والرجاء والشدة والرخاء { وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الاحْزَابَ } [الأحزاب : 22] وعدهم الله أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه بقوله { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم } [البقرة : 214] إلى قوله { قَرِيبٌ } (البقرة : 412) فلما جاء الأحزاب واضطربوا ورعبوا الرعب الشديد { قَالُوا هَاذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ } [الأحزاب : 22] وعلموا أن الغلبة والنصرة قد وجبت لهم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال لأصحابه : إن الأحزاب سائرون إليكم في آخر تسع ليال أو عشر.

فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك ، وهذا إشارة إلى الخطب والبلاء { وَمَا زَادَهُمْ } [الأحزاب : 22] ما رأوا من اجتماع الأحزاب عليهم ومجيئهم { إلا إِيمَانًا } [الأحزاب : 22] بالله وبمواعيده { وَتَسْلِيمًا } لقضائه وقدره.

جزء : 3 رقم الصفحة : 435
{ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ } [الأحزاب : 23] أي فيما عاهدوه عليه
436
فحذف الجار كما في المثل " صدقني سن بكره " أي صدقني في سن بكره بطرح الجار وإيصال الفعل.
نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة وسعد بن زيد وحمزة ومصعب وغيرهم { فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ } [الأحزاب : 23] أي مات شهيداً كحمزة ومصعب.
وقضاء النحب صار عبارة عن الموت لأن كل حي من المحدثات لا بد له أن يموت فكأنه نذر لازم في رقبته فإذا مات فقد قضى نحبه أي نذره { وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ } [الأحزاب : 23] الموت أي على الشهادة كعثمان وطلحة { وَمَا بَدَّلُوا } [الأحزاب : 23] العهد { تَبْدِيلا } ولا غيروه لا المستشهد ولا من ينتظر الشهادة ، وفيه تعريض لمن بدلوا من أهل النفاق ومرضى القلوب كما مر في قوله تعالى : { وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الادْبَارَ } [الأحزاب : 15] { لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ } [الأحزاب : 24] بوفائهم بالعهد { وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَآءَ } [الأحزاب : 24] إذا لم يتوبوا { أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ } [الأحزاب : 24] إن تابوا { إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا } [النساء : 23] بقبول التوبة { رَّحِيمًا } بعفو الحوبة.
جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم ، لأن كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب فكأنهما استويا في طلبها والسعي في تحصيلها.
جزء : 3 رقم الصفحة : 435

{ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا } [الأحزاب : 25] الأحزاب { بِغَيْظِهِمْ } حال أي مغيظين كقوله { تَنابُتُ بِالدُّهْنِ } [المؤمنون : 20] (المؤمنون : 02) { لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا } [الأحزاب : 25] ظفراً أي لم يظفروا بالمسلمين وسماه خيراً بزعمهم وهو حال أي غير ظافرين { وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ } [الأحزاب : 25] بالريح والملائكة { وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا } [الأحزاب : 25] قادراً غالباً.
437
{ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم } [الأحزاب : 26] عاونوا الأحزاب { مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } [آل عمران : 72] من بني قريظة { مِن صَيَاصِيهِمْ } [الأحزاب : 26] من حصونهم الصيصية ما تحصن به.

روي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا سلاحهم ، على فرسه الحيزوم والغبار على وجه الفرس وعلى السرج فقال : ما هذا يا جبريل؟ قال : من متابعة قريش.

فقال : يا رسول الله إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة وأنا عامد إليهم فإن الله داقهم دق البيض على الصفا وإنهم لكم طعمة.

فأذن في الناس أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة.

فحاصروهم خمساً وعشرين ليلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : تنزلون على حكمي فأبوا ، فقال : على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فقال سعد : حكمت فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم ، فكبر النبي صلى الله عليه وسلّم وقال : لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.

ثم استنزلهم وخندق في سوق المدينة خندقاً وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة.

وقيل : كانوا ستمائة مقاتل وسبعمائة أسير { وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ } [الأحزاب : 26] الخوف وبضم العين : شامي وعلي.

ونصب { فَرِيقًا } بقوله { تَقْتُلُونَ } وهم الرجال { وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا } [الأحزاب : 26] وهم النساء والذراري { وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ } [الأحزاب : 27] أي المواشي والنقود والأمتعة.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار وقال لهم إنكم في منازلكم { وَأَرْضًا لَّمْ تَطَأُوهَا } [الأحزاب : 27] بقصد القتال وهي مكة أو فارس والروم أو خيبر أو كل أرض تفتح إلى يوم القيامة { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا } [الأحزاب : 27] قادراً.

جزء : 3 رقم الصفحة : 435

{ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لاِزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَواةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا } [الأحزاب : 28] أي السعادة في الدنيا وكثرة الأموال { فَتَعَالَيْنَ } أصل تعال أن يقوله من في المكان

438

(241/3)

المرتفع لمن في المكان المستوطيء ، ثم كثر حتى استوى في استعماله الأمكنة ، ومعنى أقبلن بإرادتكن واختياركن لأحد الأمرين ، ولم يرد نهوضهن إليه بأنفسهن كقوله " قام يهددني " .

{ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ } [الأحزاب : 28] أعطكن متعة الطلاق وتستحب المتعة لكل مطلقة إلا المفوضة قبل الوطء { وَأُسَرِّحْكُنَّ } وأطلقكن { سَرَاحًا جَمِيلا } [الأحزاب : 28] لا ضرار فيه أردن شيئاً من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة وتغايرن ، فغم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلّم فنزلت فبدأ بعائشة رضي الله عنها وكانت أحبهن إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة فرؤي

الفرح في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلّم.
ثم اختار جميعهن اختيارها.
وروي أنه قال لعائشة : إني ذاكر لك أمراً ولا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك ثم قرأ عليها القرآن فقالت : أفي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة.
وحكم التخيير في الطلاق أنه إذا قال لها اختاري فقالت اخترت نفسي أن تقع تطليقة بائنة ، وإذا اختارت زوجها لم يقع شيء.
وعن علي رضي الله عنه : إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة { وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الاخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ } [الأحزاب : 29] " من " للبيان لا للتبعيض.
{ أَجْرًا عَظِيمًا * يَانِسَآءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ } سيئة بليغة في القبح { مُّبَيِّنَةٍ } ظاهر فحشها.
من بيّن بمعنى تبين وبفتح الياء : مكي وأبو بكر.
قيل : هي عصيانهن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ونشوزهن.
وقيل : الزنا والله عاصم رسوله من ذلك { يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ } [الأحزاب : 30] { يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ } مكي وشامي { يُضَاعِفُ } أبو عمرو ويزيد ويعقوب { ضِعْفَيْنِ } ضعفي عذاب غيرهن من النساء لأن ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهن ، فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء
439
النبي صلى الله عليه وسلّم ولذا كان الذم للعاصي العالم أشد من العاصي الجاهل ، لأن المعصية من العالم أقبح ولذا فضل حد الأحرار على العبيد ولا يرجم الكافر { وَكَانَ ذَالِكَ } [النساء : 30] أي تضعيف العذاب عليهن { عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا } [النساء : 30] هيناً.
جزء : 3 رقم الصفحة : 435
{ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ } [الأحزاب : 31] القنوت الطاعة { وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَآ } [الأحزاب : 31] وبالياء فيهما : حمزة وعلي { أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ } [الأحزاب : 31] مثلي ثواب غيرها
جزء : 3 رقم الصفحة : 440

{ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا } [الأحزاب : 31] جليل القدر وهو الجنة { يَانِسَآءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ } [الأحزاب : 32] أي لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء إذا تقصيت أمة النساء

جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل.
وأحد في الأصل بمعنى وحد وهو الواحد ثم وضع في النفي العام مستوياً فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه { إِنِ اتَّقَيْتُنَّ } [الأحزاب : 32] إن أردتن التقوى أو إن كنتن متقيات { فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ } [الأحزاب : 32] أي إذا كلمتن الرجال من وراء الحجاب فلا تجئن بقولكن خاضعاً أي ليناً خنثاً مثل كلام المريبات { فَيَطْمَعَ } بالنصب على جواب النهي { الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ } [الأحزاب : 32] ريبة وفجور { وَقُلْنَ قَوْلا مَّعْرُوفًا } [الأحزاب : 32] حسناً مع كونه خشناً { وَقَرْنَ } مدني وعاصم غير هبيرة وأصله " اقررن " فحذفت الراء تخفيفاً وألقيت فتحتها على ما قبلها ، أو من قار يقار إذا اجتمع.
والباقون { قَرْنَ } من وقر يقر وقاراً ، أو من قرّ يقر ، حذفت الأولى من راء اقررن قراراً من التكرار ونقلت كسرتها إلى القاف { فِى بُيُوتِكُنَّ } [الأحزاب : 34] بضم الباء بصري ومدني وحفص { وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الاولَى } [الأحزاب : 33] أي القديمة.
والتبرج التبختر في المشي وإظهار الزينة والتقدير : ولا تبرجن تبرجاً مثل تبرج النساء في الجاهلية الأولى . وهي الزمان الذي ولد فيه إبراهيم أو ما بين آدم ونوح عليهما السلام أو زمن داود وسليمان . والجاهلية

الأخرى . ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام.
أو الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام ، والجاهلية الأخرى . ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام.
أو الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام ، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام.
جزء : 3 رقم الصفحة : 440
{ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ } [الأحزاب : 33] خص الصلاة والزكاة بالأمر ثم عم بجميع الطاعات تفضيلاً لهما لأن من واظب عليهما جرتاه إلى ما وراءهما { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ } [الأحزاب : 33] نصب على النداء أو على المدح ، وفيه دليل على أن نساءه من أهل بيته.
وقال : { عَنكُمْ } ، لأنه أريد الرجال والنساء من آله بدلالة { وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } [الأحزاب : 33] من نجاسة الآثام.
ثم بين أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن لئلا يقارف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم الماثم وليتصونوا عنها بالتقوى.
واستعار الذنوب الرجس وللتقوى الطهر ، لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوث بها كما يتلوث بدنه بالأرجاس ، وأما المحسنات فالعرض منها نقي كالثوب الطاهر وفيه تنفير لأولي الألباب عن

المناهي وترغيب لهم في الأوامر { وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ } [الأحزاب : 34] القرآن { وَالْحِكْمَةِ } أي السنة أو بيان معاني القرآن { إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا } [الأحزاب : 34] عالماً بغوامض الأشياء { خَبِيرًا } عالماً بحقائقها أي هو عالم بأفعالكن وأقوالكن فاحذرن مخالفة أمره ونهيه ومعصية رسوله.

ولما نزل في نساء النبي صلى الله عليه وسلّم ما نزل قال نساء المسلمين : فما نزل فينا شيء ، فنزلت :

{ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ } [الأحزاب : 35] المسلم الداخل في السّلم بعد الحرب المنقاد الذي لا يعاند ، أو المفوض أمره إلى الله المتوكل عليه من أسلم وجهه إلى الله { وَالْمُؤْمِنِينَ } المصدقين بالله ورسوله وبما يحب أن يصدق به

جزء : 3 رقم الصفحة : 440

{ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ } [الأحزاب : 35]

441

(243/3)

القائمين بالطاعة { وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ } [الأحزاب : 35] في النيات والأقوال والأعمال { وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ } [الأحزاب : 35] على الطاعات وعن السيئات { وَالْخَاشِعِينَ } المتواضعين لله بالقلوب والجوارح أو الخائفين { وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ } [الأحزاب : 35] فرضاً ونفلاً { وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ } [الأحزاب : 35] فرضاً ونفلاً.

وقيل : من تصدق في كل أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين ، ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين { وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ } [الأحزاب : 35] عما لا يحل { وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا } [الأحزاب : 35] بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم من الذكر والمعنى والحافظات فروجهن والذاكرات الله فحذف لدلالة ما تقدم عليه.

والفرق بين عطف الإناث على الذكور وعطف الزوجين على الزوجين لأن الأول نظير قوله { ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا } [التحريم : 5] (التحريم : 5) في أنهما جنسان مختلفان واشتركا في حكم واحد فلم يكن بد من توسط العاطف بينهما ، وأما الثاني فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع ومعناه أن الجامعين والجامعات لهذه الطاعات { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } [الأحزاب : 35] على طاعاتهم.

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلّم زينب بنت جحش بنت عمته أميمة على مولاه زيد بن حارثة فأبت وأبى أخوها عبد الله فنزلت { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ } [الأحزاب : 36] أي وما صلح لرجل

مؤمن ولا امرأة مؤمنة { إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ } [الأحزاب : 36] أي رسول الله { أَمْرًا } من الأمور { أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } [الأحزاب : 36] أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه واختيارهم تلوا لاختياره فقالا : رضينا يا رسول الله ، فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها.

وإنما جمع الضمير في

جزء : 3 رقم الصفحة : 440

{ لَهُمْ } وإن كان من حقه أن يوحد لأن المذكورين وقعا

442

تحت النفي فعما كل مؤمن ومؤمنة فرجع الضمير إلى المعنى لا إلى اللفظ.

و { يَكُونَ } بالياء : كوفي ، والخيرة ما يتخير ودل ذلك على أن الأمر للوجوب { وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالا مُّبِينًا } [الأحزاب : 36] فإن كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال وكفر ، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطأ وفسق.

{ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ } [الأحزاب : 37] بالإسلام الذي هو أجل النعم { وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ } [الأحزاب : 37] بالإعتاق والتبني فهو متقلب في نعمة الله ونعمة رسوله وهو زيد بن حارثة { أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ } [الأحزاب : 37] زينب بنت جحش ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أبصرها بعدما أنكحها إياه فوقعت في نفسه فقال : سبحان الله مقلب القلوب ، وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها ، وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم : إني أريد أن أفارق صاحبتي ، فقال : مالك أرابك منها شيء؟ قال : لا والله ما رأيت منها إلا خيراً ولكنها تتعظم علي لشرفها وتؤذيني فقال له : أمسك عليك زوجك { وَاتَّقِ اللَّهَ } [الأحزاب : 37] فلا تطلقها.

وهو نهي تنزيه إذ الأولى أن لا يطلق أو واتق الله فلا تذمها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج { وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ } [الأحزاب : 37] أي تخفي في نفسك نكاحها إن طلقها زيد وهو الذي أبداه الله تعالى.

وقيل : الذي أخفى في نفسه تعلق قلبه بها ومودة مفارقة زيد إياها.

والواو في { وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ } [الأحزاب : 37] { وَتَخْشَى النَّاسَ } [الأحزاب : 37] أي قالة الناس إنه نكح امرأة ابنه { وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ } [الأحزاب : 37] واو الحال أي تقول لزيد أمسك عليك زوجك مخفياً في نفسك إرادة أن لا يمسكها وتخفى خاشياً قالة الناس وتخشى الناس حقيقاً في ذلك بأن تخشى الله.

وعن عائشة رضي الله عنها : لو

443

جزء : 3 رقم الصفحة : 440
كتم رسول الله صلى الله عليه وسلّم شيئاً مما أوحي إليه لكتم هذه الآية.
{ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا } [الأحزاب : 37] الوطر الحاجة فإذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همة.
قيل : قضى منه وطره ، والمعنى فلما لم يبق لزيد فيها حاجة وتقاصرت عنها همته وطلقها وانقضت عدتها { زَوَّجْنَاكَهَا } .
روي أنها لما اعتدت قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم لزيد : ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك : أخطب عليّ زينب.
قال زيد : فانطلقت وقلت : يا زينب أبشري إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم يخطبك ففرحت وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلّم ودخل بها وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها ، ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار { لِكَىْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَآ ئِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا } [الأحزاب : 37] قيل : قضاء الوطر إدراك الحاجة وبلوغ المراد منه { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ } [الأحزاب : 38] الذي يريد أن يكونه { مَفْعُولا } مكوناً لا محالة وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلّم زينب.
جزء : 3 رقم الصفحة : 440
{ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ } [الأحزاب : 38] أحل له وأمر له وهو نكاح زينب امرأة زيد أو قدر له من عدد النساء { سُنَّةَ اللَّهِ } [غافر : 85] اسم موضع موضع المصدر كقولهم " تراباً وجندلاً " مؤكد لقوله { مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ } [الأحزاب : 38] كأنه قيل : سن الله ذلك سنة في الأنبياء الماضين وهو أن لا يحرج عليهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره ، وقد كانت تحتهم المهائر والسراري وكانت لداود مائة امرأة وثلثمائة سرية ولسليمان ثلثمائة حرة وسبعمائة سرية { فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ } [الأحزاب : 38] في الأنبياء الذين مضوا من قبل
جزء : 3 رقم الصفحة : 444
{ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا } [الأحزاب : 38] قضاء مقضياً وحكماً مبتوتاً ، ولا وقف عليه إن جعلت { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ } [الأحزاب : 39] بدلاً من { الَّذِينَ } الأول ، وقف إن جعلته في
444
محل الرفع أو النصب على المدح أي هم الذين يبلغون أو أعني الذي يبلغون { وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ } [الأحزاب : 39] وصف الأنبياء بأنهم لا يخشون إلا الله تعريض بعد التصريح في قوله { وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ } [الأحزاب : 37] { وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا } [النساء : 6]

كافياً للمخاوف ومحاسباً على الصغيرة والكبيرة فكان جديراً بأن تخشى منه.
{ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مّن رِّجَالِكُمْ } [الأحزاب : 40] أي لم يكن أبا رجل منكم حقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ، والمراد من رجالكم البالغين ، والحسن والحسين لم يكونا بالغين حينئذ والطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم توفوا صبياناً { وَلَاكِنِ } كان { رَسُولِ اللَّهِ } [الأحزاب : 21] وكل رسول أبو أمته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء ، وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة فكان حكمه كحكمكم والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير.
جزء : 3 رقم الصفحة : 444

(245/3)

{ وَخَاتَمَ النَّبِيّانَ } [الأحزاب : 40] بفتح التاء عاصم بمعنى الطابع أي آخرهم يعني لا ينبأ أحد بعده وعيسى ممن نبي قبله ، وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعة محمد صلى الله عليه وسلّم كأنه بعض أمته.
وغيره بكسر التاء بمعنى الطابع وفاعل الختم.
وتقوّيه قراءة ابن مسعود { وَخَاتَمَ النَّبِيّانَ } { كَثِيرًا } أثنوا عليه بضروب الثناء وأكثروا ذلك { وَسَبّحُوهُ بُكْرَةً } [الأحزاب : 42] أول النهار { وَأَصِيلا } آخر النهار ، وخصا بالذكر لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما.
وعن قتادة : قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
والفعلان أي اذكروا الله وسبحوه موجهان إلى البكرة والأصيل كقولك " صم وصل يوم الجمعة " .
والتسبيح من جملة الذكر ، وإنما اختص من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة إبانة لفضله على سائر الأذكار ، لأن معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات.
وجاز أن يراد بالذكر وإكثاره تكثير الطاعات والعبادات فإنها من جملة الذكر ، ثم خص
445
من ذلك التسبيح بكرة وهي صلاة الفجر وأصيلاً وهي صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء أو صلاة الفجر والعشاءين.
{ هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائكَتُهُ } [الأحزاب : 43] لما كان من شأن المصلي أن ينعطف في ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره حنواً عليه وترؤفاً كعائد المريض في انعطافه عليه

والمرأة في حنوها على ولدها ، ثم كثر حتى استعمل في الرحمة والترؤف ومنه قولهم " صلى الله عليك " أي ترحم عليك وترأف.

والمراد بصلاة الملائكة قولهم " اللهم صل على المؤمنين " جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنهم فاعلون الرحمة والرأفة ، والمعنى هو الذي يترحم عليكم ويترأف حين يدعوكم إلى الخير ويأمركم بإكثار الذكر والتوفر على الصلاة والطاعة { لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } [الأحزاب : 43] من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة { وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا } [الأحزاب : 43] هو دليل على أن المراد بالصلاة الرحمة.

وروي أنه لما نزل { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ } [الأحزاب : 56] قال أبو بكر : ما خصك الله يا رسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه فنزلت { تَحِيَّتُهُمْ } من إضافة المصدر إلى المفعول أي تحية الله لهم { يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ } [التوبة : 77] يرونه { سَلَامٌ } يقول الله تبارك وتعالى السلام عليكم { وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا } [الأحزاب : 44] يعني الجنة.

جزء : 3 رقم الصفحة : 444

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا } [الأحزاب : 45] على من بعثت إليهم وعلى تكذيبهم وتصديقهم أي مقبولاً قولك عند الله لهم وعليهم.

كما يقبل قول الشاهد العدل في الحكم ، وهو حال مقدرة كما تقول " مررت برجل معه صقر صائداً به " إي مقدراً به الصيد غداً { وَمُبَشِّرًا } للمؤمنين بالجنة { وَنَذِيرًا } للكافرين بالنار { وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ } [الأحزاب : 46] بأمره أو بتيسيره والكل منصوب على الحال { وَسِرَاجًا مُّنِيرًا } [الأحزاب : 46] جلا به الله ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل

446

بالسراج المنير ويهتدي به.

والجمهور على أنه القرآن فيكون التقدير وذا سراج منير أو وتالياً سراجاً منيراً ، ووصف بالإنارة لأن من السرج ما لا يضيء إذا قل سليطه ودقت فتيلته ، أو شاهداً بواحدانيتنا ومبشراً برحمتنا ونذيراً بنقمتنا وداعياً إلى عبادتنا وسراجاً وحجة ظاهرة لحضرتنا { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلا كَبِيرًا } [الأحزاب : 47] ثواباً عظيماً { وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } [الأحزاب : 1] المراد به التهييج أو الدوام والثبات على ما كان عليه { وَدَعْ أَذَاهُمْ } [الأحزاب : 48] هو بمعنى الإيذاء فيحتمل أن يكون مضافاً إلى الفاعل أي اجعل إيذاءهم إياك في جانب ولا تبال بهم ولا تخف عن إيذائهم ، أو إلى المفعول أي دع إيذاءك إياهم مكافأة لهم { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [الانفال : 61] فإنه

يكفيكهم { وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا } [النساء : 81] وكفى به مفوضاً إليه.
وقيل : إن الله تعالى وصفه بخمسة أوصاف وقابل كلاً منها بخطاب مناسب له ، قابل الشاهد { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [البقرة : 223] لأنه يكون شاهداً على أمته وهم يكونون شهداء على سائر الأمم وهو الفضل الكبير ، والمبشر بالإعراض عن الكافرين والمناقين لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين وهو مناسب للبشارة ، والنذير بـ { وَدَعْ أَذَاهُمْ } لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر والأذى لا بد له من عقاب عاجل أو آجل كانوا منذرين به في المستقبل ، والداعي إلى الله بتيسيره بقوله { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [الانفال : 61] فإن من توكل على الله يسر عليه كل عسير ، والسراج المنير بالإكتفاء به وكيلاً لأن من أناره الله برهاناً على جميع خلقه كان جديراً بأن يكتفي به عن جميع خلقه.
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ } [الأحزاب : 49] أي تزوجتتم.
والنكاح هو الوطء في الأصل وتسمية العقد نكاحاً لملابسته له من حيث إنه طريق إليه كتسمية الخمر إثماً لأنه سببه ، وكقول الراجز.
جزء : 3 رقم الصفحة : 444
أسنمة الآبال في سحابه سمي الماء
447
بأسنمة الآبال لأنه سبب سمن الآبال وارتفاع أسنمتها.
ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله تعالى إلا في معنى العقد لأنه في معنى الوطء من باب التصريح به ، ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والتغشي والإتيان.
وفي تخصيص المؤمنات مع أن الكتابيات تساوي المؤمنات في هذا الحكم إشارة إلى ان الأولى بالمؤمن أن ينكح مؤمنة { ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ } [الأحزاب : 49] والخلوة الصحيحة كالمس { فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا } [الأحزاب : 49] فيه دليل على أن العدة تجب على النساء للرجال.
ومعنى { تَعْتَدُّونَهَا } تستوفون عددها تفتعلون من العد { فَمَتِّعُوهُنَّ } والمتعة تجب للتي طلقها قبل الدخول بها ولم يسم لها مهر دون غيرها { وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا } [الأحزاب : 49] أي لا تمسكوهن ضراراً وأخرجوهن من منازلكم إذ لا عدة لكم عليهن.
جزء : 3 رقم الصفحة : 444
{ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّاتِى ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ } [الأحزاب : 50] مهورهن إذ المهر أجر على البضع ولهذا قال الكرخي : إن النكاح بلفظ الإجارة جائز.
وقلنا : التأبيد من شرط النكاح والتأقيت من شرط الإجارة وبينهما منافاة.
وإيتاؤها إعطاؤها عاجلاً أو فرضها وتسميتها في العقد
جزء : 3 رقم الصفحة : 448

{ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَيْكَ } [الأحزاب : 50] وهي صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما { وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّاتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ } [الأحزاب : 50] ومع ليس للقران بل لوجودها فحسب كقوله { وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ } [النمل : 44] (النمل : 44) وعن أم هانيء بنت أبي طالب : خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلّم فاعتذرت فعذرني
448

(247/3)

فأنزل الله هذه الآية ، فلم أحل له لأني لم أهاجر معه { وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ } [الأحزاب : 50] وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها نولا تطلب مهراً من النساء المؤمنات إن اتفق ذلك ولذا نكرها.

قال ابن عباس : هو بيان حكم في المستقبل ولم يكن عنده أحد منهن بالهبة.

وقيل : الواهبة نفسها ميمونة بنت الحرث أو زينب بنت خزيمة أو أم شريك بنت جابر أو خولة بنت حكيم.

وقرأ الحسن " أن " بالفتح على التعليل بتقدير حذف اللام.

وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه بغير " إن " { إِنْ أَرَادَ النَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا } [الأحزاب : 50] استنكاحها طلب نكاحها والرغبة فيه.

وقيل : نكح واستنكح بمعنى ، والشرط الثاني تقييد للشرط الأول شرط في الإحلال هبتها نفسها وفي الهبة إرادة استنكاح رسول الله صلى الله عليه وسلّم كأنه قال : أحللناها لك إن وهبت لك نفسها وأنت تريد أن تستنكحها لأن إرادته هي قبول الهبة وما به تتم ، وفيه دليل جواز النكاح بلفظ الهبة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأمته سواء في الأحكام إلا فيما خصه الدليل { خَالِصَةً } بلا مهر حال من الضمير في { وَهَبَتْ } أو مصدر مؤكد أي خلص لك إحلال ما أحللنا لك خالصة بمعنى خلوصاً والفاعلة في المصادر غير عزيز كالعافية والكاذبة { لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } [الأحزاب : 50] بل يجب المهر لغيرك وإن لم يسمه أو نفاه.

عدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله { إِنْ أَرَادَ النَّبِىُّ } [الأحزاب : 50] ثم رجع إلى الخطاب ليؤذن أن الاختصاص تكرمة له لأجل النبوة وتكريره أي تكرير النبي تفخيم له.

{ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِى أَزْوَاجِهِمْ } [الأحزاب : 50] أي ما أوجبنا من المهور على أمتك في زوجاتهم أو ما أوجبنا عليهم في أزواجهم من الحقوق { وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } [الأحزاب : 50] بالشراء وغيره من وجوه الملك.

وقوله { لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ } [الأحزاب : 50] ضيق متصل بـ { خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ }

وقوله { قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِى أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } [الأحزاب : 50] جملة
449
اعتراضية { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا } [النساء : 96] بالتوسعة على عباده.
جزء : 3 رقم الصفحة : 448
{ تُرْجِى } بلا همز : مدني وحمزة وعلي وخلف وحفص ، وبهمز غيرهم : تؤخر { مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ } تضم بمعنى تترك مضاجعة من تشاء منهن وتضاجع من تشاء ، أو تطلق من تشاء وتمسك من تشاء ، أو لا تقسم لأيتهن شئت وتقسم لمن شئت ، أو تترك تزوج من شئت من نساء أمتك وتتزوّج من شئت ، وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لأنه إما أن يطلق وإما أن يمسك ، فإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أولم يقسم ، وإذا طلق وعزل فإما أن يخلي المعزولة لا يبتغيها أو يبتغيها.
وروي أنه أرجى منهن جويرية وسودة وصفية وميمونة وأم حبيبة وكان يقسم لهن ما شاء كما شاء ، وكانت ممن آوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ، أرجى خمساً وآوى أربعاً ، وروي أنه كان يسوي مع ما أطلق له وخير فيه إلا سودة فإنها وهبت ليلتها لعائشة وقالت : لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نسائك { وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ } [الأحزاب : 51] أي ومن دعوت إلى فراشك وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالإرجاء فلا ضيق عليك في ذلك أي ليس إذا عزلتها لم يجز لك ردها إلى نفسك.
و " من " رفع بالابتداء وخبره { فَلا جُنَاحَ } [الأحزاب : 51] { ذَالِكَ } التفويض إلى مشيئتك { أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ } أي أقرب إلى قرة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعاً لأنهن إذا علمن أن هذا التفويض من عند الله اطمأنت نفوسهن وذهب التغاير وحصل الرضا وقرت العيون.
{ كُلُّهُنَّ } بالرفع تأكيد لنون وقرىء { وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ } على التقديم ، وقرىء شاذاً " كلهن " بالنصب تأكيداً لهن في { ءَاتَيْتَهُنَّ } { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ } [الأحزاب : 51] فيه وعيد لمن لم ترض
450

منهن بما دبر الله من ذلك وفوض إلى مشيئة رسوله { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا } [النساء : 17] بذات الصدور { حَلِيمًا } لا يعاجل بالعقوبة فهو حقيق بأن يتقي ويحذر.
جزء : 3 رقم الصفحة : 448

{ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ } [الأحزاب : 52] بالتاء : أبو عمرو ويعقوب ، وغيرهما بالتذكير لأن تأنيث الجمع غير حقيقي وإذا جاز بغير فصل فمع الفصل أجوز { مِن بَعْدِ } [يونس : 3] من بعد التسع لأن التسع نصاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم من الأزواج كما أن الأربع نصاب أمته { وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ } [الأحزاب : 52] الطلاق.

والمعنى أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجاً أخر بكلهن أو بعضهن كرامة لهن وجزاء على ما اخترن ورضين فقصر رسول الله صلى الله عليه وسلّم عليهن وهن التسع التي مات عنهن : عائشة ، حفصة ، أم حبيبة ، سودة أم سلمة ، صفية ، ميمونة ، زينب بنت جحش ، جويرية.

و " من " في { مِنْ أَزْوَاجٍ } [الأحزاب : 52] التأكيد النفي وفائدته استغراق جنس الأزواج بالتحريم { وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ } [الأحزاب : 52] في موضع الحال من الفاعل وهو الضمير في { تُبَدَّلُ } أي تتبدل لا من المفعول الذي هو من أزواج لتوغله في التنكير ، وتقديره مفروضاً إعجابك بهن.

وقيل : هي أسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبي طالب فإنها ممن أعجبه حسنهن.

وعن عائشة وأم سلمة : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلّم حتى أحل له أن يتزوج من النساء ما شاء يعني أن الآية نسخت ، ونسخها إما بالسنة أو بقوله { إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ } [الأحزاب : 50] وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف { إِلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ } [الأحزاب : 52] استثنى ممن حرم عليه الإماء ومحل " ما " رفع بدل من { النِّسَآءِ } { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا } [الأحزاب : 52] حافظاً وهو تحذير عن مجاوزة حدوده.

451

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ } [الأحزاب : 53] { أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ } [الأحزاب : 53] في موضع الحال أي لا تدخلوا إلا مأذوناً لكم ، أو في معنى الظرف تقديره إلا وقت أن يؤذن لكم ، { غَيْرَ نَاظِرِينَ } [

جزء : 3 رقم الصفحة : 448

الأحزاب : 53] حال من { لا تَدْخُلُوا } [الأحزاب : 53] وقع الاستثناء على الحال والوقت معاً كأنه قيل : لا تدخلوا بيوت النبي إلا وقت الإذن ولا تدخلوها إلا غير ناظرين أي غير منتظرين.

وهؤلاء قوم كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلّم فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه ، ومعناه لا تدخلوا يا أيها المتحينون للطعام إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، وإنى الطعام إدراكه يقال إنىَ الطعام أني كقولك قلاه قلي.

وقيل : إناه وقته أي غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله.

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلّم أولم على زينب بتمر وسويق وشاة وأمر أنساً أن يدعو بالناس فترادفوا أفواجاً يأكل فوج ويخرج ثم يدخل فوج إلى أن قال يا رسول الله دعوت حتى ما أجد أحدر أدعوه فقال " ارفعوا طعامكم " ، وتفرق الناس وبقيء ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلّم ليخرجوا فطاف رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالحجرات وسلم عليهن ودعون له

ورجع ، فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم شديد الحياء فتولى ، فلما رأوه متولياً خرجوا فرجع ونزلت { وَلَـاكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا } [الأحزاب : 53] فتفرقوا { وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ } هو مجرور معطوف على { نَاظِرِينَ } أو منصوب أي ولا تدخولها مستأنسين نهوا عن أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدث به { إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِ مِنكُمْ } من إخراجكم { وَاللَّهُ لا يَسْتَحْىِ مِنَ الْحَقّ } يعني أن إخراجكم حق ما ينبغي أن يستحيا منه.

ولما كان الحياء مما يمنع الحيّ من بعض الأفعال قيل لا يستحي من الحق أي لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحي منكم ، هذا

452

(249/3)

أدبٌ أدّب الله به الثقلاء.

وعن عائشة رضي الله عنها : حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم وقال { فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا } [الأحزاب : 53].

{ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ } [الأحزاب : 53] الضمير لنساء رسول الله صلى الله عليه وسلّم لدلالة بيوت النبي لأن فيها نساءه { مَّتَاعًا } عارية أو حاجة المتاع { فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَالِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ } [الأحزاب : 53] من خواطر الشيطان وعوارض الفتن ، وكانت النساء قبل نزول هذه الآية يبرزن للرجال وكان عمر رضي الله عنه يجب ضرب الحجاب عليهن ويود أن ينزل فيه وقال : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت.

وذكر أن بعضهم قال : أننهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب لئن مات محمد لأتزوّجن فلانة فنزل { وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا } [الأحزاب : 53] أي وما صح لكم إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم ولا نكاح أزواجه من بعد موته { إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا } [الأحزاب : 53] أي ذنباً عظيماً.

جزء : 3 رقم الصفحة : 448

{ إِن تُبْدُوا شيئا } [الأحزاب : 54] من إيذاء النبي صلى الله عليه وسلّم أو من نكاحهن { أَوْ تُخْفُوهُ } [النساء : 149] في أنفسكم من ذلكم { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلّ شَىْءٍ عَلِيمًا } [الأحزاب : 54] فيعاقبكم به.

ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : يا رسول الله أو نحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب فنزل { لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى ءَابَآ ـِهِنَّ وَلا أَبْنَآ ـِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَآءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَآءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَآ ـِهِنَّ وَلا } أي نساء المؤمنات { وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ } [الأحزاب : 55] أي لا إثم

عليهن
453
في ألا يحتجبن من هؤلاء ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين وقد جاءت تسمية العم أبا قال الله تعالى :
جزء : 3 رقم الصفحة : 453
{ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَاهِ مَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ } (البقرة : 331).
وإسماعيل عم يعقوب ، وعبيدهن عند الجمهور كالأجانب.
ثم نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب وفي هذا النقل فضل تشديد كأنه قيل { وَاتَّقِينَ اللَّهَ } [الأحزاب : 55] فيما أمرتن به من الاحتجاب وأنزل فيه الوحي من الاستتار واحتطن فيه { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا } [النساء : 33] عالماً.
قال ابن عطاء : الشهيد الذي يعلم خطرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح.
{ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَـائكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ } [الأحزاب : 56] أي قولوا اللهم صل على محمد أو صلى الله على محمد { وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [الأحزاب : 56] أي قولوا اللهم سلم على محمد أو انقادوا لأمره وحكمه انقياداً.
وسئل عليه السلام عن هذه الآية فقال " إن الله وكل بي ملكين فلا أذكر عند عبد مسلم فيصلي عليّ إلا قال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين ، ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلي عليّ إلا قال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين " ثم هي واجبة مرة عند الطحاوي ، وكلما ذكر اسمه عند الكرخي وهو الاحتياط وعليه الجمهور.
وإن صلى على غيره على سبيل التبع كقوله " صلى الله على النبي وآله " فلا كلام فيه ، وأما إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة فمكروه وهو من شعائر الروافض.
{ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [الأحزاب : 57] أي يؤذون رسول الله ، وذكر اسم الله للتشريف أو عبر بإيذاء الله ورسوله عن فعل ما لا يرضى به الله ورسوله كالكفر وإنكار النبوة مجازاً ، وإنما جعل مجازاً فيهما وحقيقة الإيذاء يتصور في رسول الله لئلا يجتمع المجاز والحقيقة في لفظ واحد { لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالاخِرَةِ } [الأحزاب : 57] طردهم الله
454

(250/3)

عن رحمته في الدارين { وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا } [الأحزاب : 57] في الآخرة { وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا } [الأحزاب : 58] أطلق إيذاء الله ورسوله وقيد إيذاء المؤمنين

والمؤمنات لأن ذاك يكون غير حق أبداً ، وأما هذا فمنه حق كالحد والتعزيز ومنه باطل.
قيل : نزلت في ناس من المنافقين يؤذون علياً رضي الله عنه ويسمونه.
وقيل : في زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات.
وعن الفضيل : لا يحل لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حق فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات { فَقَدِ احْتَمَلُوا } [الأحزاب : 58] تحملوا { بُهْتَانًا } كذباً عظيماً { وَإِثْمًا مُّبِينًا } [النساء : 20] ظاهراً.
جزء : 3 رقم الصفحة : 453
{ مُّبِينًا * يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ } الجلباب : ما يستر الكل مثل الملحفة عن المبرد.
ومعنى { يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ } [الأحزاب : 59] يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن.
يقال : إذا زلّ الثوب عن وجه المرأة أدني ثوبك على وجهك.
و " من " للتبعيض أي ترخي بعض جلبابها وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز من الأمة ، أو المراد أن يتجلبن ببعض مالهن من الجلابيب وأن لا تكون المرأة متبذلة في درع وخمار كالأمة ولها جلبابان فصاعداً في بيتها ، وذلك أن النساء كنّ في أول الإسلام على هجّيراهن في الجاهلية متبذلات تبرز المرأة في درع وخمار لا فضل بين الحرة والأمة ، وكان الفتيان يتعرضون إذا خرجن بالليل لقضاء حوائجهن في النخيل والغيطان للإماء ، وربما تعرضوا للحرة لحسبان الأمة فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زي الإماء بلبس الملاحف وستر الرؤوس والوجوه فلا يطمع فيهن طامع وذلك قوله { ذَالِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ } [الأحزاب : 59] أي أولى وأجدر بأن يعرفن فلا يتعرض لهن { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا } [النساء : 96] لما سلف منهن من التفريط { رَّحِيمًا } بتعليمهن آداب المكارم { لَّائِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ } [الأحزاب : 60] فجور ، وهم الزناة من
455
قوله { فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ } [الأحزاب : 32] { وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ } [الأحزاب : 60] هم أناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلّم فيقولون هزموا وقتلوا وجرى عليهم كيت وكيت فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين.
يقال : أرجف بكذا إذا أخبر به على غير حقيقة لكونه خبراً متزلزلاً غير ثابت من الرجفة وهي الزلزلة { لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ } [الأحزاب : 60] لنأمرنك بقتالهم أو لنسلطنك عليهم { وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ } في المدينة وهو عطف على { لَنُغْرِيَنَّكَ } لأنه يجوز أن يجاب به القسم لصحة قولك لئن لم ينتهوا لا يجاورونك.
ولما كان الجلاء عن الوطن أعظم من جميع ما أصيبوا به عطف بـ { ثُمَّ } لبعد حاله عن حال المعطوف عليه { إِلا قَلِيلا } [النساء : 46] زماناً قليلاً.
والمعنى لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم ، والفسقة عن فجورهم ، والمرجفون عما يؤلفون

من أخبار السوء ، لنأمرنك بأن تفعل الأفعال التي تسوءهم ، ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة وإلى أن لا يساكنوك فيها إلا زماناً قليلاً ريثما يرتحلون ، فسمي ذلك إغراء وهو التحريش على سبيل المجاز.

جزء : 3 رقم الصفحة : 453

(251/3)

{ مَّلْعُونِينَ } نصب على الشتم أو الحال أي لا يجاورنك إلا ملعونين ، فالاستثناء دخل على الظرف والحال معاً كما مر ولا ينتصب عن { أُخِذُوا } لأن ما بعد حروف الشرط لا يعمل فيما قبلها { أَيْنَمَا ثُقِفُوا } [الأحزاب : 61] وجدوا { أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا } [الأحزاب : 61] والتشديد يدل على التكثير { سُنَّةَ اللَّهِ } [غافر : 85] في موضع مصدر مؤكد أي سن الله في الذين ينافقون الأنبياء أن يقتلوا أينما وجدوا { فِى الَّذِينَ خَلَوْا } [الأحزاب : 38] مضوا { مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا } [الأحزاب : 62] أي لا يبدل الله سنته بل يجريها مجرى واحداً في الأمم.

{ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ } [الأحزاب : 63] كان المشركون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن وقت قيام الساعة استعجالاً على سبيل الهزء ، واليهود يسألونه امتحاناً لأن الله تعالى عمى وقتها في التوراة وفي كل كتاب ، فأمر رسوله بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله

456

به ، ثم بين لرسوله أنها قريبة الوقوع تهديداً للمستعجلين وإسكاناً للممتحنين بقوله { قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا } [الأحزاب : 63] شيئاً قريباً أو لأن الساعة في معنى الزمان { إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا } [الأحزاب : 64] ناراً شديدة الاتقاد.

جزء : 3 رقم الصفحة : 456

{ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا } [الجن : 23] هذا يرد مذهب الجهمية لأنهم يزعمون أن الجنة والنار تفنيان.

ولا وقف على { سَعِيرًا } لأن قوله { خَالِدِينَ فِيهَآ } [الجن : 23] حال عن الضمير في { لَهُمْ } .

{ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا } [الأحزاب : 65] ناصراً يمنعهم.

اذكر { يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ } [الأحزاب : 66] تصرّف في الجهات كما ترى البضعة تدور في القدر إذا غلت ، وخصصت الوجوه لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده أو يكون الوجه عبارة عن الجملة { يَقُولُونَ } حال { يَالَيْتَنَآ أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا } [الأحزاب : 66] فنتخلص من هذا العذاب فتمنوا حين لا ينفعهم التمني { وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا } [الأحزاب : 67] جمع سيد.

شامي وسهل ويعقوب جمع الجمع ، والمراد رؤساء الكفرة الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم { سَادَتَنَا

وَكُبَرَآءَنَا } [الأحزاب : 67] ذوي الأسنان منا أو علماءنا { فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا } [الأحزاب : 67] يقال : ضل السبيل وأضله إياه ، وزيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر ، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف { رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ } [الأحزاب : 68] للضلال والإضلال { وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا } [الأحزاب : 68] بالباء عاصم ليدل على أشد اللعن وأعظمه ، وغيره بالثاء تكثيراً لأعداد اللعائن.

ونزل في شأن زيد وزينب وما سمع فيه من قاله بعض الناس

457

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا } [الأحزاب : 69] " ما " مصدرية أو موصولة ، وأيهما كان فالمراد البراءة عن مضمون القول ومؤاده وهو الأمر المعيب.

وأذى موسى عليه السلام هو حديث المومسة التي أرادها قارون على قذفه بنفسها أواتهامهم إياه بقتل هرون فأحياه الله تعالى فأخبرهم ببراءة موسى عليه السلام كما برأ نبينا عليه السلام بقوله : { مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مّن رِّجَالِكُمْ } { وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا } [الأحزاب : 69] ذا جاه ومنزلة مستجاب الدعوة.

وقرأ ابن مسعود والأعمش { وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا } .

جزء : 3 رقم الصفحة : 456

(252/3)

{ وَجِيهًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا } صدقاً وصواباً أو قاصداً إلى الحق.

والسداد : القصد إلى الحق والقول بالعدل والمراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول والبعث على أن يسددوا قولهم في كل باب ، لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس كل خير.

ولا تقف على { سَدِيدًا } لأن جواب الأمر قوله { يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ } [الأحزاب : 71] يقبل طاعتكم أو يوفقكم لصالح العمل { وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } [آل عمران : 31] أي يمحها.

والمعنى راقبوا الله في حفظ ألسنتكم وتسديد قولكم فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم ما هو غاية الطلبة من تقبل حسناتكم والإثابة عليها ومن مغفرة سيئاتكم وتكفيرها.

وهذه الآية مقررة للتي قبلها بنيت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وهذه على الأمر باتقاء الله في حفظ اللسان ليترادف عليهم النهي والأمر مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام وإتباع الأمر الوعد البليغ فيقوي الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه.

ولما علق بالطاعة الفوز العظيم بقوله { وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا } [الأحزاب : 71] أتبعه قوله.

{ إِنَّا عَرَضْنَا الامَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَالْجِبَالِ } [الأحزاب : 72] وهو يريد بالأمانة الطاعة لله وبحمل الأمانة الخيانة.

يقال : فلان حامل للأمانة ومحتمل لها أي يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ، إذ الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها وهو حاملها

458

ولهذا يقال : ركبته الديون ولي عليه حق ، فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حامل لها يعني أن هذا الأجرام العظام من السماوات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله انقياد مثلها وهو ما يأتي من الجمادات ، وأطاعت له الطاعة التي تليق بها حيث لم تتمنع على مشيئته وإرادته إيجاداً وتكويناً وتسوية على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة كما قال : { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلارْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآ ئِعِينَ } [فصلت : 11] (فصلت : 11).

وأخبر أن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب يسجدون لله { وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الانْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ } ، وأما الإنسان فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعة ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه وهو حيوان عاقل صالح للتكليف مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع ، وهذا معنى قوله { فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا } [الأحزاب : 72] أي أبين الخيانة فيها وأن لا يؤدينها { وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا } [الأحزاب : 72] وخفن من الخيانة فيها { وَحَمَلَهَا الانسَانُ } [الأحزاب : 72] أي خان فيها وأبى أن لا يؤديها { إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا } [الأحزاب : 72] لكونه تاركاً لأداء الأمانة { جَهُولا } لإخطائه ما يساعده مع تمكنه منه وهو أداؤها.

قال الزجاج : الكافر والمنافق حملا الأمانة أي خانا ولم يطيعا.

ومن أطاع من الأنبياء والمؤمنين فلا يقال كان ظلوماً جهولاً.

وقيل : معنى الآية أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه فأبى حمله وأشفق منه وحمله الإنسان على ضعفه { إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا } [الأحزاب : 72] حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها وضمنها ثم خاص بضمانه فيها ، ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب ، وما جاء القرآن إلا على أساليبهم من ذلك قولهم " لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوي العوج " .

واللام في { لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ } [الأحزاب : 73] للتعليل لأن التعذيب هنا نظير التأديب في قولك " ضربته للتأديب " فلا تقف على { جَهُولا }

459

{ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } [الأحزاب : 73] وقرأ الأعمش { وَيَتُوبَ اللَّهُ } [الأحزاب : 73] بالرفع ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل ويبتديء { وَيَتُوبَ اللَّهُ } [الأحزاب : 73] ومعنى المشهورة ليعذب الله حامل الأمانة ويتوب على غيره ممن لم يحملها لأنه إذا تيب على الوافي كان نوعاً من عذاب الغادر ، أو للعاقبة أي حملها الإنسان فآل الآمر إلى تعذيب الأشقياء وقبول توبة السعداء { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا } [النساء : 96] للتائبين { رَّحِيمًا } بعباده المؤمنين

460

سورة سبأ

مكية وهي أربع وخمسون آية

{ الْحَمْدُ } إن أجرى على المعهود فهو بما حمد به نفسه محمود ، وإن أجرى على الاستغراق فله لكل المحامد الاستحقاق { لِّلَّهِ } بلام التمليك لأنه خالق ناطق الحمد أصلاً فكان بملكه مالك الحمد للتحميد أهلاً { الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الارْضِ } [إبراهيم : 2] خلقاً وملكاً وقهراً فكان حقيقاً بأن يحمد سراً وجهراً { وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الاخِرَةِ } [سبأ : 1] كما هو له في الدنيا إذا النعم في الدارين من المولى ، غير أن الحمد هنا واجب لأن الدنيا دار تكليف وثم لا ، لعدم التكليف وإنما يحمد أهل الجنة سروراً بالنعيم وتلذذاً بما نالوا من الأجر العظيم بقولهم { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ } [الزمر : 74] (الزمر : 47) { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ } [

جزء : 3 رقم الصفحة : 461

فاطر : 34] (فاطر : 43) { وَهُوَ الْحَكِيمُ } [الأنعام : 18] بتدبير ما في السماء والأرض { الْخَبِيرُ } بضمير من يحمده ليوم الجزاء والعرض { يَعْلَمْ } مستأنف { مَا يَلِجُ } [سبأ : 2] ما يدخل { فِى الارْضِ } [السجدة : 10] من الأموات والدفائن { وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا } [سبأ : 2] من النبات وجواهر المعادن { وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ } [سبأ : 2] من الأمطار

461

وأنواع البركات { وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا } [سبأ : 2] يصعد إليها من الملائكة والدعوات { وَهُوَ الرَّحِيمُ } [سبأ : 2] بإنزال ما يحتاجون إليه { الْغَفُورُ } لما يجترئون عليه.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [النمل : 67] أي منكرو البعث { لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ } [سبأ : 3] نفي للبعث وإنكار لمجيء الساعة { قُلْ بَلَى } [سبأ : 3] أوجب ما بعد النفي بـ " بلى " على معنى أن ليس الأمر إلا إتيانها { وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ } [سبأ : 3] ثم أعيد إيجابه مؤكداً بما هو الغاية في التوكيد والتشديد وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل ، ثم أمد التوكيد القسمى بما اتبع المقسم به من الوصف بقوله { عَالِمُ الْغَيْبِ } [الجن : 26] لأن عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وبشدة ثباته واستقامته لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر ، وكلما كان المستشهد به أرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وآكد والمستشهد عليه أثبت وأرسخ ، ولما كان قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها في

الخفية كان الوصف بما يرجع إلى علم الغيب أولى وأحق.
{ عَالِمُ الْغَيْبِ } [الجن : 26] مدني وشامي أي هو عالم الغيب { عَالِمُ الْغَيْبِ } حمزة وعلي على المبالغة { لا يَعْزُبُ عَنْهُ } [سبأ : 3] وبكسر الزاي : عليّ.
يقال : عزب يعزب ويعزب إذا غاب وبعد { مِثْقَالَ ذَرَّةٍ } [الزلزلة : 7] مقدار أصغر نملة { فِى السَّمَاوَاتِ وَلا فِى الارْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَالِكَ } [
جزء : 3 رقم الصفحة : 461

(254/3)

سبأ : 3] من مثقال ذرة { وَلا أَكْبَرَ } [يونس : 61] من مثقال ذرة { إِلا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ } [الأنعام : 59] إلا في اللوح المحفوظ ، { وَلا أَصْغَرُ مِن ذَالِكَ وَلا أَكْبَرُ } بالرفع عطف على { مِثْقَالَ ذَرَّةٍ } [الزلزلة : 7] ويكون " إلا " بمعنى لكن ، أو رفعاً بالابتداء والخبر { فِي كِتَابٍ } [الانفال : 75] واللام في { لِّيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أولئك لَهُم مَّغْفِرَةٌ } [سبأ : 4] لما قصروا فيه من مدارج الإيمان { وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الانفال : 4] لما صبروا عليه من مناهج الإحسان متعلق بـ { لَتَأْتِيَنَّكُمْ } تعليلاً له.
{ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِى ءَايَاتِنَا } [سبأ : 5] جاهدوا في رد القرآن { مُعَاجِزِينَ } مسابقين ظانين
462
أنهم يفوتوننا.
{ مُعَاجِزِينَ } مكي وأبو عمرو أي مثبطين الناس عن اتباعها وتأملها أو ناسبين الله إلى العجز { أولئك لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ } برفع { أَلِيمٌ } مكي وحفص ويعقوب صفة لعذاب أي عذاب أليم من سيء العذاب.
قال قتادة : الرجز سوء العذاب ، وغيرهم بالجر صفة لرجز.
جزء : 3 رقم الصفحة : 461
{ وَيَرَى } في موضع الرفع بالاستئناف أي ويعلم { الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } [سبأ : 6] يعني أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ومن يطأ أعقابهم من أمته أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا كعبد الله بن سلام وأصحابه ، والمفعول الأول لـ { يَرَى } { الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ } [سبأ : 6] يعني القرآن { هُوَ الْحَقُّ } [النور : 25] أي الصدق وهو فصل و { الْحَقّ } مفعول ثانٍ أو في موضع النصب معطوف على { لِيَجْزِىَ } وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق علماً لا يزاد عليه في الإيقان { وَيَهْدِى } الله أو الذي أنزل إليك { إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [إبراهيم : 1] وهو دين الله { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [النمل : 67] وقال قريش بعضهم لبعض { هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ } [سبأ :

7] يعنون محمداً صلى الله عليه وسلّم.
وإنما نكّروه مع أنه كان مشهوراً علماً في قريش وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم تجاهلاً به وبأمره وباب التجاهل في البلاغة وإلى سحرها { يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ } [سبأ : 7] أي يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب أنكم تبعثون وتنشئون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً ويمزق أجسادكم البلى كل ممزق أي يفرقكم كل تفريق ، فالممزق مصدر بمعنى التمزيق ، والعامل في { إِذَآ } ما دل عليه { إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ } [سبأ : 7] أي تبعثون ، والجديد فعيل بمعنى فاعل عند البصريين تقول جد فهو جديد كقل فهو قليل ولا يجوز { إِنَّكُمْ } بالفتح للام في خبره { افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } [الكهف : 15] أهو مفترٍ على الله كذباً فيما ينسب إليه من ذلك
4630
والهمزة للاستفهام وهمزة الوصل حذفت استغناء عنها { أَم بِهِ جِنَّةُ } [سبأ : 8] جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه { بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالاخِرَةِ فِى الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ } [سبأ : 8] ثم قال سبحانه وتعالى : ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء وهو مبرأ منهما بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون في عذاب النار وفيما يؤديهم إليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك.
وذلك أجن الجنون ، جعل وقوعهم في العذاب رسيلاً لوقوعهم في الضلال كأنهما كائنان في وقت واحد ، لأن الضلال لما كان العذاب من لوازمه جعلا كأنهما مقترنان.
ووصف الضلال بالبعيد من الإسناد المجازي لأن بالبعيد من الإسناد المجازي لأن البعيد صفة الضال إذا بعد عن الجادة.
جزء : 3 رقم الصفحة : 461

(255/3)

{ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالارْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ } وبالإدغام : عليّ للتقارب بين الفاء والباء ، وضعفه البعض لزيادة صوت الفاء على الباء { الارْضَ أَوْ نُسْقِطْ } [سبأ : 9] الثلاثة بالياء : كوفي غير عاصم لقوله { افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } [الكهف : 15] { عَلَيْهِمْ كِسَفًا } [سبأ : 9] { كِسَفًا } حفص { مِّنَ السَّمَآءِ } [الشعراء : 4] أي أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله ولم يخافوا أن يخسف الله بهم ، أو يسقط عليهم كسفا لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول وبما جاء به كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة { إِنَّ فِى ذَالِكَ } [السجدة : 26] النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما تدلان عليه من قدرة الله تعالى { لايَةً } لدلالة { لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ } [سبأ : 9] راجع إلى ربه مطيع له إذ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله على

أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به.

جزء : 3 رقم الصفحة : 464

{ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُادَ مِنَّا فَضْلا يَاجِبَالُ } بدل من { فَضْلا } أو من { ءَاتَيْنَآ } بتقدير 464

قولنا يا جبال أو قلنا يا جبال { أَوِّبِى مَعَهُ } [سبأ : 10] من التأويب رجعي معه التسبيح ومعنى تسبيح الجبال أن الله يخلق فيها تسبيحاً فيسمع منها كما يسمع من المسبح معجزة لداود عليه السلام { وَالطَّيْرُ } عطف على محل الجبال و { الطَّيْرُ } عطف على لفظ الجبال وفي هذا النظم من الفخامة ما لا يخفى حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء الذين إذا أمرهم بالطاعة أطاعوا وإذا دعاهم أجابوا إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد إلا وهو منقاد لمشيئة الله تعالى ، ولو قال آتينا داود منا فضلاً تأويب الجبال معه والطير لم يكن فيه هذه الفخامة.

{ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ } [سبأ : 10] وجعلناه له ليّناً كالطين المعجون يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة.

وقيل : لأن الحديد في يده لما أوتي من شدة القوة.

{ أَنِ اعْمَلْ } [سبأ : 11] " أن " بمعنى أي أو أمرناه أن أعمل { سَابِغَاتٍ } دروعاً واسعة تامة من السبوغ وهو أول من اتخذها ، وكان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدق على الفقراء.

وقيل : كان يخرج متنكراً فيسأل الناس عن نفسه ويقول لهم ما تقولون في داود فيثنون عليه فقيض الله له ملكاً في صورة آدمي فسأله على عادته فقال : نعم الرجل لولا خصلة فيه وهو أنه يطعم عياله من بيت المال فسأله عند ذلك ربه أن يسبب له ما يستغني به عن بيت المال فعلمه صنعة الدروع { وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ } [سبأ : 11] لا تجعل المسامير دقاقاً فتقلق ولا غلاظاً فتفصم الحلق ، والسرد : نسج الدروع { وَاعْمَلُوا } الضمير لداود وأهله { صَالِحًا } خالصاً يصلح للقبول { إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [سبأ : 11] فأجازيكم عليه.

جزء : 3 رقم الصفحة : 464

{ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ } [الأنبياء : 81] أي وسخرنا لسليمان الريح وهي الصبا.

ورفع { الرِّيحَ } أبو بكر وحماد والفضل أي وسليمان الريح مسخرة { غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ } [سبأ : 12] جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشي كذلك ، وكان يغدو من دمشق فيقيل 465

باصطخر فارس وبينهما مسيرة شهر ويروح من اصطخر فيبيت بكابل وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع.

وقيل : كان يتغدى بالري ويتعشى بسمرقند { وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ } [سبأ : 12] أي معدن النحاس فالقطر النحاس وهو الصفر ولكنه أساله وكان يسيل في الشهر ثلاثة أيام كما يسيل الماء وكان قبل سليمان لا يذوب ، وسماه عين القطر باسم ما آل إليه { وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ } [سبأ : 12] " من " في موضع نصب أي وسخرنا من الجن من يعمل { بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ } [سبأ : 12] بأمر ربه { وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ } [سبأ : 12] ومن يعدل منهم { عَنْ أَمْرِنَا } [سبأ : 12] الذي أمرنا به من طاعة سليمان { نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ } [سبأ : 12] عذاب الآخرة.

وقيل : كان معه ملك بيده سوط من نار فمن زاع عن أمر سليمان عليه السلام ضرب ضربة أحرقته { يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ } [سبأ : 13] أي مساجد أو مساكن { وَتَمَاثِيلَ } أي صور السباع والطيور.

وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما وكان التصوير مباحاً حينئذ { وَجِفَانٍ } جمع جفنة { كَالْجَوَابِ } جمع جابية وهي الحياض الكبار.

قيل : كان يقعد على الجفنة ألف رجل.

في الوصل والوقف : مكي ويعقوب وسهل ، وافق أبو عمرو في الوصل ، الباقون بغير ياء اكتفاء بالكسرة { كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ } [سبأ : 13] ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها.

وقيل : إنها باقية باليمن وقلنا لهم { اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُودَ شُكْرًا } أي ارحموا أهل البلاد واسألوا ربكم العافية عن الفضل و { شَاكِرًا } مفعول له أو حال أي شاكرين أو اشكروا لأن { اعْمَلُوا } فيه معنى اشكروا من حيث إن العمل للمنعم شكر له أو مفعول به يعني إنا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم فاعملوا أنتم شكراً ، وسئل الجنيد عن الشكر فقال : بذل المجهود بين يدي المعبود { وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ } [سبأ : 13] بسكون الياء : حمزة وغيره بفتحها

{ الشَّكُورُ } المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقاداً واعترافاً وكدحاً.

وعن ابن عباس رضي الله عنه : من يشكر على أحواله كلها.

وقيل : من يشكر على الشكر.

وقيل : من يرى عجزه عن الشكر.

وحكي عن داود عليه السلام أنه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي.

{ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ } [سبأ : 14] أي على سليمان { مَا دَلَّهُمْ } [سبأ : 14] أي الجن وآل داود { عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَآبَّةُ الارْضِ } [سبأ : 14] أي الأرضة وهي دويبة يقال لها صرفة والأرض فعلها فأضيفت إليه.

يقال : أرضت الخشبة أرضاً إذا أكلتها الأرضة { تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ } [سبأ : 14] والعصا تسمى منسأة لأنه ينسأ بها أي يطرد ، و { مِنسَأَتَهُ } بغير همز : مدني وأبو عمرو { فَلَمَّا خَرَّ } [سبأ : 14] سقط سليمان { تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ } [سبأ : 14] علمت الجن كلهم علماً بيناً بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم { أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا } [سبأ : 14] بعد موت سليمان { فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ } [سبأ : 14] وروي أن داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام فمات قبل أن يتمه فوصى به إلى سليمان فأمر الشياطين بإتمامه ، فلما بقي من عمره سنة سأل ربه أن يعمي عليهم موته حتى يفرغوا منه ولتبطل دعواهم علم الغيب وكان عمر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة ، ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة فبقي في ملكه أربعين سنة وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه.

وروي أن أفريدون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها فلم يجسر أحد بعده أن يدنو منه.

جزء : 3 رقم الصفحة : 467

{ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ } [سبأ : 15] بالصرف بتأويل الحي ، وبعدمه : أبو عمرو بتأويل القبيلة { فِى مَسْكَنِهِمْ } [سبأ : 15] حمزة وحفص { مَسْكَنِهِمْ } علي وخلف وهو موضع سكناهم وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها باليمن أو مسكن كل واحد منهم ، غيرهم

(257/3)

{ مَسْكَنِهِمْ } { ءَايَةً } اسم كان { جَنَّتَانِ } بدل من { ءَايَةً } أو خبر مبتدأ محذوف تقديره الآية جنتان ، ومعنى كونهما آية أن أهلها لما أعرضوا عن شكر الله سلبهم الله النعمة ليعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم ، أو جعلهما آية أي علامة دالة على قدرة الله وإحسانه ووجوب شكره { عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ } [سبأ : 15] أراد جماعتين من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وأخرى عن شمالها ، وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة كما تكون بساتين البلاد العامرة ، أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله.

جزء : 3 رقم الصفحة : 467

{ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ } [سبأ : 15] حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون إليهم ، أو لما

قال لهم لسان الحال ، أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك.
ولما أمرهم بذلك أتبعه قوله { بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ } [سبأ : 15] أي هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة ، وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور لمن شكره.
قال ابن عباس : كانت سبأ على ثلاث فراسخ من صنعاء وكانت أخصب البلاد ، تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل فتعمل بيدها وتسير بين تلك الشجر فيمتليء المكتل مما يتساقط فيه من الثمر وطيبها ليس فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية ، ومن يمر بها من الغرباء يموت قمله لطيب هوائها.
{ فَأَعْرِضُوا } عن دعوة أنبيائهم فكذبوهم وقالوا ما نعرف لله علينا نعمة { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ } [سبأ : 16] أي المطر الشديد أو العرم اسم الوادي أو هو الجرذ الذي نقب عليهم السّكر لما طغوا سلط الله عليهم الجرذ فنقبه من أسفل فغرقهم { وَبَدَّلْنَاهُم } المذكورتين { بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ } [سبأ : 16] وتسمية البدل جنتين للمشاكلة وازدواج الكلام كقوله { وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } [الشورى : 40] (الشورى : 04) { ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ } [سبأ : 16] الأكل الثمر يثقل ويخفف وهو قراءة نافع ومكي ، والخمط شجر الأراك ، وقيل : كل شجر ذي شوك { وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ } [سبأ : 16] الأثل شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود
468
عوداً ، ووجه من نون الأكل . وهو غير أبي عمرو . أن أصله ذواتي أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، أو وصف الأكل بالخمط كأنه قيل : ذواتي أكل بشع ، ووجه أبي عمر أن أكل الخمط في معنى البرير وهو ثمر الأراك إذا كان غضاً فكأنه قيل ذواتي برير ، والأثل والسدر معطوفان على { أَكَلَ } لا على { خَمْطٍ } لأن الأثل لا أكل له.
وعن الحسن : قلل السدر لأنه أكرم ما بدلوا لأنه يكون في الجنان { ذَالِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا } [سبأ : 17] أي جزيناهم ذلك بكفرهم فهو مفعول ثان مقدم { وَهَلْ نُجَازِى إِلا الْكَفُورَ } كوفي غير أبي بكر.
{ وَهَلْ نُجَازِى إِلا الْكَفُورَ } غيرهم يعني وهل نجازي مثل هذا الجزاء إلا من كفر النعمة ولم يشكرها أو كفر بالله ، أو هل يعاقب لأن الجزاء وإن كان عاماً يستعمل في معنى المعاقبة وفي معنى الإثابة لكن المراد الخاص وهو العقاب.
وعن الضحاك : كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد عليهما السلام.
جزء : 3 رقم الصفحة : 467
{ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم } [الكهف : 52] بين سبإٍ { وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا } [سبأ : 18] بالتوسعة على أهلها في النعم والمياه وهي قرى الشام { قُرًى ظَـاهِرَةً } [سبأ : 18] متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهي ظاهرة لأعين الناظرين ، أو ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفي عليهم وهي أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبإٍ إلى الشام { وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ } [سبأ : 18] أي جعلنا

هذه القرى على مقدار معلوم يقيل المسافر في قرية ويروح في أخرى إلى أن يبلغ الشام { سِيرُوا فِيهَا } [سبأ : 18] وقلنا لهم سيروا ولا قول ثمة ، ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه فكأنهم أمروا بذلك { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ } [سبأ : 18] أي سيروا فيها إن شئتم بالليل وإن شئتم بالنهار فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات أي سيروا فيها آمنين لا تخافون عدواً ولا جوعاً ولا عطشاً وإن تطاولت مدة سفركم وامتدت أياماً ولياليَ

(258/3)

469

{ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا } [سبأ : 19] قالوا يا ليتها كانت بعيدة فنسير على نجائبنا ، ونربح في التجارات ونفاخر في الدواب والأسباب ، بطروا النعمة وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب ، { بَعْدَ } مكي وأبو عمرو { وَظَلَمُوا } بما قالوا { أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ } [سبأ : 19] يتحدث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم { وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ } [سبأ : 19] وفرقناهم تفريقاً اتخذه الناس مثلاً مضروباً يقولون " ذهبوا أيدي سبأ " و " تفرقوا أيادي سبأ " فلحق غسان بالشام وأنمار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاياَتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ } [إبراهيم : 5] عن المعاصي { شَكُورٍ } للنعم أو لكل مؤمن لأن الإيمان نصفان نصفه شكر ونصفه صبر.

جزء : 3 رقم الصفحة : 467

{ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ } [سبأ : 20] بالتشديد : كوفي أي حقق عليهم ظنه أو وجده صادقاً ، وبالتخفيف : غيرهم أي صدق في ظنه { فَاتَّبَعُوهُ } الضمير في { عَلَيْهِمْ } و { اتَّبَعُوهُ } لأهل سبإ أو لبني آدم.

وقلل المؤمنين بقوله { إِلا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ } [سبأ : 20] لقلتهم بالإضافة إلى الكفار { وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } [الأعراف : 17] (الأعراف : 71) { وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم } [سبأ : 21] لإبليس على الذين صار ظنه فيهم صدقاً { مِنْ } من تسليط واستيلاء بالوسوسة { سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ } [سبأ : 21] موجوداً ما علمناه معدوماً والتغير على المعلوم لا على العلم

جزء : 3 رقم الصفحة : 470

{ مَن يُؤْمِنُ بِالاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ } [سبأ : 21] محافظ عليه وفعيل ومفاعل متآخيان { قُلْ } لمشركي قومك { ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ } [سبأ : 22] أي زعمتموهم آلهة من دون الله ، فالمفعول الأول الضمير الراجع إلى الموصول وحذف كما حذف في قوله { أَهَاذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا } [الفرقان : 41] (الفرقان : 14) استخفافاً لطول الموصول بصلته.

والمفعول الثاني آلهة وحذف لأنه موصوف صفته { مِن دُونِ اللَّهِ } [يس : 74] والموصوف يجوز
470
حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوماً ، فإذاً مفعولا زعم محذوفان بسببين مختلفين ، والمعنى ادعوا الذين عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتموهم باسمه والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلتجؤن إليه وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته ، ثم أجاب عنهم بقوله { لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ } [سبأ : 22] من خير أو شر أو نفع أو ضر { فِى السَّمَاوَاتِ وَلا فِى الارْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ } [سبأ : 22] وما لهم في هذين الجنسين من شركة في الخلق ولا في الملك { وَمَا لَهُ } [البقرة : 200] تعالى { مِنْهُمْ } من آلهتهم { مِّن ظَهِيرٍ } [سبأ : 22] من عوين يعينه على تدبير خلقه يريد أنهم على هذه الصفة من العجز فكيف يصح أن يدعوا كما يدعي ويرجوا كما يرجى.

{ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُا إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } [سبأ : 23] أي أذن له الله يعني إلا من وقع الإذن للشفيع لأجله وهي اللام الثانية في قولك " أذن لزيد لعمرو " أي لأجله ، وهذا تكذيب لقولهم { هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ } [يونس : 18] ، { أَذِنَ لَهُ } [سبأ : 23] كوفي غير عاصم إلا الأعشى { حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ } [سبأ : 23] أي كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن و { فُزِّعَ } شامي أي الله تعالى ، والتفزيع إزالة الفزع و { حَتَّى } غاية لما فهم من أن ثم انتظاراً للإذن وتوقفاً وفزعاً من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم أو لا يؤذن لهم كأنه قيل : يتربصون ويتوقعون ملياً فزعين حتى إذا فزع عن قلوبهم { قَالُوا } سأل بعضهم بعضاً { مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا } [سبأ : 23] قال { الْحَقّ } أي القول الحق وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى.

{ وَهُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ } [سبأ : 23] ذو العلو والكبرياء ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه وان يشفع إلا لمن ارتضى { قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ قُلِ اللَّهُ } [سبأ : 24] أمره بأن يقررهم بقوله { مَن يَرْزُقُكُم } [يونس : 31] ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله " يرزقكم الله " وذلك للإشعار بأنهم مقرون به بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به لأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم فما لكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا
471
يقدر على الرزق ، وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه { وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [سبأ : 24] ومعناه وإن أحد الفريقين

من الموحدين ومن المشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال ، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موالٍ أو منافٍ قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك.

وفي درجة بعد تقدم ما قدم من التقرير دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين ولكن التعرض أوصل بالمجادل إلى الغرض ، ونحوه قولك للكاذب " إن أحدنا لكاذب " .

وخولف بين حرفي الجر الداخلين على الهدى والضلال لأن صاحب الهدى كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء ، والضال كأنه ينغمس في ظلام لا يرى أين يتوجه.

{ قُل لا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [سبأ : 25] هذا أدخل في الإنصاف من الأول حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين وهو مزجور عنه محظور ، والعمل إلى المخاطبين وهو مأمور به مشكور.

{ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا } [سبأ : 26] يوم القيامة { ثُمَّ يَفْتَحُ } [سبأ : 26] يحكم { بَيْنَنَا بِالْحَقِّ } [ص : 22] بلا جور ولا ميل { وَهُوَ الْفَتَّاحُ } [سبأ : 26] الحاكم { الْعَلِيمُ } بالحكم { قُلْ أَرُونِىَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم } [سبأ : 27] أي ألحقتموهم { بِهِ } بالله { شُرَكَآءَ } في العبادة معه.

ومعنى قوله { أَرُونِىَ } وكان يراهم أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله وأن يطلعهم على حالة الإشراك به { كَلا } ردع وتنبيه أي ارتدعوا عن هذا القول وتنبهوا عن ضلالكم { بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ } [سبأ : 27] الغالب فلا يشاركه أحد وهو ضمير الشأن { الْحَكِيمُ } في تدبيره

472

{ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ } [سبأ : 28] إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم لأنها إذا شملتهم فقد كفتّهم أن يخرج منها أحد منهم.

وقال الزجاج : معنى الكافة في اللغة الإحاطة ، والمعنى أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ ، فجعله حالاً من الكاف والتاء على هذا للمبالغة كتاء الراوية والعلاّمة { بَشِيرًا } بالفضل لمن أقر { وَنَذِيرًا } بالعدل لمن أصر { وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [الأعراف : 187] فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

جزء : 3 رقم الصفحة : 470

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَاذَا الْوَعْدُ } [

جزء : 3 رقم الصفحة : 473

يونس : 48] أي القيامة المشار إليها في قوله { قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا } [سبأ : 26] { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ } الميعاد ظرف الوعد من مكان أو زمان وهو هنا الزمان ويدل عليه قراءة من قرأ { مِّيعَادُ يَوْمٍ } [سبأ : 30] فأبدل منه اليوم ، وأما الإضافة فإضافة تبيين كما تقول " بعير سانية " { لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ } [سبأ : 30] أي لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال ولا التقدم إليه بالاستعجال ، ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم أنهم سألوا عن ذلك وهم منكرون له تعنتاً لا استرشاداً فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً للسؤال على الإنكار والتعنت وأنهم مرصدون ليوم يفاجئهم فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدماً عليه { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [النمل : 67] أي أبو جهل وذووه { لَن نُّؤْمِنَ بِهَاذَا الْقُرْءَانِ وَلا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ } [سبأ : 31] أي ما نزل قبل القرآن من كتب الله أو القيامة والجنة والنار حتى إنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله ، وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ } [سبأ : 31] محبوسون { عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ } [سبأ : 31] يرد { بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ } [سبأ : 31] في الجدال أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة

473

فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم أو للمخاطب : ولو ترى في الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحاورة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجب فحذف الجواب { يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا } [سبأ : 31] أي الأتباع { لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا } [إبراهيم : 21] أي للرؤوس والمقدمين { لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ } [سبأ : 31] لولا دعاؤكم إيانا إلى الكفر لكنا مؤمنين بالله ورسوله.

جزء : 3 رقم الصفحة : 473

{ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى } [سبأ : 32] أولى الاسم أي نحن حرف الانكار لأن المراد إنكار أن يكون هم الصادين لهم عن الإيمان وإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه وأنهم أتوا من قبل اختيارهم { بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ } [سبأ : 32] إنما وقعت " إذ " مضافاً إليها وإن كانت " إذ " و " إذا " من الظروف اللازمة للظرفية لأنه قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره فأضيف إليها الزمان { بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ } [سبأ : 32] كافرين لاختياركم وإيثاركم الضلال على الهدى لا بقولنا وتسويلنا.

{ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا } [سبأ : 33] لم يأت بالعاطف في { قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا } [الأعراف : 76] وأتى به في { وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا } [سبأ : 33] لأن الذين استضعفوا مر أولاً كلامهم فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريق الاستئناف ، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الأول { بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ } [سبأ : 33] بل مكركم بنا بالليل والنهار فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه ، أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي أي الليل والنهار مكراً بطول السلامة فيهما حتى ظننا أنكم على الحق { إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُا أَندَادًا } [سبأ : 33] أشباهاً.

والمعنى أن المستكبرين لما أنكروا بقولهم { أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ } [سبأ : 32] أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم { بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ } [سبأ : 32] أن ذلك بكسبهم واختيارهم ، كر عليهم المستضعفون بقولهم { بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ } [سبأ : 33] فأبطلوا إضرابهم بأضرابهم كأنهم قالوا : ما كان الإجرام من جهتنا بل من جهة مكركم لنا دائباً ليلاً

474

ونهاراً وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد { وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ } [يونس : 54] أضمروا أو أظهروا وهو من الأضداد وهم الظالمون في قوله

جزء : 3 رقم الصفحة : 473

(261/3)

{ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ } [سبأ : 31] يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين { لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ } [سبأ : 33] الجحيم { وَجَعَلْنَا الاغْلَالَ فِى أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا } [سبأ : 33] أي في أعناقهم فجاء بالصريح للدلالة على ما استحقوا به الأغلال { هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأعراف : 147] في الدنيا.

{ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ } [سبأ : 34] نبي { إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَآ } [سبأ : 34] متنعموها ورؤساؤها { إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ } [سبأ : 34] هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلّم مما مني به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم أهل مكة وافتخروا بكثرة الأموال والأولاد كما قال { وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } [سبأ : 35] أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظراً إلى أحوالهم في الدنيا ، وظنوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم الله ، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم ، فأبطل الله ظنهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كيف يشاء ، فربما وسع على العاصي وضيق على المطيع وربما عكس ، وربما وسع عليهما أو ضيق عليهما فلا ينقاس عليهما أمر.

الثواب وذلك قوله :

جزء : 3 رقم الصفحة : 473

{ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ } [سبأ : 36] قدر الرزق تضييقه قال الله تعالى { وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ } [الطلاق : 7] (الطلاق : 7) { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [الأعراف : 187] ذلك { وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلَادُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى } [سبأ : 37] أي وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي تقربكم ، وذلك أن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء

475
في حكم التأنيث ، والزلفى والزلفة كالقربى والقربة ومحلها النصب على المصدر أي تقربكم قربة كقوله { أَنابَتَكُم مِّنَ الارْضِ نَبَاتًا } [نوح : 17] (نوح : 71) { وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلَـادُكُم بِالَّتِى } [سبأ : 37] الاستثناء من " كم " في { تُقَرِّبُكُمْ } يعني أن الأموال لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله ، والأولاد لا تقرب أحداً إلا من علمهم الخير وفقههم في الدين ورشحهم للصلاح والطاعة.

وعن ابن عباس : " إلا " بمعنى " لكن " ومن شرط جوابه { فَأُولَـائِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ } [سبأ : 37] وهو من إضافة المصدر إلى المفعول أصله فأولئك لهم أن يجازوا الضعف ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف ، ومعنى جزاء الضعف أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشراً وقرأ يعقوب { جَزَآءُ الضِّعْفِ } [سبأ : 37] ، على " فأولئك لهم الضعف جزاء " { بِمَا عَمِلُوا } [المجادلة : 6] بأعمالهم { وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ } [سبأ : 37] أي غرف منازل الجنة { الْغُرْفَةَ } حمزة { ءَامِنُونَ } من كل هائل وشاغل.

{ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِى ءَايَاتِنَا } [سبأ : 38] في إبطالها { مُعَاجِزِينَ أولئك فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ * قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ } يوسع { لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُا وَمَآ أَنفَقْتُم } [سبأ : 39] " ما " شرطية في موضع النصب { مِن شَىْءٍ } [الذاريات : 42] بيانه { فَهُوَ يُخْلِفُهُ } [سبأ : 39] يعوضه لا معوض سواه إما عاجلاً بالمال أو آجلاً بالثواب جواب الشرط { وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } [المؤمنون : 72] المطعمين لأن كل ما رزق غيره من سلطان أو سيد أو غيرهما فهو من رزق الله أجراه على أيدي هؤلاء ، وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق.

وعن بعضهم : الحمد لله الذي أوجدني وجعلني ممن يشتهي فكم من مشتهٍ لا يجد وواجد لا يشتهي.

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـائِكَةِ أَهَـاؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ } [سبأ : 40] وبالياء فيهما : حفص ويعقوب.

هذا خطاب للملائكة وتقريع للكفار وارد على المثل السائر :

476

إياك أعني واسمعي يا جاره

جزء : 3 رقم الصفحة : 473

(262/3)

ونحوه قوله { قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ } [المائدة : 116] (المائدة : 611) الآية { قَالُوا } أي الملائكة { سُبْحَانَكَ } تنزيهاً لك أن يعبد معك غيرك { أَنتَ وَلِيُّنَا } [الأعراف : 155] الموالاة خلاف

المعاداة وهي مفاعلة من الولي وهو القرب والولي يقع على الموالي والموالي جميعاً ، والمعنى أنت الذي تواليه { مِن دُونِهِمُ } [القصص : 23] إذ لا موالاة بيننا وبينهم فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك { بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ } [سبأ : 41] أي الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله ، أو كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها ، أو صورت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا هذه صور الملائكة فاعبدوها { أَكْثَرُهُمْ } أكثر الإنس أو الكفار { بِهِمُ } بالجن { مُؤْمِنُونَ } .

جزء : 3 رقم الصفحة : 473

{ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا } [سبأ : 42] لأن الأمر في ذلك اليوم لله وحده لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد ، لأن الدار دار ثواب وعقاب والمثيب والمعاقب هو الله.

فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف والناس فيها مخلي بينهم يتضارون ويتنافعون ، والمراد أنه لا ضار ولا نافع يومئذ إلا هو.

ثم ذكر عاقبة الظالمين بقوله { وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا } [سبأ : 42] بوضع العبادة في غير موضعها معطوف على { لا يَمْلِكُ } [سبأ : 42] { ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ } [سبأ : 42] في الدنيا { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا } أي إذا قريء عليهم القرآن { بَيِّنَاتٍ } واضحات { قَالُوا } أي المشركون { مَا هَاذَآ } [الأحقاف : 17] أي محمد { إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَاذَآ } [سبأ : 43] أي القرآن { إِلا إِفْكٌ } .

جزء : 3 رقم الصفحة : 477

{ عَمُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [النمل : 67] أي

477

وقالوا ، والعدول عنه دليل على إنكار عظيم وغضب شديد { لِلْحَقِّ } للقرآن أو لأمر النبوة كله { لَمَّا جَآءَهُمْ } [سبأ : 43] وعجزوا عن الإتيان بمثله { إِنَّ هَاذَآ } [ص : 23] أي الحق { إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ } [المائدة : 110] بتوه على أنه سحر ثم بتوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمله سماه سحراً { وَمَآ ءَاتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا } [سبأ : 44] أي ما أعطينا مشركي مكة كتباً يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك { وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِّن نَّذِيرٍ } [سبأ : 44] ولا أرسلنا إليهم نذيراً يندرهم بالعقاب إن لم يشركوا.

ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } [سبأ : 45] أي وكذب الذين تقدموهم من الأمم الماضية والقرون الخالية الرسل كما كذبوا { وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَاهُمْ } [سبأ : 45] أي وما بلغ أهل مكة عشر ما أوتي الأولون من طول الأعمار وقوة الأجرام وكثرة الأموال والأولاد { فَكَذَّبُوا رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } [سبأ : 45] للمكذبين الأولين فليحذروا من مثله.

وبالياء في الوصل والوقف : يعقوب أي فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم مستظهرون ، فما بال هؤلاء؟ وإنما قال { فَكَذَّبُوا } وهو مستغنى عنه

بقوله { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } [سبأ : 45] لأنه لما كان معنى قوله { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } [سبأ : 45] وفعل الذين من قبلهم التكذيب وأقدموا عليه جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه وهو كقول القائل : أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد صلى الله عليه وسلّم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 477

(263/3)

{ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ } [سبأ : 46] بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله { أَن تَقُومُوا } [سبأ : 46] على أنه عطف بيان لها وقيل هو بدل ، وعلى هذين الوجهين هو في محل الجر.

وقيل : هو في محل الرفع على تقدير وهي أن تقوموا ، والنصب على تقدير أعني ، وأراد بقيامهم القيام عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلّم وتفرقهم عن مجتمعهم عنده ، أو قيام القصد إلى الشيء دون النهوض والانتصاب ، والمعنى إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم

478

الحق وتخلصتم وهي أن تقوموا { لِلَّهِ } أي لوجه الله خالصاً لا لحمية ولا عصبية بل لطلب الحق { مَثْنَى } اثنين اثنين { وَفُرَادَى } فرداً فرداً { ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا } [سبأ : 46] في أمر محمد صلى الله عليه وسلّم وما جاء به ، أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق ، وكذلك الفرد يتفكر في نفسه بعدل ونصفة ويعرض فكره على عقله.

ومعنى تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويعمي البصائر ويمنع من الروية ويقال الإنصاف فيه ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المذهب.

و { تَتَفَكَّرُوا } معطوف على { تَقُومُوا } { مَا بِصَاحِبِكُم } [سبأ : 46] يعني محمداً صلى الله عليه وسلّم { مِّن جِنَّةٍ } [الأعراف : 184] جنون.

والمعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة { إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [سبأ : 46] قدام عذاب شديد وهو عذاب الآخرة وهو كقوله عليه السلام " بعثت بين يدي الساعة " .

ثم بين أنه لا يطلب أجراً على الإنذار بقوله :

جزء : 3 رقم الصفحة : 477

{ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ } [سبأ : 47] على إنذاري وتبليغي الرسالة { فَهُوَ لَكُمْ } [سبأ : 47] جزاء الشرط تقديره أي شيء سألتكم من أجر كقوله : { مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ } [فاطر : 2] (فاطر : 2) ومعناه نفي مسئلة الأجر رأساً نحو مالي في هذا فهو لك أي ليس فيه شيء { إِنْ أَجْرِىَ } [هود : 51] مدني وشامي وأبو بكر وحفص ، وبسكون الياء : غيرهم { إِلا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ

شَىْءٍ شَهِيدُۖ } [سبأ : 47] فيعلم أني لا أطلب الأجر على نصحيتكم ودعائكم إليه إلا منه.
{ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ } [سبأ : 48] بالوحي.
والقذف توجيه السهم ونحوه بدفع واعتماد ويستعار لمعنى الإلقاء ومنه { وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ } [الأحزاب : 26] (الأحزاب : 62) { أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ } [طه : 39] (طه : 93) ومعنى يقذف بالحق يلقيه وينزله إلى أنبيائه أو يرمي به الباطل فيدمغه ويزهقه { عَلَّامُ الْغُيُوبِ } [المائدة : 109] مرفوع على البدل من الضمير في { يَقْذِفُ } أو على أنه خبر مبتدأ محذوف { قُلْ جَآءَ الْحَقُّ } [سبأ : 49] الإسلام والقرآن { وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ } [
جزء : 3 رقم الصفحة : 479
سبأ : 49] أي زال
479

(264/3)

الباطل وهلك لأن الإبداء والإعادة من صفات الحي فعدمهما عبارة عن الهلاك ، والمعنى جاء الحق وزهق الباطل كقوله { جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [الإسراء : 81] (الإسراء : 18) وعن ابن مسعود رضي الله عنه : دخل النبي صلى الله عليه وسلّم مكة وحول الكعبة أصنام فجعل يطعنها بعود معه ويقول " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد " .
وقيل : الباطل الأصنام.
وقيل : إبليس لأنه صاحب الباطل أو لأنه هالك كما قيل له الشيطان من شاط إذا هلك أي لا يخلق الشيطان ولا الصنم أحداً ولا يبعثه فالمنشيء والباعث هو الله.
ولما قالوا : قد ضللت بترك دين آبائك قال الله تعالى { قُلْ إِن ضَلَلْتُ } [سبأ : 50] عن الحق { فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى } [سبأ : 50] إن ضللت فمني وعليّ { وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبِّى } [سبأ : 50] أي فتبسديده بالوحي إلي.
وكان قياس التقابل أن يقال وإن اهتديت فإنما أهتدي لها كقوله : { فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } [الزمر : 41] (الإسراء : 51).
ولكن هما متقابلان معنى ، لأن النفس كل ما عليها وضار لها فهو بها وبسببها لأنها الأمارة بالسوء ، وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه ، وهذا حكم عام لكل مكلف ، وإنما أمر رسوله أن يسنده إلى نفسه لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به { إِنَّهُ سَمِيعٌ } [الأعراف : 200] لما أقوله لكم { قَرِيبٌ } مني ومنكم يجازيني ويجازيكم.
جزء : 3 رقم الصفحة : 479

{ وَلَوْ تَرَى } [الأنعام : 93] جوابه محذوف أي لرأيت أمراً عظيماً وحالاً هائلة { إِذْ فَزِعُوا } [سبأ : 51] عند البعث أو عند الموت أو يوم بدر { فَلا فَوْتَ } [سبأ : 51] فلا مهرب أو فلا يفوتون الله ولا يسبونه { وَأُخِذُوا } عطف على { فَزِعُوا } أي فزعوا وأخذوا فلا فوت لهم أو على لا فوت على معنى إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا { مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ } [سبأ : 51] من الموقف إلى النار إذا بعثوا أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا أو من صحراء

480

بدر إلى القليب { وَقَالُوا } حين عاينوا العذاب { بِهِ إِنَّهُ } [القصص : 53] بمحمد عليه السلام لمرور ذكره في قوله { مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ } [سبأ : 46] (سبأ : 64) أو بالله { وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَان بَعِيدٍ } [سبأ : 52] التناوش : التناول أي كيف يتناولون التوبة وقد بعدت عنهم ، يري أن التوبة كانت تقبل منهم في الدنيا وقد ذهبت الدنيا وبعدت من الآخرة.

وقيل : هذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت كما نفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا ، مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة كما يتناول الآخر من قيس ذراع.

بالهمزة : أبو عمرو وكوفي غير حفص همزت الواو لأن كل واو مضمومة ضمتها لازمة إن شئت أبدلتها همزة وإن شئت لم تبدل نحو قولك " أدور وتقاوم " ، وإن شئت قلت " أدؤر وتقاؤم " .

وعن ثعلب : التناؤش بالهمز التناول من بعد ، وبغير همز التناول من قرب.

{ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ } [سبأ : 53] من قبل العذاب أو في الدنيا { وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ } [سبأ : 53] معطوف على { فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا } على حكاية الحال الماضية يعني وكانوا يتكلمون بالغيب أو بالشيء الغائب يقولون لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار { مِن مَّكَان بَعِيدٍ } [سبأ : 52] عن الصدق أو عن الحق والصواب ، أو قولهم في رسول الله صلى الله عليه وسلّم شاعر ساحر كذاب وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي لأنهم لم يشاهدوا منه سحراً ولا شعراً ولا كذباً.

وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله لأن أبعد شيء مما جاء به السحر والشعر وأبعد شيء من عاداته التي عرفت بينهم وجربت الكذب { وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ } [سبأ : 53] عن أبي عمرو على البناء للمفعول أي تأتيهم به شياطينهم ويلقونهم إياه

481

وإن شئت فعلقه بقوله { ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ } على أنه مثّلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم { مِنْ } في الآخرة وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه بعيداً.

جزء : 3 رقم الصفحة : 479
ويجوز أن يكون الضمير في { بِهِ إِنَّهُ } [القصص : 53] للعذاب الشديد في قوله : { بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [سبأ : 46] (سبأ : 64).
وكانوا يقولون وما نحن بمعذبين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا قائسين أمر الآخرة على أمر الدنيا ، فهذا كان قذفهم بالغيب وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة لأن دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف { وَحِيلَ } وحجز { بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ } [سبأ : 54] من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنة أو من الرد إلى الدنيا كما حكي عنهم بقوله { فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا } [السجدة : 12] (السجدة : 21) والأفعال التي هي { فَزِعُوا } { وَأُخِذُوا } { وَحِيلَ } كلها للمضي والمراد بها الاستقبال لتحقق وقوعه { كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ } [سبأ : 54] بأشباههم من الكفرة { إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ } [سبأ : 54] من أمر الرسل والبعث { مُرِيبٍ } موقع في الريبة من أرابه إذا أوقعه في الريبة ، هذا رد على من زعم أن الله لا يعذب على الشك.
482
سورة فاطر
مكية وهي خمس وأربعون آية
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
{ الْحَمْدُ لِلَّهِ } [فاطر : 34] حمد ذاته تعليماً وتعظيماً { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ } [يوسف : 101] مبتدئها ومبتدعها.
قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما كنت أدري معنى الفاطر حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها.
أي ابتدأتها { وَالارْضِ جَاعِلِ الْمَلَائكَةِ رُسُلا } [فاطر : 1] إلى عباده { أُوْلِى } ذوي اسم جمع لذو وهو بدل من { رُسُلا } أو نعت له { أَجْنِحَةٍ } جمع جناح { مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ } [النساء : 3] صفات لأجنحة ، وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أخر كما عدل عمر عن عامر وعن تكرير إلى غير تكرير.
وقيل : للعدل والوصف والتعويل عليه ، والمعنى أن الملائكة طائفة أجنحتهم اثنان اثنان أي لكل واحد منهم جناحان ، وطائفة أجنحتهم ثلاثة ثلاثة ، ولعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة ، وطائفة أجنحتهم أربعة أربعة { يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ } [فاطر : 1] أي يزيد في خلق الأجنحة يمدهما بقوة ، وطائفة أجنحتهم أربعة أربعة { يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ } [فاطر : 1] أي يزيد في خلق الأجنحة وغيره { مَا يَشَآءُ } [آل عمران : 40] وقيل : هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن والخط الحسن والملاحة في العينين ، والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام في الأعضاء وقوة في البطش وحصافة في العقل وجزالة

483
في الرأي وذلاقة في اللسان ومحبة في قلوب المؤمنين وما أشبه ذلك { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة : 20] قادر.

جزء : 3 رقم الصفحة : 483

{ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ } [فاطر : 2] نكرت الرحمة للإشاعة والإبهام كأنه قال من أية رحمة رزق أو مطر أو صحة أو غير ذلك { فَلا مُمْسِكَ لَهَا } [فاطر : 2] فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها ، واستعير الفتح للإطلاق والإرسال ألا ترى إلى قوله { وَمَا يُمْسِكْ } [فاطر : 2] يمنع ويحبس { فَلا مُرْسِلَ لَهُ } [فاطر : 2] مطلق له { مِّن بَعْدِهِ } [الأحزاب : 53] من بعد إمساكه.

وأنث الضمير الراجع إلى الاسم المتضمن معنى الشرط على معنى الرحمة ، ثم ذكره حملاً على اللفظ المرجع إليه إذ لا تأنيث فيه لأن الأول فسر بالرحمة فحسن اتباع الضمير التفسير ، ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير.

وعن معاذ مرفوعاً " لا تزال يد الله مبسوطة على هذه الأمة ما لم يرفق خيارهم بشرارهم ويعظم برهم فاجرهم وتعن قراؤهم أمراءهم على معصية الله فإذا فعلوا ذلك نزع الله يده عنهم " .

{ وَهُوَ الْعَزِيزُ } [إبراهيم : 4] الغالب القادر على الإرسال والإمساك { الْحَكِيمُ } الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه.

(266/3)

{ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا } باللسان والقلب { نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } [البقرة : 231] وهي التي تقدمت من بسط الأرض كالمهاد ، ورفع السماء بلا عماد ، وإرسال الرسل لبيان السبيل دعوة إليه وزلفة لديه ، والزيادة في الخلق وفتح أبواب الرزق.

ثم نبه على رأس النعم وهو اتحاد المنعم بقوله { هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ } [فاطر : 3] برفع { غَيْرَ } على الوصف لأن { خَالِقٍ } مبتدأ خبره محذوف أي لكم.

وبالجر : علي وحمزة على الوصف لفظاً { يَرْزُقُكُم } يجوز أن يكون مستأنفاً ويجوز أن يكون صفة لـ { خَالِقٍ } { مِنَ السَّمَآءِ } [الشعراء : 4] بالمطر { وَالارْضَ } بأنواع النبات { لا إِلَاهَ إِلا هُوَ } [البقرة : 255] جملة مفصولة لا محل لها { فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [الأنعام : 95] فبأي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

484

{ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ } [فاطر : 4] نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله وتكذيبهم بها ، وسلى رسوله بأن له في الأنبياء قبله أسوة ولهذا نكر { رُسُلٌ } أي رسل ذوو عدد

كبير وأولو آيات ونذر وأهل أعمال طوال وأصحاب صبر وعزم لأنه أسلى له ، وتقدير الكلام وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك لأن الجزاء يتعقب الشرط ، ولو أجرى على الظاهر يكون سابقاً عليه.

ووضع { فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ } [فاطر : 4] موضع " فتأس " استغناء بالسبب عن المسبب أي بالتذكيب عن التأسي { وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الامُورُ } [البقرة : 210] كلام يشتمل على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذّب والمكذّب بما يستحقانه ، { تُرْجَعُ } بفتح التاء : شامي وحمزة وعلي ويعقوب وخلف وسهل.

جزء : 3 رقم الصفحة : 483

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ } [فاطر : 5] بالبعث والجزاء { حَقٌّ } كائن { فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَواةُ الدُّنْيَا } [لقمان : 33] فلا تخدعنكم الدنيا ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله { وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ } [لقمان : 33] أي الشيطان فإنه يمنّيكم الأمانيّ الكاذبة ويقول إن الله غني عن عبادتك وعن تكذيبك.

{ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ } [فاطر : 6] ظاهر العداوة فعل بأبيكم ما فعل وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بأحواله { فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا } [فاطر : 6] في عقائدكم وأفعالكم ولا يوجدنّ منكم إلا ما يدل على معاداته في سركم وجهركم.

ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأن غرضه الذي يؤمه في دعوة شيعته هو أن يوردهم مورد الهلاك بقوله { إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } .

ثم كشف الغطاء فبنى الأمر كله على الإيمان وتركه فقال { الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ } [فاطر : 7] أي فمن أجابه حين دعاه فله عذاب شديد

485

(267/3)

لأنه صار من حزبه أي أتباعه { وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [البقرة : 82] ولم يجيبوه ولم يصيروا من حزبه بل عادوه { لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } [هود : 11] لكبر جهادهم.

ولما ذكر الفريقين قال لنبيه عليه السلام { أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُواءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا } [فاطر : 8] بتزيين الشيطان كمن لم يزين له فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال لا ، فقال { فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ } [فاطر : 8] وذكر الزجاج أن المعنى : أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليه حسرة ، فحذف الجواب لدلالة { فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ } [فاطر : 8] عليه ، أو أفمن له سوء علمه كمن هداه الله فحذف لدلالة { فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن

يَشَآءُ } [فاطر : 8] عليه.
{ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ } [فاطر : 8] : يزيد أي لا تهلكها { حَسَرَاتٍ } مفعول له يعني فلا تهلك نفسك للحسرات و { عَلَيْهِمْ } صلة { تَذْهَبْ } كما تقول : هلك عليه حباً ومات عليه حزناً.
ولا يجوز أن يتعلق بـ { حَسَرَاتٍ } لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ بِمَا يَصْنَعُونَ } [فاطر : 8] وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم { وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ } [فاطر : 9] { الرِّيحَ } : مكي وحمزة وعلي { فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ } [فاطر : 9] بالتشديد : مدني وحمزة وعلي وحفص ، وبالتخفيف : غيرهم.
{ فَأَحْيَيْنَا بِهِ } [فاطر : 9] بالمطر لتقدم ذكره ضمناً { الارْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } [الروم : 50] يبسها.
وإنما قيل { فَتُثِيرُ } لتحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصورة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب ، وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها.
لما كان من الدليل على القدرة الباهرة قيل فسقنا وأحيينا معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه { كَذَالِكَ النُّشُورُ } [فاطر : 9] الكاف في محل الرفع أي مثل إحياء الموت نشور الأموات قيل يحيي الله الخلق بما يرسله من تحت العرش كمني الرجال تنبت منه أجساد الخلق.
486
جزء : 3 رقم الصفحة : 483
{ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا } [فاطر : 10] أي العزة كلها مختصة ، بالله عزة الدنيا وعزة الآخرة وكان الكافرون يتعززون بالأصنام كما قال : { وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا } [مريم : 81] (مريم : 18).
والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال : { الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا } [النساء : 139] (النساء : 931).
فبين أن لا عزة إلا بالله.
والمعنى فليطلبها عند الله فوضع قوله { فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا } موضعه استغناء عنه به لدلالته عليه لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه وماله ونظير قولك : " من أراد النصيحة فهي عند الأبرار " .
تريد فليطلبها عندهم إلا أنك أقمت مايدل عليه مقامه ، وفي الحديث " إن ربكم يقول كل يوم أنا العزيز فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز " ثم عرف أن ما يطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله
جزء : 3 رقم الصفحة : 487

{ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } ومعنى قوله { إِلَيْهِ } إلى محل القبول والرضا وكل ما اتصف بالقبول وصف بالرفعة والصعود ، أو إلى حيث لا ينفذ فيه إلا حكمه والكلم الطيب كلمات التوحيد أي لا إله إلا الله.

وكان القياس الطيبة ولكن كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا التاء يذكر ويؤنث.

والعمل الصالح العبادة الخالصة يعني والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب فالرافع الكلم والمرفوع العمل لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد.

وقيل : الرافع الله والمرفوع العمل أي العمل الصالح يرفعه الله ، وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع والكلم الطيب يصعد بنفسه.

وقيل : العمل الصالح يرفع العامل ويشرفه أي من أراد العزة فليعمل عملاً صالحاً فإنه هو الذي يرفع العبد { وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ } [فاطر : 10] هي صفة لمصدر محذوف أي المكرات السيئات لأن مكر فعل غير متعدٍ ، لا يقال مكر فلان عمله.

والمراد مكر قريش به عليه السلام حين اجتمعوا في دار الندوة كما قال الله تعالى : { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ } [الانفال : 30] (الأنفال : 031) الآية { لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ } [الشورى : 26] في الآخرة { وَمَكْرُ أُولئك } [فاطر : 10] مبتدأ { هُوَ } فصل { يَبُورُ } خبر أي

487

ومكر أولئك الذين مكروا هو خاصة يبور أي يفسد ويبطل دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم جميعاً حقق بهم.

قوله تعالى { وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [الانفال : 30] (الأنفال : 03) وقوله { وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ } (فاطر : 34).

جزء : 3 رقم الصفحة : 487

{ وَاللَّهُ خَلَقَكُم } [النحل : 70] أي أباكم { مِّن تُرَابٍ ثُمَّ } [الروم : 20] أنشأكم { مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا } [فاطر : 11] أصنافاً أو ذكراناً وإناثاً { وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ } [فاطر : 11] هو في موضع الحال أي معلومة له { وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ } [فاطر : 11] أي وما يعمر من أحد.

وإنما سماه معمراً بما هو صائر إليه { وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِى كِتَابٍ } [فاطر : 11] يعني اللوح أو صحيفة الإنسان ولا ينقص زيد.

فإن قلت : الإنسان إما معمر أي طويل العمر أو منقوص العمر أي قصيره ، فأما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال فكيف صح قوله { وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ } [فاطر : 11]؟

قلت : هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتكالاً على تسديدهم معناه بعقولهم وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد وعليه كلام الناس يقولون : لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق.

أو تأويل الآية أنه يكتب في الصحيفة عمره كذا كذا سنة ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان حتى يأتي على آخره فذلك نقصان عمره.

وعن قتادة : المعمر من يبلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة { إِنَّ ذَالِكَ } [الحج : 70] أي إحصاءه أو زيادة العمر ونقصانه { عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [الحج : 70] سهل.

جزء : 3 رقم الصفحة : 487

{ وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَاذَا } [فاطر : 12] أي أحدهما { عَذْبٌ فُرَاتٌ } [فاطر : 12] شديد العذوبة.

وقيل : هو الذي يكسر العطش { سَآ ئِغٌ شَرَابُهُ } [فاطر : 12] مريء سهل الانحدار لعذوبته وبه ينتفع شرّاته { وَهَاذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ } [الفرقان : 53] شديد الملوحة.

وقيل : هو الذي يحرق بملوحته

488

(269/3)

{ وَمِن كُلٍّ } [فاطر : 12] ومن كل واحد منهما { تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا } [فاطر : 12] وهو السمك { وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا } [فاطر : 12] وهي اللؤلؤ والمرجان { وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ } [فاطر : 12] في كل { مَوَاخِرَ } شواقّ للماء بجريها.

يقال : فخرت السفينة الماء أي شقته وهي جمع ماخرة { لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ } [الإسراء : 66] من فضل الله ولم يجر له ذكر في الآية ولكن فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [البقرة : 185] الله على ما أتاكم من فضله.

ضرب البحرين العذب والملح مثلين للمؤمن والكافر.

ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علّق بهما من نعمته وعطائه ، ويحتمل غير طريق الاستطراد وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين ثم يفضّل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ وجري الفلك فيه.

والكافر خلو من النفع فهو في طريقة قوله تعالى : { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَالِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً } [البقرة : 74] ثم قال { وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الانْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } [البقرة : 74] (البقرة : 47).

جزء : 3 رقم الصفحة : 487

{ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ } [الحج : 61] يدخل من ساعات أحدهما في الآخر حتى يصير الزائد منهما خمس عشرة ساعة والناقص تسعاً { وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ } [الرعد : 2] أي ذلل أضواء صوره لاستواء سيره { كُلٌّ يَجْرِى لاجَلٍ مُّسَمًّى } [الزمر : 5] أي يوم القيامة ينقطع جريهما { ذَالِكُمُ } مبتدأ { اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ } [الزمر : 6] أخبار مترادفة أو { اللَّهُ رَبُّكُمْ } [يونس : 32] خبر إن و { لَهُ الْمُلْكُ } [البقرة : 247] جملة مبتدأة واقعة في قران قوله { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ } [الأعراف : 197] يعني الأصنام التي تعبدونها من دون الله يدعون قتيبة { مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ } [فاطر : 13] هي القشرة الرقيقة الملتفة على النواة { إِن تَدْعُوهُمْ } [فاطر : 14] أي الأصنام { لا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ } [فاطر : 14] لأنهم جماد { وَلَوْ سَمِعُوا } [فاطر : 14] على سبيل الفرض { مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ } [فاطر : 14] لأنهم لا يدّعون ما تدّعون لهم من

الإلهية ويتبرءون منها { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ } [فاطر : 14] بإشراككم لهم وعبادتكم إياهم ويقولون ما كنتم إيانا تعبدون { وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } [فاطر : 14] ولا ينبئك أيها المفتون بأسباب الغرور كما ينبك الله الخبير بخبايا الأمور ، وتحقيقه ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به يريد أن الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به ، والمعنى أن هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق لأني خبير بما أخبرت به.

جزء : 3 رقم الصفحة : 487

(270/3)

{ خَبِيرٍ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ } قال ذو النون : الخلق محتاجون إليه في كل نفس وخطرة ولحظة وكيف لا ووجودهم به وبقاؤهم به { وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِىُّ } [فاطر : 15] عن الأشياء أجمع { الْحَمِيدُ } المحمود بكل لسان ، ولم يسمهم بالفقراء للتحقير بل للتعريض على الاستغناء ولهذا وصف نفسه بالغني الذي هو مطعم الأغنياء ، وذكر الحميد ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه والجواد المنعم عليهم إذ ليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان الغني جواداً منعماً وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم.

قال سهل : لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغنى ولهم بالفقر ، فمن ادعى الغنى حجب عن الله ، ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه.

فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً بالسر إليه ومنقطعاً عن الغير إليه حتى تكون عبوديته محضة ، فالعبودية هي الذل والخضوع وعلامته أن لا يسأل من أحد.

وقال الواسطي : من استغنى بالله لا يفتقر ومن تعزز بالله لا يذل.

وقال الحسين : على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غنياً بالله وكلما ازداد افتقاراً ازداد غنى.
وقال يحيى : الفقر خير للعبد من الغنى لأن المذلة في الفقر والكبر في الغنى ، والرجوع إلى الله بالتواضع ، والذلة خير من الرجوع إليه بتكثير الأعمال.
وقيل : صفة الأولياء ثلاثة : الثقة بالله في كل شيء ، والفقر إليه في كل شيء ، والرجوع إليه من كل شيء.
وقال الشبلي : الفقر يجر البلاء وبلاؤه كله عز.
جزء : 3 رقم الصفحة : 490
{ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ } [النساء : 133] كلكم إلى العدم فإن غناه بذاته لا بكم في القدم { وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ } [إبراهيم : 19] وهو بدون حمدكم حميد
490
{ وَمَا ذَالِكَ } [إبراهيم : 20] الأنشاء والإفناء { عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } [إبراهيم : 20] بممتنع.
وعن ابن عباس : يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيئاً.
{ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الأنعام : 164] ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى.
والوزر والوقر أخوان ، ووزر الشيء إذا حمله ، والوازرة صفة للنفس ، والمعنى أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته لا تؤاخذ نفس بذنب نفس كما تأخذ جبابرة الدنيا الولي بالولي والجار بالجار.
وإنما قيل { وَازِرَةٌ } ولم يقل ولا تزر نفس وزر أخرى ، لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة إلا حاملة وزرها لا وزر غيرها.
وقوله { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ } [العنكبوت : 13] (العنكبوت : 31) وارد في الضالين المضلين فإنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم ، ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم { اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ } [العنكبوت : 12] بقوله { وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَىْءٍ } [العنكبوت : 12] (العنكبوت : 21) { وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ } [فاطر : 18] أي نفس مثقلة بالذنوب أحداً { إِلَى حِمْلِهَا } [فاطر : 18] ثقلها أي ذنوبها ليتحمل عنها بعض ذلك { لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ } [فاطر : 18] أي المدعو وهو مفهوم من قوله { وَإِن تَدْعُ } [فاطر : 18] { ذَا قُرْبَى } [فاطر : 18] ذا قرابة قريبة كأب أو ولد أو أخ.
والفرق بين معنى قوله { وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الأنعام : 164] ومعنى { وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ } [
جزء : 3 رقم الصفحة : 490

فاطر : 18] أن الأول دال على عدل الله في حكمه وأن لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها ، والثاني في بيان أنه لا غياث يومئذ لمن استغاث حتى إن نفساً قد أثقلتها الأوزار لودعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث وإن كان المدعو بعض قرابتها { إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم } [فاطر : 18] أي إنما ينتفع بإنذارك هؤلاء { بِالْغَيْبِ } حال من الفاعل أو المفعول أي يخشون ربهم غائبين عن عذابه ، أو يخشون عذابه غائباً عنهم.

وقيل : بالغيب في السر حيث لا اطلاع أي يخشون ربهم غائبين من عذابه ، أو يخشون عذابه غائباً عنهم.

وقيل : بالغيب في السر حيث لا اطلاع للغير عليه { وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ } [الأعراف : 170] في مواقيتها { وَمَن تَزَكَّى } [فاطر : 18] تطهر بفعل

491

الطاعات وترك المعاصي { فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ } [فاطر : 18] وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكي { وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } [آل عمران : 28] المرجع وهو وعد للمتزكي الثواب.

{ وَمَا يَسْتَوِى الاعْمَى وَالْبَصِيرُ } [فاطر : 19] مثل للكافر والمؤمن أو للجاهل والعالم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 490

{ وَلا الظُّلُمَاتُ } [فاطر : 20] مثل للكفر { وَلا النُّورُ } [فاطر : 20] للإيمان { وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ } الحق والباطل أو الجنة والنار.

والحرور الريح الحار كالسموم إلا أن السموم تكون بالنهار والحرور بالليل والنهار.

عن الفراء { وَمَا يَسْتَوِى الاحْيَآءُ وَلا الامْوَاتُ } [فاطر : 22] مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه وزيادة.

" لا " لتأكيد معنى النفي.

والفرق بين هذه الواوات أن بعضها ضمت شفعاً إلى شفع وبعضها وتراً إلى وتر { إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ } [فاطر : 22] يعني أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه فيهدي من يشاء هدايته ، وأما أنت فخفي عليك أمرهم فلذلك تحرص على إسلام قوم مخذولين.

شبه الكفار بالموتى حيث لا ينتفعون بمسموعهم { إِنْ أَنتَ إِلا نَذِيرٌ } [فاطر : 23] أي ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع وإن كان من المصرين فلا عليك { إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ } [البقرة : 119] حال من أحد الضميرين يعني محقاً أو محقين أو صفة للمصدر أي إرسالاً مصحوباً بالحق { بَشِيرًا } بالوعد { وَنَذِيرًا } بالوعيد { وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ } [فاطر : 24] وما من أمة قبل أمتك.

والأمة : الجماعة الكثيرة وجد عليه أمة من الناس ويقال لأهل كل عصر أمة ، والمراد هنا أهل

العصر وقد كانت آثار النذارة باقية فيما
492
بين عيسى ومحمد عليهما السلام فلم تخل تلك الأمم من نذير ، وحين اندرست آثار نذارة عيسى عليه السلام بعث محمد عليه السلام { إِلا خَلا } [فاطر : 24] مضى { فِيهَا نَذِيرٌ } [فاطر : 24] يخوفهم وخامة الطغيان وسوء عاقبة الكفران ، واكتفى بالنذير عن البشير في آخر الآية بعدما ذكرهما لأن النذارة مشفوعة بالبشارة فدل ذكر النذارة على ذكر البشارة.
{ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } [فاطر : 25] رسلهم { جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم } [غافر : 83] حال و " قد " مضمرة
جزء : 3 رقم الصفحة : 490

(272/3)

{ بِالْبَيِّنَاتِ } بالمعجزات { وَبِالزُّبُرِ } وبالصحف { وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ } [فاطر : 25] أي التوراة والإنجيل والزبور.
ولما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسناداً مطلقاً وإن كان بعضها في جميعهم . وهي البينات . وبعضها في بعضهم . وهي الزبر والكتاب . وفيه مسلاة لرسول الله صلى الله عليه وسلّم { ثُمَّ أَخَذْتُ } [فاطر : 26] عاقبت { الَّذِينَ كَفَرُوا } [النمل : 67] بأنواع العقوبة { فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } [الحج : 44] إنكاري عليهم وتعذيبي لهم { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ } [فاطر : 27] بالماء { ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا } [فاطر : 27] أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها { وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدُ } [فاطر : 27] طرق مختلفة جدة كمدة ومدد { بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ } [فاطر : 27] جمع غربيب وهو تأكيد للأسود.
يقال : أسود غربيب وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه ومنه الغراب.
وكان من حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك " أصفر فاقع " إلا أنه أضمر المؤكد قبله والذي بعده تفسير للمضمر ، وإنما يفصل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريقي الإظهار والإضمار جميعاً ، ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله { وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدُ } [فاطر : 27] أي ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود حتى يؤول إلى قولك : ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال ثمرات مختلفاً ألوانها.
493
{ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالانْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ } [فاطر : 28] يعني ومنهم بعض مختلف ألوانه {

كَذَالِكَ } أي كاختلاف الثمرات والجبال.

ولما قال { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً } [الحج : 63] وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته ، أتبع ذلك

جزء : 3 رقم الصفحة : 490

{ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاؤُا } أي العلماء به الذين علموه بصفاته فعظموه ومن ازداد علماً به ازداد منه خوفاً ومن كان علمه به أقل كان آمن.

وفي الحديث " أعلمكم بالله أشدكم له خشية " وتقديم اسم الله تعالى وتأخير العلماء يؤذن أن معناه أن الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم ولو عكس لكان المعنى أنهم لا يخشون إلا الله كقوله : { وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ } [الأحزاب : 39] (الأحزاب : 93) وبينهما تغاير ، ففي الأول بيان أن الخاشين هم العلماء ، وفي الثاني بيان أن المخشي منه هو الله تعالى.

وقرأ أبو حنيفة وابن عبد العزيز وابن سيرين رضي الله عنهم { وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالانْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ } [فاطر : 28] والخشية في هذه القراءة استعارة ، والمعنى إنما يعظم الله من عباده العلماء { إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ } [فاطر : 28] تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم والمعاقب المثيب حقه أن يخشى.

جزء : 3 رقم الصفحة : 490

{ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ } [فاطر : 29] يداومون على تلاوة القرآن { وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَواةَ } [الرعد : 22] أي مسرين النفل ومعلنين الفرض يعني لا يقتنعون بتلاوته عن حلاوة العمل به { يَرْجُونَ } خبر " إنّ " هي طلب الثواب بالطاعة { تِجَارَةً لَّن تَبُورَ } [فاطر : 29] لن تكسد يعني تجارة ينتفى عنها الكساد وتنفق عند الله { لِيُوَفِّيَهُمْ } متعلق بـ { لَّن تَبُورَ } [فاطر : 29] أي ليوفيهم بنفاقها عنده { أُجُورَهُمْ } ثواب

494

أعمالهم

جزء : 3 رقم الصفحة : 494

(273/3)

{ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ } [فاطر : 30] بتفسيح القبور أو بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم أو بتضعيف حسناتهم أو بتحقيق وعد لقائه.

أو { يَرْجُونَ } في موضع الحال أي راجين.

واللام في { لِيُوَفِّيَهُمْ } تتعلق بـ { يَتْلُونَ } وما بعده أي فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة

والإنفاق لهذا الغرض وخبر " إنّ " { إِنَّهُ غَفُورٌ } [فاطر : 30] لفرطاتهم { شَكُورٌ } أي غفورٌ لهم شكور لأعمالهم أي يعطي الجزيل على العمل القليل { وَالَّذِى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ } [فاطر : 31] أي القرآن.

و " من " للتبيين { هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا } [فاطر : 31] حال مؤكدة لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق { لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } [فاطر : 31] لما تقدمه من الكتب { إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرُ بَصِيرٌ } [فاطر : 31] فعلمك وأبصر أحوالك ورآك أهلاً لأن يوحي إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

{ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ } [فاطر : 32] أي أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من بعدك أي حكمنا بتوريثه { الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } [فاطر : 32] وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ، واختصهم بكرامة الإنتماء إلى أفضل رسله.

ثم رتبهم على مراتب فقال { فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ } [فاطر : 32] وهو المرجأ لأمر الله { وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ } [فاطر : 32] هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً { وَمِنْهُمْ سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ } [فاطر : 32] وهذا التأويل يوافق التنزيل فإنه تعالى قال : { وَالسَّابِقُونَ الاوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ } [التوبة : 100] (التوبة : 001) الآية وقال بعده : { وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ } [التوبة : 102] (التوبة : 201) الآية وقال بعده : { وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لامْرِ اللَّهِ } [التوبة : 106] (التوبة : 601) الآية.

والحديث فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر بعد قراءة هذه الآية : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم " سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له "

495

وعنه عليه السلام " السابق يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة ، وأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يظن أنه لا ينجو ثم تناله الرحمة فيدخل الجنة " رواه أبو الدرداء.

جزء : 3 رقم الصفحة : 494

(274/3)

والأثر فعن ابن عباس رضي الله عنهما : السابق المخلص ، والمقتصد المرائي ، والظالم الكافر بالنعمة غير الجاحد لها لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة.

وقول السلف فقد قال الربيع بن أنس : الظالم صاحب الكبائر ، والمقتصد صاحب الصغائر ، والسابق المجتنب لهما.

وقال الحسن البصري : الظالم من رجحت سيئاته ، والسابق من رجحت حسناته ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته.

وسئل أبو يوسف رحمه الله عن هذه الآية فقال : كلهم مؤمنون ، وأما صفة الكفار فبعد هذا وهو قوله : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ } [فاطر : 36].

وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده فإنه قال : { فَمِنْهُمْ } { وَمِنْهُم } { وَمِنْهُم } والكل راجع إلى قوله { الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } [فاطر : 32] وهم أهل الإيمان وعليه الجمهور.

وإنما قدم الظالم للإيذان بكثرتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل.

وقال ابن عطاء : إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله.

وقيل : إنما قدمه ليعرّفه أن ذنبه لا يبعده من ربه.

وقيل : إن أول الأحوال معصية ثم توبة ثم استقامة.

وقال سهل : السابق العالم والمقتصد المتعلم والظالم الجاهل.

وقال أيضاً : السابق الذي اشتغل بمعاده ، والمقتصد الذي اشتغل بمعاشه ومعاده ، والظالم الذي اشتغل بمعاشه عن معاده.

وقيل : الظالم الذي يعبده على الغفلة والعادة ، والمقتصد الذي يعبده على الرغبة والرهبة ، والسابق الذي يعبده على الهيبة والاستحقاق.

وقيل : الظالم من أخذ الدنيا حلالاً كانت أو حراماً ، والمقتصد من يجتهد أن لا يأخذها إلا من حلال ، والسابق من أعرض عنها جملة.

وقيل : الظالم طالب الدنيا ، والمقتصد طالب العقبي ، والسابق طالب المولى { بِإِذْنِ اللَّهِ } [فاطر : 32] بأمره أو بعلمه أو بتوفيقه { ذَالِكَ } أي إيراث الكتاب { هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } [فاطر : 32].

{ جَنَّاتُ عَدْنٍ } [مريم : 61] خبر ثان لـ { ذَالِكَ } أو خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ والخبر

{ يَدْخُلُونَهَا } أي الفرق الثلاثة { يَدْخُلُونَهَا } : أبو عمرو { يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ } جمع أسورة جمع سوار { مِن ذَهَبٍ } أي من ذهب مرصع باللؤلؤ { ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا } [الحج : 23] بالنصب والهمزة : نافع وحفص عطفاً على محل { مِنْ أَسَاوِرَ } [الحج : 23] أي يحلون أساور ولؤلؤاً { وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } [الحج : 23] لما فيه من اللذة والزينة.

جزء : 3 رقم الصفحة : 494

{ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ } [فاطر : 34] خوف النار أو خوف الموت أو هموم الدنيا { إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ } [فاطر : 34] يغفر الجنايات وإن كثرت { شَكُورٌ } يقبل الطاعات وإن قلت { الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ } [فاطر : 35] أي الإقامة لا نبرح منها ولا نفارقها يقال أقمت إقامة ومقاماً ومقامة { مِّن فَضْلِهِ } [النساء : 32] من عطائه وإفضاله لا باستحقاقنا { لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ } [فاطر : 35] تعب ومشقة { وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ } [فاطر : 35] إعياء من التعب وفترة.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي { لُغُوبٌ } بفتح اللام وهو شيء يلغب منه أي لا نتكلف عملاً يلغبنا { وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا } [فاطر : 36] جواب النفي ونصبه بإضمار " أن " أي لا يقضى عليهم بموت ثانٍ فيستريحوا { وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا } [فاطر : 36] من عذاب نار جهنم { كَذَالِكَ } مثل ذلك الجزاء { نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ } [فاطر : 36] { نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ } : أبو عمرو { وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا } [فاطر : 37] يستغيثون فهو يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد ومشقة ، واستعمل في الاستغاثة لجهر صوت المستغيث { رَبَّنَآ } يقولون ربنا
497

(275/3)

{ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ } [فاطر : 37] أي أخرجنا من النار ردنا إلى الدنيا نؤمن بدل الكفر ونطع بعد المعصية فيجاوبون بعد فدر عمر الدنيا { أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ } [فاطر : 37] يجوز أن يكون " ما " نكرة موصوفة أي تعميراً يتذكر فيه من تذكر وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر ، إلا أن التوبيخ في المتطاول أعظم.

ثم قيل : هو ثمان عشرة سنة.

وقيل : أربعون.

وقيل : ستون سنة { وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ } [فاطر : 37] الرسول عليه السلام أو المشيب وهو عطف على معنى { أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم } [فاطر : 37] لأن لفظه لفظ استخبار ومعناه إخبار كأنه قيل : قد عمرناكم وجاءكم النذير { فَذُوقُوا } العذاب { فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ } [فاطر : 37] ناصر يعينهم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 494

{ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [فاطر : 38] ما غاب فيهما عنكم { إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [الانفال : 43] كالتعليل لأنه إذا علم ما في الصدور وهو أخفى ما يكون فقد علم كل غيب في العالم.

وذات الصدور مضمراتها وهي تأنيث ذو في نحو قول أبي بكر رضي الله عنه : ذو بطن خارجة جاريةٌ.

أي ما في بطنها من الحبل لأن الحبل يصحب البطن.

وكذا المضمرات تصحب الصدور وذو موضوع لمعنى الصحبة

جزء : 3 رقم الصفحة : 498

{ هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خلائف فِى الارْضِ } [فاطر : 39] يقال للمستخلف خليفة ويجمع على خلائف ،

والمعنى أنه جعلكم خلفاء في أرضه قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة { فَمَن كَفَرَ } [المائدة : 12] منكم وغمط مثل هذه النعمة السنية { فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ } [فاطر : 39] فوبال كفره راجع عليه وهو مقت الله وخسار الآخرة كما قال { وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا } [فاطر : 39] وهو أشد

البغض { وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلا خَسَارًا } [فاطر : 39] هلاكاً وخسراناً { قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ } [فاطر : 40] آلهتكم التي أشركتموهم في العباد { الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الارْضِ } [فاطر : 40] { أَرُونِى } بدل من { أَرَءَيْتُمْ } أخبروني كأنه قيل : أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الشركة ، أروني أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله؟ { أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَاوَاتِ } [فاطر : 40] أم لهم مع الله شركة في خلق السماوات { أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِّنْهُ } أي معهم كتاب من عند الله ينطق أنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب.

{ بَيِّنَاتٍ } علي وابن عامر ونافع وأبو بكر { بَلْ إِن يَعِدُ } [فاطر : 40] ما يعد { الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم } [فاطر : 40] بدل من { الظَّالِمُونَ } وهم الرؤساء { بَعْضًا } أي الأتباع { إِلا غُرُورًا } [النساء : 120] هو قولهم { هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ } [يونس : 18] (يونس : 81).

{ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ أَن تَزُولا } [فاطر : 41] يمنعهما من أن تزولا لأن الإمساك منع { وَلَـاِن زَالَتَآ } [فاطر : 41] على سبيل الفرض { إِنْ أَمْسَكَهُمَا } [فاطر : 41] ما أمسكهما { مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ } [فاطر : 41] من بعد إمساكه.

و " من " الأولى مزيدة لتأكيد النفي والثانية للابتداء { إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } [الإسراء : 44] غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدّا هدًّا لعظم كلمة الشرك كما قال { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الارْضُ } [مريم : 90] (مريم : 09) الآية.

جزء : 3 رقم الصفحة : 498

(276/3)

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } [الأنعام : 109] نصب على المصدر أي إقساماً بليغاً أو على الحال أي جاهدين في أيمانهم { لَـاِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الامَمِ } [فاطر : 42] بلغ قريشاً قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلّم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم

أي من الأمة التي يقال فيها هي إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة كما يقال للداهية العظيمة هي إحدى الدواهي { فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ } [فاطر : 42] فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلّم { مَّا زَادَهُمْ إِلا نُفُورًا } [فاطر : 42] أي ما زادهم مجيء الرسول صلى الله عليه وسلّم إلا تباعداً عن الحق وهو إسناد مجازي { اسْتِكْبَارًا فِى الارْضِ } [فاطر : 43] مفعول له وكذا { وَمَكْرَ } والمعنى وما زادهم إلا نفوراً للاستنكار ومكر السيء ، أو حال يعني مستكبرين وماكرين برسول الله صلى الله عليه وسلّم.

وأصل قوله ومكر السيء وأن مكروا السيء أي المكر السيء ، ثم ومكراً السيء ثم ومكر السيء والدليل عليه وقوله { وَلا يَحِيقُ } [فاطر : 43] يحيط وينزل { الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ } [فاطر : 43] ولقد حاق بهم يوم بدر وفي المثل " من حفر لأخيه جباً وقع فيه مكباً { فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلا سُنَّتَ الاوَّلِينَ } وهو إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم ، والمعنى فهل ينظرون بعد تكذيبك إلا أن ينزل بهم العذاب مثل الذي نزل بمن قبلهم من مكذبي الرسل ، جعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم { فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا } بين أن سنته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل سنة لا يبدلها في ذاتها ولا يحولها عن أوقاتها وأن ذلك مفعول لا محالة.

{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الارْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } [الروم : 9] استشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم { وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ } [فاطر : 44] من أهل مكة { قُوَّةً } اقتداراً فلم يتمكنوا من الفرار { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ } [فاطر : 44] ليسبقه ويفوته { مِن شَىْءٍ } [الذاريات : 42] أيّ شيء

500

{ فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ إِلا ءَاتِى الرَّحْمَانِ عَبْدًا } بهم { قَدِيرًا } قادراً عليهم { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا } [فاطر : 45] بما اقترفوا من المعاصي { مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا } [فاطر : 45] على ظهر الأرض لأنه جرى ذكر الأرض في قوله { لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْءٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَلا فِى الارْضِ } [فاطر : 44] (فاطر : 44) { مِن دَآبَّةٍ } [الجاثية : 4] من نسمة تدب عليها { وَلَاكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } [النحل : 61] إلى يوم القيامة { فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا } [فاطر : 45] أي لم تخف عليه حقيقة أمرهم وحكمة حكمهم.

501

جزء : 3 رقم الصفحة : 498

سورة يس

مكية وهي ثلاث وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء : 4 رقم الصفحة : 4

(4/4)

{ يس } عن ابن عباس رضي الله عنهما معناه يا إنسان في لغة طيء ، وعن ابن الحنفية يا محمد ، وفي الحديث : " إن الله سماني في القرآن بسبعة أسماء : محمد وأحمد وطه ويس والمزمل والمدثر وعبد الله " .

وقيل يا سيد.

{ يَاسِينَ } بالإمالة : علي وحمزة وخلف وحماد ويحيى { وَالْقُرْءَانِ } قسم { الْحَكِيمِ } ذي الحكمة أو لأنه دليل ناطق بالحكمة أو لأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به { إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ } [يس : 3] جواب القسم وهو رد على الكفار حين قالوا : { لَسْتَ مُرْسَلا } [الرعد : 43] (الرعد : 34) { عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [الأنعام : 39] خبر بعد خبر أوصلة لـ { الْمُرْسَلِينَ } أي الذين أرسلوا على صراط مستقيم أي طريقة مستقيمة وهو الإسلام { تَنزِيلَ } بنصب اللام : شامي وكوفي غير أبي بكر على " اقرأ تنزيل " أو على أنه مصدر أي نزل تنزيل ، وغيرهم بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو تنزيل

5

والمصدر بمعنى المفعول { الْعَزِيزِ } الغالب بفصاحة نظم كتابه أو هام ذوي العناد { الرَّحِيمِ } الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهام أولي الرشاد.

واللام في { لِتُنذِرَ قَوْمًا } [القصص : 46] متصل بمعنى المرسلين أي أرسلت لتنذر قوماً { مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ } [

جزء : 4 رقم الصفحة : 5

يس : 6] " ما " نافية عند الجمهور أي قوماً غير منذر آباؤهم على الوصف بدليل قوله { لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ } [القصص : 46] (القصص : 64) { وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِّن نَّذِيرٍ } [سبأ : 44] (سبأ : 44).

أو موصولة منصوبة على المفعول الثاني أي العذاب الذي أنذره آباؤهم كقوله { إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا } [النبأ : 40] (النبأ : 04) أو مصدرية أي لتنذر قوماً إنذار آبائهم أي مثل إنذار آبائهم { فَهُمْ غَافِلُونَ } [يس : 6] إن جعلت " ما " نافية فهو متعلق بالنفي أي لم ينذروا فهم غافلون وإلا فهو

متعلق بقوله : { إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ } .
كما تقول " أرسلتك إلى فلان لتنذره فإنه غافل أو فهو غافل " { لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [يس : 7] يعني قوله : { لامْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [هود : 119] (السجدة : 31) أي تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر.
جزء : 4 رقم الصفحة : 5
ثم مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤوسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم في أن لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله بقوله { إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالا فَهِىَ إِلَى الاذْقَانِ } [يس : 8] معناه فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها { فَهُمْ } مرفوعة رءوسهم.
يقال : قمح البعير فهو قامح إذا روي فرفع رأسه وهذا لأن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود خارجاً من الحلقة إلى الذقن فلا يخليه
6

(5/4)

يطأطىء رأسه فلا يزال مقمحاً { مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا } [يس : 9] بفتح السين : حمزة وعلي وحفص.
وقيل : ما كان من عمل الناس فبالفتح ، وما كان من خلق الله كالجبل ونحوه فبالضم { فَأَغْشَيْنَاهُمْ } فأغشينا أبصارهم أي غطيناها وجعلنا عليها غشاوة { فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ } [يس : 9] الحق والرشاد.
وقيل : نزلت في بني مخزوم وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه ، فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه به ، فلما رفع يده انثنت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد فرجع إلى قومه فأخبرهم فقال مخزومي آخر : أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله بصره و { سَوَا ءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [البقرة : 6] أي سواء عليهم الإنذار وتركه ، والمعنى من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار.
وروي أن عمر بن عبد العزيز قرأ الآية على غيلان القدري فقال : كأني لم أقرأها أشهدك أني تائب عن قولي في القدر.
فقال عمر : اللهم إن صدق فتب عليه وإن كذب فسلط عليه من لا يرحمه ، فأخذه هشام بن عبد الملك من عنده فقطع يديه ورجليه وصلبه على باب دمشق { إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ } [يس : 11] أي إنما ينتفع بإنذارك من اتبع القرآن { وَخَشِىَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ } [يس : 11] وخاف عقاب الله ولم

يره { فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ } [يس : 11] وهي العفو عن ذنوبه { وَأَجْرٍ كَرِيمٍ } [يس : 11] أي الجنة.
جزء : 4 رقم الصفحة : 5
{ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى } [يس : 12] نبعثهم بعد مماتهم أو نخرجهم من الشرك إلى
7
الإيمان { وَنَكْتُبُ مَآ قَدَّمُوا } [يس : 12] ما أسلفوا من الأعمال الصالحات وغيرها { وَءَاثَارَهُمْ } ما هلكوا عنه من أثر حسن كعلم علّموه أو كتاب صنّفوه أو حبيس حبّسوه أو رباط أو مسجد صنعوه أو سيء كوظيفة وظفها بعض الظلمة ، وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها ونحوه قوله تعالى { يُنَبَّؤُا الانسَانُ يَوْمَاذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ } [القيامة : 13] (القيامة : 31) قدم من أعماله وأخر من آثاره.
وقيل : هي خطاهم إلى الجمعة أو إلى الجماعة { وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَاهُ } [
جزء : 4 رقم الصفحة : 7
يس : 12] عددناه وبيناه { فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ } [يس : 12] يعني اللوح المحفوظ لأنه أصل الكتب ومقتداها.
{ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ } [يس : 13] ومثل لهم من قولهم " عندي من هذا الضرب كذا " أي من هذا المثال ، وهذه الأشياء على ضرب واحد أي على مثال واحد ، والمعنى واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية أي أنطاكية ، أي اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية ، والمثل الثاني بيان للأول.
وانتصاب { إِذْ } بأنه بدل من { أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ } [يس : 13] { جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ } [يس : 13] رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها بعثهم دعاة إلى الحق وكانوا عبدة أوثان { إِذْ } بدل من { إِذْ } الأولى { أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ } [يس : 14] أي أرسل عيسى بأمرنا { اثْنَيْنِ } صادقاً وصدوقاً ، فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له . وهو حبيب النجار . فسأل عن حالهما فقالا : نحن رسولا عيسى ، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن فقال : أمعكما آية؟ فقالا : نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص ، وكان له ابن مريض مدة سنتين فمسحاه فقام ، فآمن حبيب وفشا الخبر فشفي على أيديهما خلق كثير ، فدعاهما الملك وقال لهما : ألنا إله سوى آلهتنا؟ قالا : نعم من أوجدك وآلهتك.
فقال : حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس وضربوهما.
وقيل : حبسا ثم بعث عيسى شمعون فدخل متنكراً وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به فقال له ذات يوم : بلغني أنك حبست رجلين
8

فهل سمعت قولهما؟ قال : لا.
فدعاهما فقال شمعون : من أرسلكما؟ قالا : الله الذي خلق كل شيء ورزق كل حي وليس له شريك.
فقال : صفاه وأوجزا.
قالا : يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.
قال : وما آيتكما؟ قالا : ما يتمنى الملك.
فدعا بغلام أكمه فدعوا الله فأبصر الغلام.
فقال له شمعون : أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف؟ قال الملك : ليس لي عنك سر إن إلهنا لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع.
ثم قال : إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به ، فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال : إني أدخلت في سبعة أودية من النار لما مت عليه من الشرك وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا.
وقال : فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة.
قال الملك : ومن هم؟ قال : شمعون وهذان ، فتعجب الملك.
فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن قوم ، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل فهلكوا.
جزء : 4 رقم الصفحة : 7
{ فَكَذَّبُوهُمَا } فكذب أصحاب القرية الرسولين { فَعَزَّزْنَا } فقويناهما ، { فَعَزَّزْنَا } أبو بكر من عزّه يعزّه إذا غلبه أي فغلبنا وقهرنا { بِثَالِثٍ } وهو شمعون وترك ذكر المفعول به لأن المراد ذكر المعزز به وهو شمعون وما لطف فيه من التدبير حتى عز الحق وذل الباطل ، وإذا كان الكلام منصباً إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه كأن ما سواه مرفوض { فَقَالُوا إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ } [يس : 14] أي قال الثلاثة لأهل القرية { قَالُوا } أي أصحاب القرية { مَآ أَنتُمْ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا } [يس : 15] رفع { بَشَرٌ } هنا ونصب في قوله { مَا هَذَا بَشَرًا } [يوسف : 31] (يوسف : 13) لانتقاض النفي بـ " إلا " فلم يبق لما شبه بليس وهو الموجب لعمله { وَمَآ أَنزَلَ الرَّحْمَانُ مِن شَىْءٍ } [يس : 15] أي وحياً { إِنْ أَنتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ } [يس : 15] ما أنتم إلا كذبة.
{ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ } [يس : 16] أكد الثاني باللام دون الأول لأن الأول ابتداء إخبار والثاني جواب عن إنكار فيحتاج إلى زيادة تأكيد.
و { رَبُّنَا يَعْلَمُ } [يس : 16] جارٍ مجرى القسم في التوحيد وكذلك قولهم " شهد الله " و " علم الله " { وَمَا عَلَيْنَآ إِلا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } [يس : 17] أي التبليغ الظاهر المكشوف بالآية

الشاهدة بصحته { قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ } [يس : 18] تشاءمنا بكم وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم ، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه وقبلته طباعهم ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم بلاء أو نعمة قالوا بشؤم هذا وبركة ذلك.

وقيل : حبس عنهم المطر فقالوا ذلك { لَـاٰاِن لَّمْ تَنتَهُوا } [يس : 18] عن مقالتكم هذه { لَنَرْجُمَنَّكُمْ } لنقتلنكم أو لنطردنكم أو لنشتمنكم { وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [يس : 18] وليصيبنكم عذاب النار وهو أشد عذاب { قَالُوا طائركم } [يس : 19] أي سبب شؤمكم { مَّعَكُمْ } وهو الكفر { أَاِنَّ } بهمزة الاستفهام وحرف الشرط : كوفي وشامي { أئن ذُكِّرْتُم } [يس : 19] وعظتم ودعيتم إلى الإسلام ، وجواب الشرط مضمر وتقديره " تطيرتم " ، { أَيْنَ } بهمزة ممدودة بعدها ياء مكسورة : أبو عمرو ، و { أَيْنَ } بهمزة مقصورة بعدها ياء مسكورة : مكي ونافع.

{ ذُكِّرْتُم } بالتخفيف : يزيد { بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ } [الأعراف : 81] مجاوزون الحد في العصيان فمن ثم أتاكم الشؤم من قبلكم لا من قبل رسل الله وتذكيرهم ، أو بل أنتم مسرفون في ضلالكم وغيكم حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله.

جزء : 4 رقم الصفحة : 7

{ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى } هو حبيب النجار وكان في غار من الجبل يعبد الله فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقال : أتسألون على ما جئتم به أجراً؟ قالوا : لا { قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ } على تبليغ الرسالة { وَهُم مُّهْتَدُونَ } [الأنعام : 82] أي الرسل : فقالوا : أو أنت على دين هؤلاء؟ فقال :

10

{ وَمَا لِىَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى } خلقني { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [البقرة : 245] وإليه مرجعكم ، { وَمَا لِىَ } [يس : 22] حمزة.

{ ءَأَتَّخِذُ } بهمزتين : كوفي { ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً } [يس : 23] يعني الأصنام { إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ } [يس : 23] شرط جوابه { لا تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شيئا وَلا يُنقِذُونِ } [يس : 23] من مكروه ، { وَلا } في الحالين : يعقوب { يُنقِذُونِ * إِنِّى إِذًا } [يس : 24] أي إذا اتخذت { لَّفِى ضَلَـالٍ مُّبِينٍ } [آل عمران : 164] ظاهر بين.

ولما نصح قومه أخذوا يرجمونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل فقال لهم { إِنِّى ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ } [يس : 25] أي اسمعوا إيماني لتشهدوا لي به.

ولما قتل { قِيلَ } له { ادْخُلِ الْجَنَّةَ } [يس : 26] وقبره في سوق أنطاكية.

ولم يقل " قيل له " لأن الكلام سيق لبيان المقول لا لبيان المقول له مع كونه معلوماً ، وفيه دلالة أن الجنة مخلوقة.

وقال الحسن : لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إليه وهو في الجنة ولا يموت إلا بفناء السماوات

والأرض ، فلما دخل الجنة ورأى نعيمها { قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى } أي بمغفرة ربي لي أو بالذي غفر لي { وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ } [يس : 27] بالجنة.

جزء : 4 رقم الصفحة : 7

{ وَمَآ أَنزَلْنَا } [الانفال : 41] " ما " نافيه { عَلَى قَوْمِهِ } [القصص : 79] قوم حبيب { مِن بَعْدِهِ } [الأحزاب : 53] أي من بعد قتله أو رفعه { مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَآءِ } [يس : 28] لتعذيبهم { وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ } [يس : 28] وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء ، وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض لحكمة اقتضت ذلك { إِن كَانَتْ } [يس : 29] الأخذة أو العقوبة { إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً } [يس : 49] صاح جبريل عليه السلام 11

صيحة واحدة { فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ } [يس : 29] ميتون كما تخمد النار.

والمعنى أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء كما فعل يوم بدر والخندق.

جزء : 4 رقم الصفحة : 11

{ يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ } [يس : 30] الحسرة شدة الندم وهذا نداء للحسرة عليهم كأنما قيل لها تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها وهي حال استهزائهم بالرسل ، والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم المتلهفون ، أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين { أَلَمْ يَرَوْا } [النمل : 86] ألم يعلموا { كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ } [طه : 128] " كم " نصب بـ { أَهْلَكْنَا } و { يَرَوْا } معلق عن العمل في " كم " لأن " كم " لا يعمل فيها عامل قبلها كانت للاستفهام أو للخبر ، لأن أصلها الاستفهام إلا أن معناه نافذ في الجملة.

وقوله { أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ } [يس : 31] بدل من { كَمْ أَهْلَكْنَا } [طه : 128] على المعنى لا على اللفظ تقديره : ألم يروا كثرة إهلا كنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم { وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ } [يس : 32] { لَّمَّا } بالتشديد : شامي وعاصم وحمزة بمعنى إلا و " إن " نافية.

وغيرهم بالتخفيف على أن " ما " صلة للتأكيد و " إن " مخففة من الثقيلة وهي متلقاة باللام لا محالة.

والتنوين في { كُلِّ } عوض من المضاف إليه ، والمعنى إن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب أو معذبون.

وإنما أخبر عن { كُلِّ } بجميع لأن " كلا " يفيد معنى الإحاطة والجميع فعيل بمعنى مفعول ومعناه الاجتماع يعني أن المحشر يجمعهم { وَءَايَةٌ لَّهُمُ } [يس : 33] مبتدأ وخبر أي وعلامة تدل على أن الله يبعث الموتى إحياء الأرض الميتة ، ويجوز أن يرتفع { ءَايَةٍ } بالابتداء و { لَهُمُ } صفتها ،

وخبرها { الارْضُ الْمَيْتَةُ } [يس : 33] اليابسة.
وبالتشديد : مدني { أَحْيَيْنَاهَا } بالمطر وهو استئناف بيان لكون الأرض
12
الميتة آية وكذلك { نَسْلَخُ } ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل لأنه أريد بهما جنسان مطلقان لا أرض وليل بأعيانهما فعوملا معاملة النكرات في وصفهما بالأفعال ونحوه :
جزء : 4 رقم الصفحة : 11
ولقد أمر على اللئيم يسبني

(8/4)

{ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا } [يس : 33] أريد به الجنس { فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ } [يس : 33] قدم الظرف ليدل على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس ، وإذا قل جاء القحط ووقع الضر وإذا فقد حضر الهلاك ونزل البلاء { وَجَعَلْنَا فِيهَا } [يس : 34] في الأرض { جَنَّاتٍ } بساتين { مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ } [يس : 34] " من " زائدة عند الأخفش وعند غيره المفعول محذوف تقديره ما ينتفعون به { لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ } [يس : 35] والضمير لله تعالى أي ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر.
{ مِن ثَمَرِهِ } [الأنعام : 141] حمزة وعلي { وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ } [يس : 35] أي ومما عملته أيديهم من الغرس والسقي والتلقيح وغير ذلك من الأعمال إلى أن يبلغ الثمر منتهاه ، يعني أن الثمر في نفسه فعل الله وخلقه وفيه آثار من كد بني آدم وأصله من ثمرنا كما قال { وَجَعَلْنَا } { وَفَجَّرْنَا } فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريق الالتفات.
ويجوز أن يرجع الضمير إلى النخيل وتترك الأعناب غير مرجوع إليها لأنه علم أنها في حكم النخيل مما علق به من أكل ثمره ، ويجوز أن يراد من ثمر المذكور وهو الجنات كما قال رؤبة.
فيها خطوط من بياض وبلق
كأنه في الجلد توليع البهق
فقيل له فقال : أردت كأن ذاك.
{ وَمَا عَمِلَتْهُ } [آل عمران : 30] كوفي غير حفص وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك ، وفي مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير.
وقيل : " ما " نافية على أن الثمر خلق الله ولم تعمله أيدي الناس ولا يقدرون عليه { أَفَلا يَشْكُرُونَ } [يس : 35] استبطاء وحث على شكر النعمة.
13

{ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الازْوَاجَ } [يس : 36] الأصناف { كُلَّهَا مِمَّا تُنابِتُ الارْضُ } [يس : 36] من النخيل والشجر والزرع والثمر { وَمِنْ أَنفُسِهِمْ } [يس : 36] الأولاد ذكوراً وإناثاً { وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ } [يس : 36] ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ولا توصلوا إلى معرفتها ، ففي الأودية والبحار أشياء لا يعلمها الناس.

جزء : 4 رقم الصفحة : 11

{ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ } نخرج منه النهار إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوء النهار ، أو ننزع عنه الضوء نزع القميص الأبيض فيعرى نفس الزمان كشخص زنجي أسود لأن أصل ما بين السماء والأرض من الهواء الظلمة فاكتسى بعضه ضوء الشمس كبيت مظلم أسرج فيه فإذا غاب السراج أظلم { فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ } [يس : 37] داخلون في الظلام { وَالشَّمْسُ تَجْرِى } [يس : 38] وآية لهم الشمس تجري { لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا } [يس : 38] لحد لها موقت مقدر تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة ، شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره أو لحد لها من مسيرها كل يوم في مرائي عيوننا وهو المغرب ، أو لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا { ذَالِكَ } الجري على ذلك التقدير والحساب الدقيق { تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ } [الأنعام : 96] الغالب بقدرته على كل مقدور { الْعَلِيمِ } بكل معلوم { وَالْقَمَرَ } نصب بفعل يفسره { قَدَّرْنَاهُ } وبالرفع مكي ونافع وأبو عمرو وسهل على الابتداء والخبر قدرناه أو على " وآية لهم القمر " { مَنَازِلَ } وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة وفي واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستوٍ يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين ، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر.

ولا بد في { قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ } [يس : 39] من تقدير مضاف لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل أي قدرنا نوره فيزيد وينقص ، أو قدرنا مسيره منازل فيكون ظرفاً فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس { حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ } [يس : 39] هو عود الشمراخ إذا يبس واعوج

14

ووزنه فعلون من الانعراج وهو الانعطاف { الْقَدِيمِ } العتيق المحول وإذا قدم دق وانحنى واصفر فشبه القمر به من ثلاثة أوجه.

جزء : 4 رقم الصفحة : 11

{ لا الشَّمْسُ يَنابَغِى لَهَآ } [يس : 40] أي لا يتسهل لها ولا يصح ولا يستقيم { أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ } [يس : 40] فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره لأن لكل واحد من النيرين سلطاناً على حياله ، فسلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل { وَلا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ } [يس :

40] ولا يسبق الليل النهار أي آية الليل آية النهار وهما النيران ، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن تقوم القيامة فيجمع الله بين الشمس والقمر وتطلع الشمس من مغربها { وَكُلٌّ } التنوين فيه عوض من المضاف إليه أي وكلهم والضمير للشموس والأقمار { فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [الأنبياء : 33].

يسيرون

جزء : 4 رقم الصفحة : 15

{ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ } [يس : 41] مدني وشامي { مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ } [الشعراء : 119] أي المملوء.

والمراد بالذرية الأولاد ومن يهمهم حمله وكانوا يبعثونهم إلى التجارات في بر أو بحر ، أو الآباء لأنها من الأضداد.

والفلك على هذا سفينة نوح عليه السلام.

وقيل : معنى حمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفي أصلابهم هم وذرياتهم.

وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم { وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ } [يس : 42] من مثل الفلك { مَا يَرْكَبُونَ } [يس : 42] من الإبل وهي سفائن البر { وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ } [يس : 43] في البحر { وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ } فلا مغيث أو فلا إغاثة { وَلا هُمْ يُنقَذُونَ } لا ينجون { إِلا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ } [يس : 44] أي ولا ينقذون إلا لرحمة منا ولتمتيع بالحياة إلى انقضاء الأجل ، فهما منصوبان على المفعول له.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ } [يس : 45] أي ما تقدم من ذنوبكم وما
15

تأخر مما أنتم تعملون من بعد أو من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها ، وما خلفكم من أمر الساعة أو فتنة الدنيا وعقوبة الآخرة { لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [آل عمران : 132] لتكونوا على رجاء رحمة الله.

وجواب " إذا " مضمر أي أعرضوا ، وجاز حذفه لأن قوله { وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ } [الأنعام : 4] يدل عليه.

و " من " الأولى لتأكيد النفي والثانية للتبعيض أي ودأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ } [البقرة : 91] لمشركي مكة { أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } [يس : 47] أي تصدقوا على الفقراء { قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ } [يس : 47] عن ابن عباس رضي الله عنهما : كان بمكة زنادقة فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن : { إِنْ أَنتُمْ إِلا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [يس : 47] قول الله لهم أو حكاية قول المؤمنين لهم أو هو من جملة جوابهم للمؤمنين.

جزء : 4 رقم الصفحة : 15

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَاذَا الْوَعْدُ } [يونس : 48] أي وعد البعث والقيامة { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة : 23] فيما تقولون خطاب للنبي وأصحابه { مَا يَنظُرُونَ } [يس : 49] ينتظرون { إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً } [يس : 49] هي النفخة الأولى { تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ } [يس : 49] حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد من خصمه إذا غلبه في الخصومة ، وشدد الباقون الصاد أي { يَخِصِّمُونَ } بإدغام التاء في الصاد ، لكنه مع فتح الخاء : مكي بنقل حركة التاء المدغمة إليها ، وبسكون الخاء : مدني ، وبكسر الياء والخاء : يحيى فأتبع الياء الخاء في الكسر ، وبفتح الياء وكسر الخاء : غيرهم.
والمعنى تأخذهم وبعضهم يخصم بعضاً في معاملاتهم.
{ فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً } [يس : 50] فلا يستطيعون أن يوصوا في شيء من أمورهم توصية { وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ } [يس : 50] ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم بل يموتون حيث يسمعون الصيحة { وَنُفِخَ فِى الصُّورِ } هي النفخة الثانية والصور القرن أو جمع صورة

(10/4)

{ فَإِذَا هُم مِّنَ الاجْدَاثِ } [يس : 51] أي القبور { إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ } [يس : 51] يعدون بكسر السين وضمها { قَالُوا } أي الكفار { قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا } من أنشرنا { مِن مَّرْقَدِنَا } [يس : 52] أي مضجعنا ، وقف لازم عن حفص وعن مجاهد للكفار مضجعة يجدون فيها طعم النوم فإذا صيح بأهل القبور قالوا من بعثنا { هَاذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ } [يس : 52] كلام الملائكة أو المتقين أو الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضاً ، أو " ما " مصدرية ومعناه هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين على تسلمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق ، أو موصولة وتقديره هذا الذي وعده الرحمن والذي صدقه المرسلون أي والذي صدق فيه المرسلون { إِن كَانَتْ } [يس : 29] النفخة الأخيرة
جزء : 4 رقم الصفحة : 15
{ إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ } [يس : 29] للحساب.
ثم ذكر ما يقال لهم في ذلك اليوم { شُغُلٍ } بضمتين : كوفي وشامي ، وبضمة وسكون : مكي ونافع وأبو عمرو.
والمعنى في شغل في أي شغل وفي شغل لا يوصف ، وهو افتضاض الأبكار على شط الأنهار تحت الأشجار أو ضرب الأوتار أو ضيافة الجبار { فَاكِهُونَ } خبر ثان { فَاكِهُونَ } يزيد ، والفاكه والفكه : المتنعم المتلذذ ومنه الفاكهة لأنها مما يتلذذ به وكذا الفكاهة { هُمْ } مبتدأ { وَأَزْوَاجُهُمْ } عطف عليه { فِى ظِلَالٍ } [يس : 56] حال جمع ظل وهو الموضع الذي لا تقع عليه الشمس كذئب

وذئاب ، أو جمع ظلة كبرمة وبرام دليله قراءة حمزة وعليّ ، { ظِلَالٍ } جمع ظلة وهي ما سترك عن الشمس

17

{ عَلَى الارَآ ئِكِ } [الإنسان : 13] جمع الأريكة وهي السرير في الحجلة أو الفراش فيها { مُتَّكِـُٔونَ } خبر أو { فِى ظِلَالٍ } [يس : 56] خبر و { عَلَى الارَآ ئِكِ } [الإنسان : 13] مستأنف { لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ } [يس : 57] يفتعلون من الدعاء أي كل ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم أو يتمنون من قولهم " ادع علي ما شئت " أي تمنه عليّ ، عن الفراء هو من الدعوى ولا يدعون ما لا يستحقون.

جزء : 4 رقم الصفحة : 15

{ سَلَامٌ } بدل من { مَّا يَدَّعُونَ } [يس : 57] كأنه قال لهم سلام يقال لهم { قَوْلا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ } [يس : 58] والمعنى أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيماً لهم وذلك متمناهم ولهم ذلك لا يمنعونه.

قال ابن عباس : والملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين.

{ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ } [يس : 59] وانفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة.

وعن الضحاك : لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى ولا يرى أبداً ويقول لهم يوم القيامة { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِى ءَادَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } [يس : 60] العهد الوصية وعهد إليه إذا وصاه وعهد الله إليهم ما ركزه فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل السمع ، وعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم { وَأَنِ اعْبُدُونِى } [يس : 61] وحدوني وأطيعوني { هَاذَا } إشارة إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن { صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } [البقرة : 142] أي صراط بليغ في استقامته ولا صراط أقوم منه { وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلا } [يس : 62] بكسر الجيم والباء والتشديد : مدني وعاصم

18

وسهل { جِبِلا } بضم الجيم والباء والتشديد : يعقوب { جِبِلا } مخففاً : شامي وأبو عمرو.

و { جِبِلا } بضم الجيم والباء وتخفيف اللام : غيرهم ، وهذه لغات في معنى الخلق { كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ } [يس : 62] استفهام تقريع على تركهم الانتفاع بالعقل { هَاذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ } [يس : 63] بها { اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ } [يس : 64] ادخلوها بكفركم وإنكاركم لها.

جزء : 4 رقم الصفحة : 18

{ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ } [يس : 65] أي نمنعهم من الكلام { وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [يس : 65] يروى أنهم يجحدون ويخاصمون فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم فيحلفون ما كانوا مشركين ، فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم ، وفي الحديث " يقول العبد يوم القيامة إني لا أجيز عليّ إلا شاهداً من نفسي فيختم على فيه ويقال لأركانه : أنطقي فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل " { وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ } [يس : 66] لأعميناهم وأذهبنا أبصارهم.

والطمس تعفيه شق العين حتى تعود ممسوحة { فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ } [يس : 66] على حذف الجار وإيصال الفعل والأصل فاستبقوا إلى الصراط { فَأَنَّى يُبْصِرُونَ } [يس : 66] فكيف يبصرون حينئذ وقد طمسنا أعينهم { وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَاهُمْ } [يس : 67] قردة أو خنازير أو حجارة { عَلَى مَكَانَتِهِمْ } [يس : 67] { عَلَى } أبو بكر وحماد.

والمكانة والمكان واحد كالمقامة والمقام أي لمسخناهم في منازلهم حيث يجترحون الماثم { مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ } [يس : 67] فلم يقدروا على ذهاب ولا مجيء أو مضياً أمامهم ولا يرجعون خلفهم.

{ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ } [يس : 68] عاصم وحمزة ، والتنكيس : جعل الشيء أعلاه أسفله ، الباقون { نُنَكِّسْهُ } { فِى الْخَلْقِ } [يس : 68] أي نقلبه فيه بمعنى من أطلنا عمره نكسنا خلقه

19

فصار بدل القوة ضعفاً وبدل الشباب هرماً ، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده وخلو من عقل وعلم ثم جعلناه يتزايد إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته ويعقل ويعلم ما له وما عليه ، فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقض حتى يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله قال عز وجل : { وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شيئا } [الحج : 5] (الحج : 5) { أَفَلا يَعْقِلُونَ } [يس : 68] أن من قدر على أن ينقلهم من الشباب إلى الهرم ومن القوة إلى الضعف ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ، قادر على أن يطمس على أعينهم ويمسخهم على مكانتهم ويبعثهم بعد الموت.

وبالتاء : مدني ويعقوب وسهل.

جزء : 4 رقم الصفحة : 18

وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلّم شاعر فنزل { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ } [يس : 69] أي وما علمنا النبي عليه السلام قول الشعراء أو وما علمناه بتعليم القرآن الشعر على معنى أن القرآن ليس بشعر فهو كلام موزون مقفى يدل على معنى ، فأين الوزن وأين التقفية؟.

فلا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققته { وَمَا يَنابَغِى لَهُا } [يس : 69] وما يصح له ولا يليق بحاله

ولا يتطلب لو طلبه أي جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يتسهل كما جعلناه أمياً لا يهتدي إلى الخط لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وأما قوله :

أنا النبي لا كذب

أنا ابن عبد المطلب

وقوله :

هل أنت إلا أصبع دميت

وفي سبيل الله ما لقيت

فما هو إلا من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة من غير صنعة فيه ولا تكلف إلا أنه اتفق من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه أن جاء موزوناً كما يتفق في خطب الناس ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة ، ولا يسميها أحد شعراً لأن

20

صاحبه لم يقصد الوزن ولا بد منه ، على أنه عليه السلام قال " لقيت " بالسكون ، وفتح الباء في " كذب " وخفض الباء في " المطلب " ولما نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر قال { إِنْ هُوَ } [يوسف : 104] أي المعلم { إِلا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ } [يس : 69] أي ما هو إلا ذكر من الله يوعظ به الإنس والجن ، وما هو إلا قرآن كتاب سماوي يقرأ في المحاريب ويتلى في المتعبدات وينال بتلاوته والعمل به فوز الدارين ، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين { لِّيُنذِرَ } القرآن أو الرسول { لِتُنذِرَ } مدني وشامي وسهل ويعقوب { مَن كَانَ حَيًّا } [يس : 70] عاقلاً متأملاً لأن الغافل كالميت أو حياً بالقلب ، { وَيَحِقَّ الْقَوْلُ } [يس : 70] وتجب كلمة العذاب { عَلَى الْكَافِرِينَ } [البقرة : 89] الذين لا يتأملون وهم في حكم الأموات.

جزء : 4 رقم الصفحة : 18

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَامًا } أي مما تولينا نحن إحداثه ولم يقدر على توليه غيرنا { فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ } [يس : 71] أي خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم فهم متصرفون فيها تصرف الملاك مختصون بالانتفاع بها أو فهم لها ضابطون قاهرون { وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ } [يس : 72] وصيرناها منقادة لهم وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله تعالى وتسخيره لها ، ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله { سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَاذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ } [الزخرف : 13] (الزخرف : 31) { فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ } [يس : 72] وهو ما يركب { وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ } [يس : 72] أي سخرناها لهم ليركبوا ظهرها ويأكلوا لحمها { وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ } [يس : 73] من الجلود والأوبار وغير

ذلك من اللبن وهو جمع مشرب وهو موضع الشرب أو الشراب { أَفَلا يَشْكُرُونَ } [يس : 35] الله على إنعام الأنعام { وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ } [يس : 74] أي لعل أصنامهم تنصرهم إذا حزبهم أمر

21

{ لا يَسْتَطِيعُونَ } [النساء : 98] أي آلهتهم { نَصْرَهُمْ } نصر عابديهم { وَهُمْ لَهُمْ } [يس : 75] أي الكفار للأصنام { جُندٌ } أعوان وشيعة { مُحْضَرُونَ } يخدمونهم ويذبون عنهم ، أو اتخذوهم لينصروهم عند الله ويشفعوا لهم والأمر على خلاف ما توهموا حيث هم يوم القيامة جند معدون لهم محضرون لعذابهم لأنهم يجعلون وقود النار { فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ } [يس : 76] وبضم الياء وكسر الزاي : نافع من حزنه وأحزنه يعني فلا يهمك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم.

جزء : 4 رقم الصفحة : 21

{ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ } [يس : 76] من عداوتهم { وَمَا يُعْلِنُونَ } [البقرة : 77] وإنا مجازوهم عليه فحق مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهم ولا يرهقه الحزن.

ومن زعم أن من قرأ { إِنَّا نَعْلَمُ } [يس : 76] بالفتح فسدت صلاته وإن اعتقد معناه كفر فقد أخطأ ، لأنه يمكن حمله على حذف لام التعليل وهو كثير في القرآن والشعر وفي كل كلام ، وعليه تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلّم " أن الحمد والنعمة لك " ، كسر أبو حنيفة وفتح الشافعي رحمة الله عليهما ، وكلاهما تعليل.

فإن قلت : إن كان المفتوح بدلاً من { قَوْلُهُمْ } كأنه قيل : فلا يحزنك أنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ففساده ظاهر.

قلت : هذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول ، فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالماً وعدم تعلقه لا يدوران على كسر " إن " وفتحها ، وإنما يدوران على تقديرك فتفضل إن فتحت بـ " أن " تقدر معنى التعليل ولا تقدر معنى البدل كما أنك تفضل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت ولا تقدر معنى المفعولية.

ثم إن قدرته كاسراً أو فاتحاً على ما عظم فيه الخطب ذلك القائل فما فيه إلا نهي رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن الحزن على علمه تعالى بسرهم وعلانيتهم ، والنهي عن حزنه ليس إثباتاً لحزنه بذلك كما في قوله : { فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ } [القصص : 86] (القصص : 68) ، { وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام : 14] (الأنعام : 41) { وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَاهًا ءَاخَرَ } [القصص : 88] (القصص : 88).

ونزل في أبي بن خلف حين أخذ عظماً بالياً وجعل يفته بيده ويقول : يا محمد أترى الله يحيي

22

هذا بعدما رم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : " نعم ويبعثك ويدخلك جهنم " .
جزء : 4 رقم الصفحة : 21

(13/4)

{ أَوَلَمْ يَرَ الانسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ } مذرة خارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة { فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ } [النحل : 4] بين الخصومة أي فهو على مهانة أصله ودناءة أوله يتصدى لمخاصمة ربه وينكر قدرته على إحياء الميت بعد ما رمت عظامه ، ثم يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به وهو كونه منشأ من موات وهو ينكر إنشاءه من موات وهو غاية المكابرة { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا } [يس : 78] بفته العظم { وَنَسِىَ خَلْقَهُ } [يس : 78] من المني فهو أغرب من إحياء العظم ، المصدر مضاف إلى المفعول أي خلقنا إياه { قَالَ مَن يُحْىِ الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ } هو اسم لما بلي من العظام غير صفة كالرمة والرفات ولهذا لم يؤنث ، وقد وقع خبراً لمؤنث ومن يثبت الحياة في العظام ويقول إن عظام الميتة نجسة لأن الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها يتشبث بهذه الآية وهي عندنا طاهرة ، وكذا الشعر والعصب لأن الحياة لا تحلها فلا يؤثر فيها الموت.

والمراد بإحياء العظام في الآية ردها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حي حساس { قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَآ } [يس : 79] خلقها { أَوَّلَ مَرَّةٍ } [التوبة : 13] أي ابتداء { وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ } [يس : 79] مخلوق { عَلِيمٌ } لا تخفى عليه أجزاؤه وإن تفرقت في البر والبحر فيجمعه ويعيده كما كان { الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الاخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْه تُوقِدُونَ } [يس : 80] تقدحون.

ثم ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر مع مضادة النار الماء وانطفائها به وهي الزناد التي تورى بها الأعراب وأكثرها من المرخ والعفار ، وفي أمثالهم " في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار " لأن المرخ شجر سريع
23
الوري ، والعفار شجر تقدح منه النار ، يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ . وهو ذكر . على العفار . وهي أنثى . فتتقدح النار بإذن الله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب لمصلحة الدق للثياب ، فمن قدر على جمع الماء والنار في الشجر قدر على المعاقبة بين الموت والحياة في البشر ، وإجراء أحد الضدين على الآخر بالعقيب أسهل في العقل من الجمع معاً بلا ترتيب.

والأخضر على اللفظ وقريء الخضراء على المعنى.

جزء : 4 رقم الصفحة : 21

ثم بين أن من قدر على خلق السماوات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسيّ أقدر بقوله

{ أَوَ لَيْسَ } في الصغر بالإضافة إلى السماوات والأرض أو أن يعيدهم لأن المعاد مثل للمبتدأ وليس به { بَلَى } أي قل بلى هو قادر على ذلك { وَهُوَ الْخَلَّاقُ } [يس : 81] الكثير المخلوقات { الْعَلِيمِ } الكثير المعلومات { إِنَّمَآ أَمْرُهُ } [يس : 82] شأنه { إِذَآ أَرَادَ شيئا أَن يَقُولَ لَهُ كُن } [يس : 82] أن يكونه { فَيَكُونُ } فيحدث أي فهو كائن موجود لا محالة.

فالحاصل أن المكونات بتخليقه وتكوينه ولكن عبر عن إيجاده بقوله { كُن } من غير أن كان منه كاف ونون وإنما هو بيان لسرعة الإيجاد كأنه يقول : كما لا يثقل قول " كن " عليكم فكذا لا يثقل على الله ابتداء الخلق وإعادتهم ، { فَيَكُونُ } شامي وعلي عطف على { يَقُولَ } ، وأما الرفع فلأنها جملة من مبتدأ وخبر لأن تقديرها " فهو يكون " معطوفة على مثلها وهي " أمره أن يقول له كن " { فَسُبْحَانَ } تنزيه مما وصفه به المشركون وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا { الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ } [يس : 83] أي ملك كل شيء.

وزيادة الواو والتاء للمبالغة يعني هو مالك كل شيء { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [البقرة : 245] تعادون بعد الموت بلا فوت ، { تُرْجَعُونَ } : يعقوب.

قال عليه الصلاة والسلام " إن لكل شيء قلباً وإن قلب القرآن يس " ، " من قرأ يس يريد بها وجه الله غفر الله له وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين

24

مرة " وقال عليه السلام " من قرأ يس أمام حاجته قضيت له " وقال عليه السلام " من قرأها إن كان جائعاً أشبعه الله ، وإن كان ظمان أرواه الله ، وإن كان عرياناً ألبسه الله ، وإن كان خائفاً أمنه الله ، وإن كان مستوحشاً آنسه الله ، وإن كان فقيراً أغناه الله ، وإن كان في السجن أخرجه الله ، وإن كان أسيراً خلصه الله ، وإن كان ضالاً هداه الله ، وإن كان مديوناً قضى الله دينه من خزائنه " وتدعى الدافعة والقاضية تدفع عنه كل سوء وتقضي له كل حاجة.

25

سورة الصافات

مكية وهي مائة وإحدى ، أو اثنتان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا } أقسم سبحانه وتعالى بطوائف الملائكة ، أو بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة.

فالزاجرات الحساب سوقاً أو عن المعاصي بالإلهام ، فالتاليات لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها

وهو قول ابن عباس وابن مسعود ومجاهد ؛ أو بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها في التهجد وسائر الصلوات ، فالزاجرات بالمواعظ والنصائح ، فالتاليات آيات الله والدارسات شرائعه.
أو بنفوس الغزاة في سبيل الله التي تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد وتتلو الذكر مع ذلك.
و { صَفًّا } مصدر مؤكد وكذلك { زَجْرًا } والفاء تدل على ترتيب الصفات في التفاضل فتفيد الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة أو على العكس.
وجواب القسم { إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ } [الصافات : 4] قيل : هو جواب قولهم { أَجَعَلَ الالِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا } [ص : 5] (ص : 5) { رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [الأنبياء : 56] خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف أي هو رب { وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ } [الصافات : 5] أي مطالع الشمس وهي ثلثمائة وستون مشرقاً ، وكذلك

المغرب تشرق الشمس كل يوم في مشرق منها وتغرب في مغرب منها ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين.
وأما { رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ } [الرحمن : 17] (الرحمن : 71) فإنه أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما ، وأما { رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ } [المزمل : 9] (المزمل : 9) فإنه أراد به الجهة فالمشرق جهه والمغرب جهة.
جزء : 4 رقم الصفحة : 26
{ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا } [الصافات : 6] القربى منكم تأنيث الأدنى { بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ } [الصافات : 6] حفص وحمزة على البدل من { زِينَةُ } والمعنى إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب ، { بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ } [الصافات : 6] أبو بكر على البدل من محل { بِزِينَةٍ } أو على إضمار أعني أو على إعمال المصدر منوناً في المفعول ، { بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ } [الصافات : 6] غيرهم بإضافة المصدر إلى الفاعل أي بأن زانتها الكواكب وأصله بزينةٍ الكواكب أو على إضافته إلى المفعول أي بأن زان الله الكواكب وحسنها ، لأنها إنما زينت السماء لحسنها في أنفسها وأصله { بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ } [الصافات : 6] لقراءة أبي بكر { وَحِفْظًا } محمول على المعنى لأن المعنى إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً من الشياطين كما قال { وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ } [الملك : 5] (الملك : 5) أو الفعل المعلل مقدر كأنه قيل : وحفظاً من كل شيطان قد زيناها بالكواكب ، أو معناه حفظناها حفظاً { مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ } [الصافات : 7] خارج من الطاعة.
والضمير في { لا يَسَّمَّعُونَ } [الأعراف : 100] لكل شيطان لأنه في معنى الشياطين ، { يَسَّمَّعُونَ } كوفي غير أبي بكر ، وأصله " يتسمعون " والتسمع تطلب السماع يقال : تسمع فسمع أو فلم يسمع. وينبغي أن يكون كلاماً منقطعاً مبتدأ اقتصاصاً لما عليه حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة أو يتسمعوا.
وقيل : أصله لئلا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت في " جئتك أن تكرمني " فبقي أن لا يسمعوا

فحذفت أن وأهدر عملها كما في
27
قوله :
جزء : 4 رقم الصفحة : 26
ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى

(15/4)

وفيه تعسف يجب صون القرآن عن مثله ، فإن كل واحد من الحذفين غير مردود على انفراده ولكن اجتماعهما منكر.

والفرق بين " سمعت فلاناً " يتحدث و " سمعت إليه يتحدث " و " سمعت حديثه " و " إلى حديثه " ، أن المعدى بنفسه يفيد الإدراك ، والمعدى بـ " إلى " يفيد الإصغاء مع الإدراك { إِلَى الْمَلا الاعْلَى } [الصافات : 8] أي الملائكة لأنهم يسكنون السماوات ، والإنس والجن هم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض { وَيُقْذَفُونَ } يرمون بالشهب { مِن كُلِّ جَانِبٍ } [الصافات : 8] من جميع جوانب السماء من أي جهة صعدوا للإسترق { دُحُورًا } مفعول له أي ويقذفون للدحور وهو الطرد ، أو مدحورين على الحال ، أو لأن القذف والطرد متقاربان في المعنى فكأنه قيل : يدحرون أو قذفاً { وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ } [الصافات : 9] دائم من الوصوب أي أنهم في الدنيا مرجومون بالشهب وقد أعد لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم غير منقطع.

و " من " في { إِلا مَنْ } [سبأ : 37] في محل الرفع بدل من الواو في { لا يَسَّمَّعُونَ } [الأعراف : 100] أي لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي { خَطِفَ الْخَطْفَةَ } [الصافات : 10] أي سلب السلبة يعني أخذ شيئاً من كلامهم بسرعة { فَأَتْبَعَهُ } لحقه { شِهَابٌ } أي نجم رجم { ثَاقِبٌ } مضيء.

{ فَاسْتَفْتِهِمْ } فاستخبر كفار مكة { أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا } [الصافات : 11] أي أقوى خلقاً من قولهم شديد الخلق وفي خلقه شدة ، أو أصعب خلقاً وأشقه على معنى الرد لإنكارهم البعث ، وأن من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق البشر عليه أهون { أَم مَّنْ خَلَقْنَآ } [الصافات : 11] يريد ما ذكر من خلائقه من الملائكة والسماوات والأرض وما بينهما.

وجيء بـ " من " تغليباً للعقلاء على غيرهم ويدل عليه قراءة من قرأ " أم من " عددنا بالتشديد والتخفيف.

{ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لازِب } [الصافات : 11] لاصق أو لازم وقرىء به ، وهذا شهادة عليهم بالضعف لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة ، أو احتجاج عليهم بأن الطين

اللازب الذي خلقوا منه تراب فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا أئذا كنا تراباً؟ وهذا
28
المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث { بَلْ عَجِبْتَ } [الصافات : 12] من تكذيبهم إياك { وَيَسْخَرُونَ } هم منك ومن تعجبك ، أو عجبت من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث ، { بَلْ عَجِبْتَ } [الصافات : 12] حمزة وعلي أي استعظمت ، والعجب روعة تعتري الإنسان عند استعظام الشيء فجرد لمعنى الاستعظام في حقه تعالى لأنه لا يجوز عليه الروعة ، أو معناه قل يا محمد بل عجبت { وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ } [الصافات : 13] ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به.
جزء : 4 رقم الصفحة : 26
{ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً } [الصافات : 14] معجزة كانشقاق القمر ونحوه { يَسْتَسْخِرُونَ } يستدعي بعضهم بعضاً أن يسخر منها أو يبالغون في السخرية.
{ وَقَالُوا إِنْ هَاذَآ } [الصافات : 15] ما هذا { إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ } [المائدة : 110] ظاهر { أَءِذَا } استفهام إنكار { مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [المؤمنون : 82] أي أنبعث إذا كنا تراباً وعظاماً معطوف على محل " ان " واسمها ، أو على الضمير في { أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ } [المطففين : 4] والمعنى أيبعث أيضاً آباؤنا على زيادة الاستبعاد يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل.
{ أَوَ ءَابَآؤُنَا } [الصافات : 17] بسكون الواو : مدني و شامي أي أيبعث واحد منا على المبالغة في الإنكار { الاوَّلُونَ } الأقدمون { قُلْ نَعَمْ } [الصافات : 18] تبعثون { نَعَمْ } علي وهما لغتان { وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ } [الصافات : 18] صاغرون { فَإِنَّمَا هِىَ } [النازعات : 13] جواب شرط مقدر تقديره إذا كان كذلك فما هي إلا { زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ } [النازعات : 13] و " هي " لا ترجع إلى شيء إنما هي مبهمة موضحها خبرها ، ويجوز فإنما البعثة زجرة واحدة وهي النفخة الثانية.
والزجرة الصيحة من قولك زجر الراعي الإبل أو الغنم إذا صاح عليها ف { أَذَا هُمْ } أحياء بصراء { يَنظُرُونَ } إلى سوء أعمالهم أو ينتظرون ما يحل بهم
29

{ وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا } [الصافات : 20] الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة { هَاذَا يَوْمُ الدِّينِ } [الصافات : 20] أي اليوم الذي ندان فيه أي نجازي بأعمالنا { هَاذَا يَوْمُ الْفَصْلِ } [الصافات : 21] يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلال { الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ } [السجدة : 20] ثم يحتمل أن

يكون { هَاذَا يَوْمُ الدِّينِ } [الصافات : 20] إلى قوله { احْشُرُوا } من كلام الكفرة بعضهم مع بعض ، وأن يكون من كلام الملائكة لهم ، وأن يكون { وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَاذَا يَوْمُ الدِّينِ } من كلام الكفرة و { هَاذَا يَوْمُ الْفَصْلِ } [الصافات : 21] من كلام الملائكة جواباً لهم.

جزء : 4 رقم الصفحة : 26

{ احْشُرُوا } خطاب الله للملائكة { الَّذِينَ ظَلَمُوا } [البقرة : 165] كفروا { وَأَزْوَاجَهُمْ } أي وأشباههم وقرناءهم من الشياطين أو نساءهم الكافرات ، والواو بمعنى " مع " وقيل : للعطف.

وقرىء بالرفع عطفاً على الضمير في { ظَلَمُوا } { وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ } أي الأصنام { فَاهْدُوهُمْ } دلوهم ، عن الأصمعي : هديته في الدين هدىً وفي الطريق هداية { إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ } [الصافات : 23] طريق النار { وَقِفُوهُمْ } احبسوهم { إِنَّهُمْ } عن أقوالهم وأفعالهم { لا تَجْاَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ } [الصافات : 25] أي لا ينصر بعضكم بعضاً ، وهذا توبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعدما كانوا متناصرين في الدنيا.

وقيل : هو جواب لأبي جهل حيث قال يوم بدر نحن جميع منتصر ، وهو في موضع النصب على الحال أي ما لكم غير متناصرين { بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ } [الصافات : 26] منقادون أو قد أسلم بعضهم بعضاً وخذله عن عجر وكلهم مستسلم غير منتصر.

{ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ } [الصافات : 27] أي التابع على المتبوع { يَتَسَآءَلُونَ } يتخاصمون 30

{ قَالُوا } أي الأتباع للمتبوعين { إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ } [الصافات : 28] عن القوة والقهر إذ اليمين موصوفة بالقوة وبها يقع البطش أي أنكم كنتم تحمولننا على الضلال وتقسروننا عليه.

جزء : 4 رقم الصفحة : 26

{ قَالُوا } أي الرؤساء { بَلْ لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [الصافات : 29] أي بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه مختارين له على الكفر غير ملجئين { وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَان } [الصافات : 30] تسلط نسلبكم به تمكنكم واختياركم { بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ } [الصافات : 30] بل كنتم قوماً مختارين الطغيان { فَحَقَّ عَلَيْنَا } [الصافات : 31] فلزمنا جميعاً { قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآ ئِقُونَ } [الصافات : 31] يعني وعيد الله بأنا ذائقون لعذابه لا محالة لعلمه بحالنا ، ولو حكى الوعيد كما هو لقال إنكم لذائقون ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم ونحوه قوله : فقد زعمت هوازن قل ما لي ولو حكي قولها لقال " قل مالك " { فَأَغْوَيْنَاكُمْ } فدعوناكم إلى الغي { إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ } [الصافات : 32] فأردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا { فَإِنَّهُمْ } فإن الأتباع والمتبوعين جميعاً { يَوْمَاإِذٍ } يوم القيامة { فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ } [الصافات : 33] كما كانوا مشتركين في الغواية { إِنَّا كَذَالِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ } [الصافات : 34] أي بالمشركين إنا مثل ذلك الفعل نفعل بكل مجرم { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَاهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ } [الصافات : 35] إنهم كانوا إذا سمعوا بكلمة التوحيد استكبروا وأبو إلا الشرك

31
{ وَيَقُولُونَ } بهمزتين : شامي وكوفي { ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُون * بَلْ } يعنون محمداً عليه السلام { بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ } [الصافات : 37] رد على المشركين { وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ } [الصافات : 37] كقوله : { مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } [فاطر : 31] (البقرة : 79).
جزء : 4 رقم الصفحة : 31

(17/4)

{ إِنَّكُمْ لَذَآ ئِقُوا الْعَذَابِ الاليمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } بلا زيادة { إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } [الصافات : 40] بفتح اللام : كوفي ومدني ، وكذا ما بعده أي لكن عباد الله على الاستثناء المنقطع { أُوْلئك لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ } فسر الرزق المعلوم بالفواكه وهي كل ما يتلذذ به ولا يتقوت لحفظ الصحة يعني أن رزقهم كله فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات لأن أجسادهم محكمة مخلوقة للأبد فما يأكلونه للتلذذ ، ويجوز أن يراد رزق معلوم منعوت بخصائص خلق عليها من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر.
وقيل : معلوم الوقت كقوله : { وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا } [مريم : 62] (مريم : 26) والنفس إليه أسكن { وَهُم مُّكْرَمُونَ } [الصافات : 42] منعمون { فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } [يونس : 9] يجوز أن يكون ظرفاً وأن يكون حالاً وأن يكون خبراً بعد خبر ، وكذا { عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ } [الحجر : 47] التقابل أتم للسرور وآنس { يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ } [الصافات : 45] بغير همز : أبو عمرو وحمزة في الوقف ، وغيرهما بالهمزة.
يقال للزجاجة فيها الخمر كأس وتسمى الخمر نفسها كأساً.
وعن
32
الأخفش : كل كأس في القرآن فهي الخمر ، وكذا في تفسير ابن عباس رضي الله عنهما { مِّن مَّعِين } [الصافات : 45] من شراب معين أو من نهر معين وهو الجاري على وجه الأرض الظاهر للعيون ، وصف بما وصف به الماء لأنه يجري في الجنة في أنهار كما يجري الماء قال الله تعالى : { وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ } [محمد : 15] (محمد : 51) { بَيْضَآءَ } صفة للكأس { لَذَّةٍ } وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها أو ذات لذة { لِّلشَّارِبِينَ } .
جزء : 4 رقم الصفحة : 31
{ لا فِيهَا غَوْلٌ } [الصافات : 47] أي لا تغتال عقولهم كخمور الدنيا وهو من غاله يغوله غولاً إذا أهلكه وأفسده { وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ } [الصافات : 47] يسكرون من نزف الشارب إذا ذهب عقله

ويقال للسكران نزيف ومنزوف ، { يُنزَفُونَ } علي وحمزة أي لا يسكرون أو لا ينزف شرابهم من أنزف الشارب إذا ذهب عقله أو شرابه { وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ } [ص : 52] قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمددن طرفاً إلى غيرهم { عِينٌ } جمع عيناء أي نجلاء واسعة العين { كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ } [الصافات : 49] مصون شبههن ببيض النعام المكنون في الصفاء وبها تشبه العرب النساء وتسميهن بيضات الخدور.

وعطف { فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ } [الصافات : 50] يعني أهل الجنة.

{ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ } [الصافات : 27] عطف على { يُطَافُ عَلَيْهِم } [الزخرف : 71] والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب كعادة الشّرب قال :

جزء : 4 رقم الصفحة : 33

وما بقيت من اللذات إلا

أحاديث الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا إلا أنه جيء به ماضياً على ما عرف في أخباره.

{ قَالَ قَآ ئِلٌ مِّنْهُمْ إِنّى كَانَ لِى قَرِينٌ * يَقُولُ أَءِنَّكَ } بهمزتين : شامي وكوفي { لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ } [الصافات : 52] بيوم الدين

33

(18/4)

{ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [الصافات : 16] لمجزيون من الدين وهو الجزاء { قَالَ } ذلك القائل { هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ } [الصافات : 54] إلى النار لأريكم ذلك القرين قيل : إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار.

أو قال الله تعالى لأهل الجنة : هل أنتم مطلعون إلى النار فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار { فَاطَّلَعَ } المسلم { فَرَءَاهُ } أي قرينة { فِى سَوَآءِ الْجَحِيمِ } [الصافات : 55] في وسطها { قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ } [الصافات : 56] " إن " مخففة من الثقيلة وهي تدخل على " كاد " كما تدخل على " كان " ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية والإرداء الإهلاك.

وبالياء في الحالين : يعقوب { وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبّى } [الصافات : 57] وهي العصمة والتوفيق في الاستمساك بعروة الإسلام { لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } [الصافات : 57] من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأمثالك { أَفَمَا نَحْنُ بِمَيّتِينَ * إِلا مَوْتَتَنَا الاولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } الفاء للعطف على محذوف تقديره أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين ، والمعنى أن هذه حال المؤمنين

وهو أن لا يذوقوا إلا الموتة الأولى بخلاف الكفار فإنهم فيما يتمنون فيه الموت كل ساعة.
وقيل لحكيم : ما شر من الموت؟ قال : الذي يتمنى فيه الموت.
وهذا قول يقوله المؤمن تحدثاً بنعمة الله يسمع من قرينه ليكون توبيخاً له وزيادة تعذيب.
و { مَوْتَتَنَا } نصب على المصدر والاستثناء متصل تقديره ولا نموت إلا مرة ، أو منقطع وتقديره لكن الموتة الأولى قد كانت في الدنيا.
ثم قال لقرينه تقريعاً له
جزء : 4 رقم الصفحة : 33
{ إِنْ هَاذَآ } [ص : 23] أي الأمر الذي نحن فيه { لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [الصافات : 60].
ثم قال الله عز وجل { لِمِثْلِ هَاذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ } [الصافات : 61] وقيل : هو أيضاً من كلامه.
34
{ أَذَالِكَ خَيْرٌ نُّزُلا } [الصافات : 62] تمييز { أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ } [الصافات : 62] أي نعيم الجنة وما فيها من اللذات والطعام والشراب خير نزلاً أم شجرة الزقوم خير نزلاً؟ والنزل ما يقام للنازل بالمكان من الرزق ، والزقوم : شجرة مر يكون بتهامة { إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ } [الصافات : 63] محنة وعذاباً لهم في الآخرة أو ابتلاء لهم في الدنيا ، وذلك أنهم قالوا : كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر فكذبوا { إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ } [الصافات : 64] قيل منتبهاً في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها { طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ } [الصافات : 65] الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها ، وشبه برءوس الشياطين للدلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر ، لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض.
وقيل : الشيطان حية عرفاء قبيحة المنظر هائلة جداً.
جزء : 4 رقم الصفحة : 33
{ فَإِنَّهُمْ لاكِلُونَ مِنْهَا } [الصافات : 66] من الشجرة أي من طلعها { فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا الْبُطُونَ } [الصافات : 66] فمالئون بطونهم لما يغلبهم من الجوع الشديد { ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا } [الصافات : 67] على أكلها { لَشَوْبًا } لخلطاً ولمزاجاً { مِّنْ حَمِيمٍ } [الصافات : 67] ماء حار يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم كما قال في صفة شراب أهل الجنة { وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ } [المطففين : 27] (المطففين : 72) والمعنى ثم إنهم يملئون البطون من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم ويعطشهم فلا يسقون إلا بعد ملىء تعذيباً لهم بذلك العطش ثم يسقون ما هو أحر وهو الشراب المشوب بالحميم.
{ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لاَلَى الْجَحِيمِ } [الصافات : 68] أي أنهم يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم في الجحيم وهي الدركات التي أسكنوها إلى شجرة الزقوم فيأكلون إلى أن
35

يمتلئوا ويسقون بعد ذلك ثم يرجعون إلى دركاتهم ، ومعنى التراخي في ذلك ظاهر { إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ } علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد بتقليد الآباء في الدين واتباعهم إياهم في الضلال وترك اتباع الدليل.

والإهراع : الإسراع الشديد كأنهم يحثون حثاً { وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ } [الصافات : 71] قبل قومك قريش { أَكْثَرُ الاوَّلِينَ } [الصافات : 71] يعني الأمم الخالية بالتقليد وترك النظر والتأمل { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ } [الصافات : 72] أنبياء حذروهم العواقب { فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ } [يونس : 73] أي الذين أنذروا وحذروا أي أهلكوا جميعاً { إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } [الصافات : 40] أي إلا الذين آمنوا منهم وأخلصوا لله دينهم أو أخلصهم الله لدينه على القراءتين.

جزء : 4 رقم الصفحة : 33

ولما ذكر إرسال المنذرين في الأمم الخالية وسوء عاقبة المنذرين أتبع ذلك ذكر نوح ودعاءه إياه حين أيس من قومه بقوله { وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ } [الصافات : 75] دعانا لننجيه من الغرق.

وقيل : أريد به قوله { أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ } [القمر : 10] (القمر : 01) { فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ } [الصافات : 75] اللام الداخلة على " نعم " جواب قسم محذوف ، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ولقد نادانا نوح فوالله لنعم المجيبون نحن ، والجمع دليل العظمة والكبرياء.

والمعنى إنا أجبناه أحسن الإجابة ونصرناه على أعدائه وانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون

36

{ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ } [الصافات : 76] ومن آمن به وأولاده { مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ } [الأنبياء : 76] وهو الغرق { وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ } [الصافات : 77] وقد فني غيرهم.

قال قتادة : الناس كلهم من ذرية نوح وكان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد : سام وهو أبو العرب وفارس والروم ، وحام وهو أبو السودان من المشرق إلى المغرب ، ويافث وهو أبو الترك ويأجوج ومأجوج.

{ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الاخِرِينَ } [الصافات : 78] من الأمم هذه الكلمة وهي { سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ } [الصافات : 79] يعني يسلمون عليه تسليماً ويدعون له وهو من الكلام المحكي كقولك " قرأت سورة أنزلناها " { فِى الْعَالَمِينَ } [الصافات : 79] أي ثبت هذه التحية فيهم جميعاً ولا يخلو أحد منهم منها كأنه قيل : ثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم { إِنَّا كَذَالِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ } [الصافات : 80] علل مجازاته بتلك التكرمة السنية بأنه كان محسناً { إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ } [الصافات : 81] ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً ليريك جلالة محل الإيمان وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم { ثُمَّ أَغْرَقْنَا الاخَرِينَ } [الشعراء : 66] أي الكافرين.

جزء : 4 رقم الصفحة : 33

{ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لابْرَاهِيمَ } أي من شيعة نوح أي ممن شايعه على أصول الدين أو شايعه على التصلب في دين الله ومصابرة المكذبين ، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة وما كان بينهما إلا نبيان هود وصالح.

جزء : 4 رقم الصفحة : 37

{ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ } [الصافات : 84] " إذ " تعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة يعني وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه { بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الشعراء : 89] من الشرك أو من آفات القلوب 37

لإبراهيم ، أو بمحذوف وهو " اذكر " .

ومعنى المجيء بقلبه ربه أنه أخلص لله قلبه وعلم الله ذلك منه فضرب المجيء مثلاً لذلك { إِذْ } بدل من الأولى { قَالَ لابِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَاِفْكًا ءَالِهَةً } مفعول له تقديره أتريدون آلهة من دون الله إفكاً؟ وإنما قدم المفعول به على الفعل للعناية ، وقدم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم.

ويجوز أن يكون { وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا } [العنكبوت : 17] مفعولاً به أي أتريدون إفكاً؟ ثم فسر الإفك بقوله { دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ } [الصافات : 86] على أنها إفك في نفسها ، أو حالاً أي أتريدون آلهة من دون الله آفكين؟ { فَمَا ظَنُّكُم } [الصافات : 87] أيّ شيء ظنكم { بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف : 121] وأنتم تعبدون غيره؟ و " ما " رفع بالابتداء والخبر { ظَنُّكُم } أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره وعلمتم أنه المنعم على الحقيقة فكان حقيقاً بالعبادة؟ { فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ } [الصافات : 88] أي نظر في النجوم رامياً ببصره إلى السماء متفكراً في نفسه كيف يحتال ، أو أراهم أنه ينظر في النجوم لاعتقادهم علم النجوم فأوهمهم أنه استدل بأمارة على أنه يسقم { فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ } [الصافات : 89] أي مشارف للسقم وهو الطاعون وكان أغلب الإسقام عليهم وكانوا يخافون العدوى ليتفرقوا عنه فهربوا منه إلى عيدهم وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد ، ففعل بالأصنام ما فعل.

وقالوا : علم النجوم كان حقاً ثم نسخ الاشتغال بمعرفته.

والكذب حرام إلا إذا عرّض ، والذي قاله إبراهيم عليه السلام معراض من الكلام أي سأسقم ، أو من الموت في عنقه سقيم ومنه المثل " كفى بالسلامة داء " .

ومات رجل فجأة فقالوا : مات وهو صحيح.

فقال أعرابي : أصحيح من الموت في عنقه ، أو أراد إني سقيم النفس لكفركم كما يقال أنا مريض القلب من كذا
38
{ فَتَوَلَّوْا } فأعرضوا { عَنْهُ مُدْبِرِينَ } [الصافات : 90] أي مولين الأدبار.
جزء : 4 رقم الصفحة : 37
{ فَرَاغَ إِلَى ءَالِهَتِهِمْ } [الصافات : 91] فمال إليهم سراً { فَقَالَ } استهزاء { أَلا تَأْكُلُونَ } [الصافات : 91] وكان عندها طعام { مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ } [الصافات : 92] والجمع بالواو والنون لما أنه خاطبها خطاب من يعقل { فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبَا } [الصافات : 93] فأقبل عليهم مستخفياً كأنه قال فضربهم ضرباً لأن { سَوَا ءٌ عَلَيْهِمْ } بمعنى ضربهم أو فراغ عليهم يضربهم ضرباً أي ضارباً { بِالْيَمِينِ } أي ضرباً شديداً بالقوة لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما أو بالقوة والمتانة ، أو بسبب الحلف الذي سبق منه وهو قوله { وَتَاللَّهِ لاكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم } (الأنبياء : 75) { فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ } [الصافات : 94] إلى إبراهيم { يَزِفُّونَ } يسرعون من الزفيف وهو الإسراع.
{ يَزِفُّونَ } حمزة من أزفّ إذا دخل في الزفيف إزفافاً فقال لمن رآه بعضهم يكسرها وبعضهم لم يره فأقبل من رآه مسرعاً نحوه ثم جاء من لم يره يكسرها فكأنه قد رآه { مَن فَعَلَ هَاذَا بِـَالِهَتِنَآ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّـالِمِينَ } [الأنبياء : 59] ، فأجابوه على سبيل التعريض بقولهم { سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُا إِبْرَاهِيمُ } [الأنبياء : 60] (الأنبياء : 06) ثم قالوا بأجمعهم نحن نعبدها وأنت تكسرها فأجابهم بقوله { قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } [الصافات : 95] بأيديكم { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصافات : 96] وخلق ما تعملونه من الأصنام أو " ما " مصدرية أي وخلق أعمالكم وهو دليلنا في خلق الأفعال أي الله خالقكم وخالق أعمالكم فلم تعبدون غيره؟
39

{ قَالُوا ابْنُوا لَهُ } [الصافات : 97] أي لأجله { بُنْيَانًا } من الحجر طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً { فَأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ } [الصافات : 97] في النار الشديدة.
وقيل : كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم { فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا } [الصافات : 98] بإلقائه في النار { فَجَعَلْنَاهُمُ الاسْفَلِينَ } [الصافات : 98] المقهورين عند الإلقاء فخرج من النار { وَقَالَ إِنّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبّى } [الصافات : 99] إلى موضع أمرني بالذهاب إليه { سَيَهْدِينِ } سيرشدني إلى ما فيه صلاحي في ديني ويعصمني ويوفقني.
فيهما : يعقوب.

جزء : 4 رقم الصفحة : 37
{ سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ } [الصافات : 100] بعض الصالحين يريد الولد لأن لفظ الهبة غلب في الولد { فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ } [الصافات : 101] انطوت البشارة على ثلاث : على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ أوان الحلم لأن الصبي لا يوصف بالحلم ، وأنه يكون حليماً وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال : { سَتَجِدُنِى إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } [الصافات : 102].
ثم استسلم لذلك.
{ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ } [الصافات : 102] بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه.
و { مَعَهُ } لا يتعلق بـ { بَلَغَ } لاقتضائه بلوغهما معاً حد السعي ، ولا بـ { السَّعْىَ } لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه ، فبقي أن يكون بياناً كأنه لما قال : { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ } أي الحد الذي يقدر فيه على السعي قيل : مع من؟ قال : مع أبيه وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة { قَالَ يَابُنَىَّ } [الصافات : 102] حفص والباقون بكسر الياء { إِنّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنّى أَذْبَحُكَ } وبفتح الياء فيهما : حجازي وأبو عمرو.
قيل له في المنام : اذبح ابنك ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة.
وإنما لم يقل رأيت لأنه رأى مرة بعد مرة فقد قيل : رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له : إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا.
فلما أصبح روّى في ذلك من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثمّ سمي يوم التروية.
فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله فمن ثمّ سمي يوم عرفة.
ثم رأى مثل ذلك في
40
الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى اليوم يوم النحر { فَانظُرْ مَاذَا تَرَى } [الصافات : 102] من الرأي على وجه المشاورة لا من رؤية العين ، ولم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ولكن ليعلم أيجزع أم يصبر.
{ تَرَى } علي وحمزة أي ماذا تصبر من رأيك وتبديه { قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤمَرُ } [الصافات : 102] أي ما تؤمر به وقرىء به { سَتَجِدُنِى إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } [الصافات : 102] على الذبح.
روي أن الذبيح قال لأبيه : يا أبت خذ بناصيتي واجلس بين كتفي حتى لا أوذيك إذا أصابتني الشفرة ، ولا تذبحني وأنت تنظر في وجهي عسى أن ترحمني ، واجعل وجهي إلى الأرض.
ويروى اذبحني وأنا ساجد واقرأ على أمي السلام ، وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسهل لها.
جزء : 4 رقم الصفحة : 37

{ فَلَمَّآ أَسْلَمَا } [الصافات : 103] انقادا لأمر الله وخضعا.
وعن قتادة : أسلم هذا ابنه وهذا نفسه { وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } [الصافات : 103] صرعه على جبينه ووضع السكين على حلقه فلم يعمل ، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.
روي أن ذلك المكان عند الصخرة التي بمنى.
وجواب " لما " محذوف تقديره فلما أسلما وتله للجبين { وَنَادَيْنَاهُ أَن يَاإِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَآ } أي حققت ما أمرناك به في المنام من تسليم الولد للذبح كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، أو الجواب قبلنا منه و معطوف عليه { الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَالِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ } [الصافات : 80] تعليل لتخويل ما خولهما من الفرج بعد الشدة { إِنَّ هَاذَا لَهُوَ الْبَلَاؤُا الْمُبِينُ } الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم أو المحنة البينة.
جزء : 4 رقم الصفحة : 41

(22/4)

{ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ } [الصافات : 107] هو ما يذبح.
وعن ابن عباس : هو الكبش الذي قربه هابيل فقبل منه وكان يرعى في الجنة حتى فدي به إسماعيل.
وعنه : لو تمت تلك الذبيحة لصارت سنة وذبح الناس أبناءهم { عَظِيمٍ } ضخم الجثة سمين وهي السنة في الأضاحي.
41
وروي أنه هرب من إبراهيم عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فبقيت سنة في الرمي.
وروي أنه لما ذبحه قال جبريل : الله أكبر الله أكبر.
فقال الذبيح : لا إله إلا الله والله أكبر.
فقال إبراهيم : الله أكبر ولله الحمد ، فبقي سنة وقد استشهد أبو حنيفة رضي الله عنه بهذه الآية فيمن نذر ذبح ولده أنه يلزمه ذبح شاة.
والأظهر أن الذبيح إسماعيل وهو قول أبي بكر وابن عباس وابن عمر وجماعة من التابعين رضي الله عنهم لقوله عليه السلام " أنا ابن الذبيحين " ؟ فأحدهما جده إسماعيل والآخر أبوه عبد الله.
وذلك أن عبد المطلب نذر إن بلغ بنوه عشرة أن يذبح آخر ولده تقرباً ، وكان عبد الله آخراً ففداه بمائة من الإبل ، ولأن قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق

البيت في زمن الحجاج وابن الزبير.
وعن الأصمعي أنه قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعي أين عزب عنك عقلك ومتى كان اسحق بمكة وإنما كان إسماعيل بمكة ، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة.
وعن علي وابن مسعود والعباس وجماعة من التابعين رضي الله عنهم أنه إسحق ويدل عليه كتاب يعقوب إلى يوسف عليهما السلام : من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله.
وإنما قيل { وَفَدَيْنَاهُ } وإن كان الفادي إبراهيم عليه السلام والله تعالى هو المفتدى منه لأنه الآمر بالذبح ، لأنه تعالى وهب له الكبش ليفتدي به.
وههنا إشكال وهو أنه لا يخلو إما أن يكون ما أتى به إبراهيم عليه السلام من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه في حكم الذبح أم لا ، فإن كان في حكم الذبح فما معنى الفداء والفداء هو التخليص من الذبح ببدل؟ وإن لم يكن فما معنى قوله { قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَآ } [الصافات : 105] وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح أصلاً أو بدلاً ولم يصح؟ والجواب أنه عليه السلام قد بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح ، ولكن الله تعالى جاء
42
بما منع الشفرة أن تمضي فيه وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم ، ووهب الله له الكبش ليقيم ذبحه مقام تلك الحقيقة في نفس إسماعيل بدلاً منه وليس هذا بنسخ منه للحكم كما قال البعض ، بل ذلك الحكم كان ثابتاً إلا أن المحل الذي أضيف إليه لم يحله الحكم على طريق الفداء دون النسخ ، وكان ذلك ابتلاء ليستقر حكم الأمر عند المخاطب في آخر الحال ، على أن المبتغي منه في حق الولد أن يصير قرباناً بنسبة الحكم إليه مكرماً بالفداء الحاصل لمعرة الذبح مبتلى بالصبر والمجاهدة إلى حال المكاشفة ، وإنما النسخ بعد استقرار المراد بالأمر لا قبله وقد سمي فداء في الكتاب لا نسخاً.
{ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الاخِرِينَ } [الصافات : 78] ولا وقف عليه لأن { سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ } [الصافات : 109] مفعول { وَتَرَكْنَا } .
جزء : 4 رقم الصفحة : 41

(23/4)

{ كَذَالِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ } [الصافات : 80] ولم يقل " إنا كذلك " هنا كما في غيره لأنه قد سبق في هذه القصة فاستخف بطرحه اكتفاء بذكره مرة عن ذكره ثانية { إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا } حال مقدرة من { إِسْحَاقَ } ولا بد من تقدير مضاف محذوف أي وبشرناه بوجود إسحق نبياً أي بأن يوجد مقدرة نبوّته فالعامل في الحال الوجود لا البشارة { مِنَ الصَّالِحِينَ } [آل

عمران : 39] حال ثانية وورودها على سبيل الثناء لأن كل نبي لا بد وأن يكون من الصالحين { وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ } [الصافات : 113] أي أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا.
وقيل : باركنا على إبراهيم في أولاده ، وعلى إسحق بأن أخرجنا من صلبه ألف نبي ، أو لهم يعقوب وآخرهم عيسى عليهم السلام { وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ } [الصافات : 113] مؤمن { وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ } [الصافات : 113] كافر { مُّبِينٌ } ظاهر أو محسن إلى الناس وظالم على نفسه بتعديه عن حدود الشرع ، وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر ، فقد يلد البر الفاجر والفاجر البر وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر ، وعلى أن الظلم في
43
أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ولا نقيصة ، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله ويعاقب على ما اجترحت يداه لا على ما وجد من أصله وفرعه.
{ وَلَقَدْ مَنَنَّا } [الصافات : 114] أنعمنا { عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ } [الصافات : 114] بالنبوة { وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا } [الصافات : 115] بني إسرائيل { مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ } [الأنبياء : 76] من الغرق أو من سلطان فرعون وقومه وغشمهم { وَنَصَرْنَاهُمْ } أي موسى وهرون وقومهما { فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ } [الصافات : 116] على فرعون وقومه { وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ } [الصافات : 117] البليغ في بيانه وهو التوراة { وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [الصافات : 118] صراط أهل الإسلام وهي صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.
جزء : 4 رقم الصفحة : 41
{ الْمُرْسَلِينَ } هو إلياس بن ياسين من ولد هرون أخي موسى.
وقيل : هو إدريس النبي عليه السلام.
وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه { وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِدْرِيسَ } في موضع " إلياس " .
{ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ } [الصافات : 124] ألا تخافون الله { أَتَدْعُونَ } أتعبدون { بَعْلا } هو علم لصنم كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعاً وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء ، وكان موضعه يقال له بك فركب وصار بعلبك وهو من بلاد الشأم.
وقيل :
44

في إلياس والخضر إنهما حيان ، وقيل إلياس وكل بالفيافي كما وكل الخضر بالبحار ، والحسن يقول : قد هلك إلياس والخضر ولا تقول كما يقول الناس إنهما حيان { وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ }

[الصافات : 125] وتتركون عبادة الله الذي هو أحسن المقدرين { اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآ ئِكُمُ الاوَّلِينَ } [الصافات : 126] بنصب الكل : عراقي غير أبي بكر وأبي عمرو على البدل من { أَحْسَنَ } ، وغيرهم بالرفع على الابتداء.

{ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } [الصافات : 127] في النار { إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } [الصافات : 40] من قومه { يَاسِينَ } أي إلياس وقومه المؤمنين كقولهم الخبيبون يعني أبا خبيب عبد الله بن الزبير وقومه.

{ إِلْ يَاسِينَ } [الصافات : 130] شامي ونافع لأن ياسين اسم أبي إلياس فأضيف إليه الآل { إِنَّا كَذَالِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُا أَجْمَعِينَ * إِلا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ } في الباقين { ثُمَّ دَمَّرْنَا } [الشعراء : 172] أهلكنا { الاخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ } يا أهل مكة { لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ } [الصافات : 137] داخلين في الصباح { وَبِالَّيْلِ } والوقف عليه مطلق { أَفَلا تَعْقِلُونَ } [البقرة : 44] يعني تمرون على منازلهم في متاجركم إلى الشأم ليلاً ونهاراً فما فيكم عقول تعتبرون بها.

وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام كما ختم قصة من قبلهما ، لأن الله تعالى قد سلم على جميع المرسلين في آخر السورة فاكتفي بذلك عن ذكر كل واحد منفرداً بالسلام.

جزء : 4 رقم الصفحة : 41

{ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ } الإباق : الهرب إلى حيث لا
45
يهتدي إليه الطلب ، فسمى هربه من قومه بغير إذن ربه إباقاً مجازاً { إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ } [الصافات : 140] المملوء.

وكان يونس عليه السلام وعد قومه العذاب ، فلما تأخر العذاب عنهم خرج كالمستور منهم فقصد البحر وركب السفينة فوقفت فقالوا : ههنا عبد آبق من سيده.

وفيما يزعم البحارون أن السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فقال : أنا الآبق ، وزج بنفسه في الماء فذلك قوله { فَسَاهَمَ } فقارعهم مرة أو ثلاثاً بالسهام.

والمساهمة : إلقاء السهام على جهة القرعة { فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ } [الصافات : 141] المغلوبين بالقرعة { فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ } [الصافات : 142] فابتلعه { وَهُوَ مُلِيمٌ } [الصافات : 142] داخل في الملامة.

جزء : 4 رقم الصفحة : 45

{ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ } [الصافات : 143] من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح.

أو من القائلين { لا إِلَاهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } أو من المصلين قبل ذلك.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : كل تسبيح في القرآن فهو صلاة.

ويقال : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر { لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [الصافات :

144] الظاهر لبثه حياً إلى يوم البعث.
وعن قتادة : لكان بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة.
وقد لبث في بطنه ثلاثة أيام أو سبعة أو أربعين يوماً.
وعن الشعبي : التقمه ضحوة ولفظه عشية { فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَآءِ } [الصافات : 145] فألقيناه بالمكان الخالي الذي لا شجر فيه ولا نبات { وَهُوَ سَقِيمٌ } [الصافات : 145] عليل مما ناله من التقام الحوت.
وروي أنه عاد بدنه كبدن الصبي حين يولد { وَأَنابَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً } [الصافات : 146] أي أنبتناها فوقه مظلة له كما يطنّب البيت على
46

(25/4)

الإنسان { مِّن يَقْطِينٍ } [الصافات : 146] الجمهور على أنه القرع ، وفائدته أن الذباب لا يجتمع عنده وأنه أسرع الأشجار نباتاً وامتداداً وارتفاعاً.
وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلّم إنك لتحب القرع قال : " أجل هي شجرة أخي يونس " { وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِا ئَةِ أَلْفٍ } [الصافات : 147] المراد به القوم الذين بعث إليهم قبل الالتقام فتكون " قد " مضمرة { أَوْ يَزِيدُونَ } [الصافات : 147] في مرأى الناظر أي إذا رآها الرائي قال : هي مائة ألف أو أكثر.
وقال الزجاج : قال غير واحد : معناه بل يزيدون.
قال ذلك الفراء وأبو عبيدة ونقل عن ابن عباس كذلك { فَاَمَنُوا } به وبما أرسل به { فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ } [الصافات : 148] إلى منتهى آجالهم.
جزء : 4 رقم الصفحة : 45
{ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ } [الصافات : 149] معطوف على مثله في أول السورة أي على { فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا } [الصافات : 11] وإن تباعدت بينهما المسافة.
أمر رسول الله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً ، ثم ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض ، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها حيث جعلوا لله تعالى الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم الملائكة بنات الله مع كراهتهم الشديدة لهن ووأدهم واستنكافهم من ذكرهن { أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَـائِكَةَ إِنَـاثًا وَهُمْ شَـاهِدُونَ } [الصافات : 150] حاضرون تخصيص علمهم بالمشاهدة استهزاء بهم وتجهيل لهم لأنهم كما لم يعلموا ذلك مشاهدة لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم ولا بإخبار صادق ولا بطريق استدلال ونظر ، أو معناه أنهم يقولون ذلك عن طمأنينة نفس لإفراط جهلهم كأنهم شاهدوا

خلقهم { أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } في قولهم.
{ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ } [الصافات : 153] بفتح الهمزة للاستفهام ، وهو استفهام
47
توبيخ.
وحذفت همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام { مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } [القلم : 36] هذا الحكم الفاسد.
جزء : 4 رقم الصفحة : 45
{ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [يونس : 3] بالتخفيف : حمزة وعلي وحفص { أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ } [الصافات : 156] حجة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله { فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ } [الصافات : 157] الذي أنزل عليكم { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة : 23] في دعواكم { وَجَعَلُوا بَيْنَهُ } [الصافات : 158] بين الله { وَبَيْنَ الْجِنَّةِ } [الصافات : 158] الملائكة لاستتارهم { نَسَبًا } وهو زعمهم أنهم بناته أو قالوا إن الله تزوج من الجن فولدت له الملائكة { وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } [الصافات : 158] ولقد علمت الملائكة إن الذين قالوا هذا القول لمحضرون في النار { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } [المؤمنون : 91] نزه نفسه عن الولد والصاحبة { إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } [الصافات : 40] استثناء منقطع من المحضرين معناه ولكن المخلصين ناجون من النار و { سُبْحَانَ اللَّهِ } [الطور : 43] اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه ، ويجوز أن يقع الاستثناء من واو { يَصِفُونَ } أي يصفه هؤلاء بذلك ولكن المخلصون براء من أن يصفوه به { فَإِنَّكُمْ } يا أهل مكة { وَمَا تَعْبُدُونَ } [الصافات : 161] ومعبوديكم { مَآ أَنتُمْ } [يس : 15] وهم جميعاً { عَلَيْهِ } على الله { بِفَاتِنِينَ } بمضلين { إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ } [الصافات : 163] بكسر اللام أي لستم تضلون أحداً إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم بسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها.
يقال : فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها عليه.
وقال الحسن : فإنكم أيها القائلون بهذا القول والذي تعبدونه من الأصنام ، ما أنتم على عبادة الأوثان بمضلين أحداً إلا من قدر عليه أن يصلى الجحيم أي يدخل النار.
وقيل : ما أنتم بمضلين إلا من أوجبت عليه الضلال
48

في السابقة.
و " ما " في { مَآ أَنتُمْ } [يس : 15] نافية و " من " في موضع النصب بـ وقرأ الحسن { هُوَ صَالِ

الْجَحِيمِ } [الصافات : 163] بضم اللام ، ووجهه أن يكون جمعاً فحذفت النون للإضافة وحذفت الواو لالتقاء الساكنين هي واللام في الجحيم ومن موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه.

جزء : 4 رقم الصفحة : 45

{ وَمَا مِنَّآ } [الصافات : 164] أحد { إِلا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ } [الصافات : 164] في العبادة لا يتجاوزه فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه { وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ } [الصافات : 165] نصف أقدامنا في الصلاة أو نصف حول العرش داعين للمؤمنين { وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ } [الصافات : 166] المنزهون أو المصلون.

والوجه أن يكون هذا وما قبله من قوله { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } [المؤمنون : 91] من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم في قوله { وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ } [الصافات : 158] كأنه قيل : ولقد علم الملائكة وشهدوا أن المشركين مفترون عليهم في مناسبة رب العزة وقالوا سبحان الله ، فنزهوه عن ذلك واستثنوا عباد الله المخلصين وبرؤوهم منه وقالوا للكفرة : فإذا صح ذلك فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه وتضلوه إلا من كان من أهل النار ، وكيف نكون مناسبين لرب العزة وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه لكل منا مقام معلوم من الطاعة لا يستطيع أن يزل عنه ظفراً خشوعاً لعظمته ، ونحن الصافون أقدامنا لعبادته مسبحين ممجدين كما يجب على العباد لربهم؟

وقيل : هو من قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم يعني وما من المسلمين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله من قوله تعالى : { عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا } [الإسراء : 79] (الإسراء : 97) ثم ذكر أعمالهم وأنهم الذين يصطفون في الصلاة ويسبحون الله وينزهونه عما لا يجوز عليه.

{ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ } [الصافات : 167] أي مشركو قريش قبل مبعثه عليه السلام { لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الاوَّلِينَ } [الصافات : 168] أي كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل

{ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } [الصافات : 169] لأخلصنا العبادة لله ولما كذبنا كما كذبوا ولما خالفنا كما خالفوا ، فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب { فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [الصافات : 170] مغبة تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام.

و " إن " مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول جادين فيه فكم بين أول أمرهم وآخره { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ } [الصافات : 171] الكلمة قوله { إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ } وإنما سماها كلمة وهي كلمات لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة ، والمراد الموعد بعلوهم على عدوهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا وعلوهم عليهم في الآخرة.

وعن الحسن : ما غلب نبي في حرب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في العقبى.
والحاصل أن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه الظفر والنصرة وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة والعبرة للغالب.
جزء : 4 رقم الصفحة : 45
{ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ } [الصافات : 174] فأعرض عنهم { حَتَّى حِينٍ } [يوسف : 35] إلى مدة يسيرة وهي المدة التي أمهلوا فيها أو إلى يوم بدر أو إلى فتح مكة { وَأَبْصِرْهُمْ } أي أبصر ما ينالهم يومئذ { فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ } [الصافات : 175] ذلك وهو للوعيد لا للتبعيد ، أو انظر إليهم إذا عذبوا فسوف يبصرون ما أنكروا ، أو أعلمهم فسوف يعلمون.
{ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ } [الشعراء : 204] قبل حينه { فَإِذَا نَزَلَ } [الصافات : 177] العذاب { بِسَاحَتِهِمْ } بفنائهم { فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ } [الصافات : 177] صباحهم.
واللام في { الْمُنذَرِينَ } مبهم في جنس من أنذروا ، لأن " ساء " و " بئس " يقتضيان ذلك.
وقيل : هو نزول رسول الله صلى الله عليه وسلّم يوم الفتح بمكة.
مثّل العذاب النازل بهم بعدما أنذروه فأنكروه بجيش
50